

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جابري



تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: أنيس منصور



دار المعارف بمكة

هذا المعارف دار المعارف

أحمد عبّاد المجدّد

رسالة مع الظروف

اقرأ ٤١٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤٦٩)

الناشر: دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . ج . ٢٠٠٤ ع .

تَمْهِيد

تجمعت لى من أطراف العالم ، سهوله وأعالیه ، وحواضره وبواديه ، مادة وفيرة من كل ما اتصل بالظرف ، أو أَلَمَّ به ، أو طاف حوله وحول أهله من الماجنين وسّمار لياليه ، ومن اشتهر من الظرفاء فى العالمين العربى والغربى . وقد يجتمع القول الظريف ، وبنائه اللطيف ، فى لماحيته وعمقه ، داخل إطار واحد ، وعلى قاعدة ثابتة ، مهما تباينت الأجناس والأذواق والمشاعر والأحاسيس ، ومهما سلك أهل الظرف من الدروب ، ومن وسائل أكثرها من وحى الخاطر ، وأقلها مما كان عن دراسة وتعمق وفلسفة .

وهذا الاستقطاب لكافة الاتجاهات ، ومختلف طرائق البشر فى سوق الفكاهة ، أو خلق النادرة ، وفى عناصر الظرف وقواعد المجون ، هو مهمة هذا الكتاب ، للتعريف بما وراء المجون من مواقف ودواع .

ولست أزعّم أن ما أعرضه شيئاً فريداً جديداً ، إذ أن الأدب الغربى والأدب العربى يزخران بكتب وفيرة فى هذه المادة ، حتى لقد أصبح الأدب والظرف نسيجاً واحداً ، لا بد لأحدهما من صحبة الآخر ، ولا غناء لهذا عن ذلك .

ولست أدرى هل عرف التاريخ عصراً لم يكن فيه المجون والظرف من ضرورات الحياة ولوازم الحضارة الحديثة ، إلى حد أن فنون الآداب كانت تطلق منذ القرن الثالث الهجرى ، على فنون المنادمة عند العرب ، بما كانت

تحويه من فكاهة ونوادر وغناء وموسيقى ومطارحة للشعر ومساجلة في المدح أو الهجاء .

كما أنتى لا أدرى ، هل عرف الناس أدباً خلا من الملح والطرائف ،
التي هي قوام كل أدب ، وصميم كل أدب ، والأنس الذي يشرح الصدر ،
ويجلب راحة الفكر ، أينما حل الإنسان وحيثما ولى وجهه .

ولقد صدق معاوية في قوله الذي أورده الصابى في تحفة الأدباء :

« لا يكون للمرء صبرٌ على الجلد ، حتى يأخذ من الهزل قدراً » .

والمجون ملازم للإنسان في حالى الصحة والمرض ، واليسر والعسر ،
والراحة والتعب ، والرخاء والشدة . وإذا كان مفهوماً أن يكون المجنون
ملازماً لحالات الصحة والرخاء واليسر ، فإن قيامه فى الأمور المضادة
يكون عجباً ومستغرباً ، ولكنه عجب يزول إذا عرفنا أن التنديد
من طبع الإنسان ، إذا فاق الحد ، فى اللعب أو الجلد ، وفيما يعترض حياة
الناس فى مسعاهم ، من نخل وجشع ، ونفاق وتبجح ، واستكانة وحاجة ،
وأن هذا التنديد يشحذ قدرات الكتاب والشعراء ، وهذا هو لب الفكاهة
وصميم المجنون ، فى شرق كان ذلك أو فى غرب .

من ذلك قول عبد الحميد الديب وهو فى أشد حالات العوز والحاجة
يصف حجرته التى لم يكن بها من أثاث سواه :

تحملت فيها صبر أيوب فى الضنى

وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

* * *

ومهما يكن من أمر ما صدر فى هذا الشأن من كتب ، فإن الأقلام قد

تناولت كارل ماركس ، وشكسبير وبايرون وفكتور هيجو ولامارتين ،
 وبرنارد شو ، وأبا العلاء المعري وابن الرومي والمتنبي ، وكانت لكل كاتب
 زاويته التي تناول منها أدب المترجم له ، مثلما يصنع الرسامون والنحاتون في
 الموديل المعروض ، الذي ينقلون عنه أحاسيسهم ورؤيتهم الخاصة من
 زواياهم المختلفة ، ليروا في الموديل رؤى لا تلمحها العين المجردة ، لينقلوا
 عنه بفرشاتهم ، تلك الأحاسيس والمشاعر ، بعد أن استشفوا من واقع ما
 رأوا ، أفانين من الحقائق والأوهام ، تدب في أوصالها الحياة والفن .

الفصل الأول

مدخل إلى عالم الفكاهة والمجون

النكتة كما فسرها علماء النفس والفلاسفة ، إنما هي محاولة لإعادة التوازن داخل النفس المضطربة بالقلق ، التي هزتها أحداث زعزعتها عندما وقعت خارجها ونفذت إليها ، فرأت تلك النفس أن تستعيد توازنها بالضحك أو افتعاله .

ويقول ماوتسى تونج ، في معرض متابعته للصراعات الدولية والتوازن الدولي : « إن خلل التوازن هو القاعدة ، والتوازن هو الاستثناء . انظروا إلى القمر ! ما هي المدة التي يتوازن فيها ويصبح بدرًا ؟ إنها ليلة واحدة في الشهر ، ثم يبدأ بعدها خلل التوازن » .

والنكتة تتطلب من المتلقي لها ، لمحة وقدرة على التصور والتخيل ، فإذا ما افتقرت إلى هذا النوع من المتلقين والمستمعين ، احترقت . . . كما يقولون ولا تجدد على وجه مستمعها إلا مزيجاً من البلاهة وعدم الفهم . ولولا خوفه من أن يتهم بالغباء ، لسأل جاره : ماذا يعنى الأخ ؟ . . .

كذلك تتطلب النكتة من راويها ، حسن إلقاء ، وخفة ظل ، وبراعة عرض ، مع اختيار مناسب ، إلى جانب تمثيل للمواقف بالإشارة أو حركات الوجه ، لتكتمل صورة ما يرويه مؤدى الفكاهة .

كان الرسّام (لوتريك) الفرنسى فنّاناً قديراً فى عالم الرّسم . وكانت دمايته تحول دون اجتماعه بالمرأة ، نأياً بنفسه عن رؤية ما يؤذى وجدانه ، ويجرح كبريائه ، من مظاهر النفور منه من جانب المرأة . من أجل ذلك آثر البعد عنها ، وإن كان يقترب منها بفرشاته ، كلما رأى جمالا يلح عليه ، وما يزال به حتى يسجله ، ليحتفى بما رسم ، ويتلذذ بما صنع .

وقد مرّت به مع المرأة تجربة جعلته يخطط لنفسه هذا الطريق . وكان يقول فى معرض تحليل المرأة من واقع تجربته المرأة ، وألمه الدفين ، وإحساسه المرهف وسُخره اللاذع :

« إن المرأة إذا أُحِبَّتْ ، والمرأة إذا كرهت . . . لا ترحم . . . »

هنا يحىء دور المتلقى لهذا القول الحكيم ، النابع من تحليل وقدرة على التغلغل فى أغوار النفس البشرية ، وفى دخيلة المرأة بوجه خاص ، وقدرة على التهكم بأسلوب ذكى .

فعلى المتلقى أن يتصور امرأة أُحِبَّت رجلا لا يقابلها عاطفة بعاطفة ، بل يتجنّبها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهى تلاحقه دون هوادة ، فلعله أن يقع مرة ، لتبدأ معه غرامها فى الانتقام لكبريائها ، وويلٌ للمغلوب .

والصورة المقابلة لهذه الصورة ، تكون عندما يحب رجل امرأة تنفر منه وهو يتابعها ويلاحقها وكأنها فى سباق ماراتون . هذه الصورة الهزلية يرسمها خيال المتلقى اللماح ، وكأنه يشاهدها على إحدى الشاشتين . . .

والنكته المصرية بصفة خاصة ، هى التى تكشف عن العلاقة بين المصرى ، وبين ما انطوت عليه جوانحه من حب للمرح ، وبذل للود ،

ورغبة في الاستمتاع والانطلاق في أجواء لا تحدّها إلا حدود الذوق ، التي يقيمها هو بنفسه ، ويجعل منها سياجاً لا يتعداه ولا يجاوزه إلى ما يخرج أو يخرج . ذلك أن المصري ، من أي طبقة كانت ، يحمل نفسه على أن تكون على ما يحبه لها ، بعيدة عما يخرج إحساس الآخرين ، حتى لا يعرض ذاته لمثل هذا التجريح .

وقد رسم قاسم أمين ، لابن البلد المصري ، صورة قلمية بارعة ، تم عن قدرته على استجلاء الغامض ، وكشف ما لا يبين .
فأبن البلد في تصويره إنما هو :

« رجل خفيف لطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه . ولم يره أحد غير مبتسم . إذا قال لك نهارك سعيد ، ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك ، وإذا سمع أن صديقاً مات ، ضحك ، (فربما تذكر لهذا الصديق موقفاً أثار ضحكك) . إنه زينة المجالس ، وأنيس النوادي . يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ، ومنوطاً بنشر التفرّيح حوله ، مستخدماً كل شيء لتسلية نفسه وأصحابه . »

وفي يقيني أن الإنسان الضاحك ، أو الذي يصنع الضحك ، هو إنسان رقيق المشاعر ، مرهف الحس . فليس الإضحك بالأمر الهين ، بل الهين هو بعث البكاء واستحداث الأسى . من أجل ذلك كان كتاب الكوميديا قلة إذا قيسوا بكتاب التراجيديات ، منذ المسرح الإغريقي حتى زماننا هذا .

وكان مهرجان ديونيسوس إله الخمر والإخصاب ، يقام في مسرح الأكروبول على مدى ستة أيام . تُخصّص أربعة منها لعرض التراجيديات

واثنان منها لعرض الكوميديا بين كتاب هذين النوعين من الدراما ، في مسابقة تخصص لها جوائز . وكانت التراجيديات من حيث النشأة والظهور ، أسبق من الكوميديا ، مثلما كان الشعر من الناحية التاريخية أسبق من النثر .

والإنسان الضاحك ، على قدر استجابته للضحك ، أو قدرته على إثارة ، نراه سريع الاستجابة للبكاء إن دعا داعيه ، أو حدث ما يحمله عليه . فهو مرهف الحس كوتر الكمان . .

ويقول شاعر لمّاخ :

إذا أنا لم أضحك فقدت مشاعري

وإن أنا لم أحزن فقدت شعوري

* * *

وربما كان المصري القديم الذى بنى الأهرام الخالدة ، وشيّد المعابد والتماثيل التى تطاول الزمان وعواديّه ، وزخرفها بأفانين من رسوم وديكور وألوان عزّت على الأفهام أسرار تركيبها . والذى صنع أول حضارة إنسانية ، وقام بأول ثورة عرفها التاريخ عندما خرج عن المألوف ، ووحد الإله المعبود ، على يد أخصائيه ، نقول . ربما كان هذا المصري ، هو الإنسان الأول ، الذى رسم على الأرض طريق الحياة ، وأقام عليها أول حضارة إنسانية عرقها الدنيا ، عندما كانت العوالم الأخرى فى بيداء التأخر ، وانعدام المعرفة وبدائية العيش .

هذا المصري القديم ، ربما كان هو أول من ضحك من بين كائنات

بذه الأرض العجوز . لقد كان يسجل فكاهاته وسخرياته على أحجار
لأعمدة والجدران والمعابد في صور كاريكاتيرية لوجوه حيوانات على
جساد آدمية ، ويتخذ من الأوزة مثلاً ، وحشاً كاسراً يسوق أمامه أسداً
مصوراً . أو منظر حمار يلاعب أسداً بقطع من الحجارة ، إشارة ذكية
من الفنان إلى أنه يلقي بنفسه إلى الهلاك لأنه ، حمارٌ . . . حمارٌ . . . وذو
سب بين الحمير عريق

* * *

وربما كان المصري من أبناء البلد ، من أكثر الناس انزعاجاً لرؤية
بعض نقص أو عيب فيما حوله من كائنات متحركة أو جامدة . وإنك لتستمع
منه إلى قوله (آخر لطافة) لأنه يعشق الكمال .

والقهوة البلدية خير شاهد على ذلك . فالقائمون بالخدمة فيها ،
ما إن يحل الغروب ، حتى يأخذوا في رش ما حولها بالماء ، حتى لا تثير
الريح الأتربة ، وترعج الرواد . وحدث عن الكراسي وعنايتهم في رصها
وصفها في مربعات هندسية أو صفوف متراصة أفقية ساذجة ، ولكنها ذكية
اقتصادية . . .

أما بريق الأواني النحاسية فهو همهم في النهار ، وهمهم في الليل ،
ومذلتهم إذا اكتشف المعلم انطفاء لها أو خيل له ذلك ، إذا انطفأ فجأة
مزاجه . . .

وهم يضعون جهاز الراديو في مكان لا تصل إليه أيديهم ، ويختارون
له وضعاً رقيقاً ، مثلما كان الأساتذة والمشايع في الزمان القديم يتصدرون
أروقتهم ، التي يلقون فيها دروسهم في المساجد على مرتفع من الأرض .

ولا بد من زهور توضع بعناية في آنية فخارية وأغلب هذه الزهور أو (الصُّحبات) من العتر والريحان والنعناع ، ليزدان المقهى بها وتسعد بنفحها نفوس الرّواد .

والمناداة على الطلبات تتسم بظرف جذاب ، ترتاح له أذن الزبون وصاحب المقهى ، فالتنغم مستطاب ، والصوت عالى النبرة ، رنان الجرس ، نادى القرار .

وصبي القهوة ، يفتن في تبجيل الزبائن من كبار الأسطوات والمعلمين ، لا طمعاً في رقدهم ، ولكن إعجاباً بهم وتقديراً لمقامهم ، لأنهم أصحاب (معلّمة) ، كل واحد منهم قطب في صناعته وملك بين صبياناه .

ويرون أن رجلاً رقيق الحال ، قصد مقهى من هذه المقاهى البلدية ، ولم يكن يملك ثمن طلبه . وقد أسرّب ذلك في أذن الصبي الذي طيّب خاطره ، وأفهمه أن رقبته سدادة ، ثم نادى بصوت مرتفع للعامل الذي يعد الطلبات داخل المقهى ، ويسجل في الوقت ذاته ، عدد الطلبات وأثمانها ، قائلاً : شاي كُشرى للسيد مغاوري والحساب عندما تُفرج . . . إنه لا يقصد إحراجه ، ولكنه يريد ألا يسجل العامل الذي يقوم بإعداد الطلبات ، ثمن هذا الطلب في حساب وإيراد هذه الليلة ، ولكنه يريد على أن يرجئه إلى ميسرة ، كما وعد الزبون ، ولن تتأخر عن الغد أو بعده بيومين .

وابن البلد هذا رقيق في معشره ، لا يفحش القول إلا إذا استشير ، وعند ذاك تشهد مباراة ، لا أذن سمعت ولا عين رأت مثلها ، فهو يختار قاذع القول الذي يصيب به هدفه في دقة ودراية ، ويصفه خارجياً وداخلياً ، بما في ذلك أهل بيته ، كأنه أشعة الليزر . . . وأحسب أن من خير ما كتبه

لكاتب البريطانى T. A. Wilson ، عن المصريين ، قوله :
 « قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى ، والأرض السمرء
 لخصبة ، المستدفئة بشمس أفريقيا . ولكن السبب الأكبر الذى يكمن
 وراء هذه الحضارة ، هو عقيدة المصرى القديم ، بأن مصر يحكمها إله ،
 هو ابن إله الشمس ، الذى يمنح مصر الخلود ، ويحرر أهلها من الخوف »
 ذلك أن التحرر من الخوف يبعث على الاطمئنان . والاطمئنان
 سبيل الأمل والتفتح للحياة . ومن تفتحت مشاعره للحياة ، اندفع يعب
 منها وينهل مستبشراً فرحاً . والاستبشار مدعاة للضحك والانشراح ،
 والانطلاق إلى العمل بروح متفائلة .

والمرء إذا زابت نفسه معاول الخوف الذى يحطم الإرادة ، ويهدم
 القيم الأخلاقية ، ويدفع بصاحبه إلى الكذب والنفاق والمذلة ، ويباعد بينه
 وبين أى مبهجة أو ابتسام ، اندفع مع تيار الحياة ليأخذ بنصيبه من مرحها
 وبهجتها ، ومن المشاركة بالعمل المخلص الصادق .
 وما أظن أن امرءاً يخاف من شىء أو يخشى عاقبة أمر ، إذا كان قادراً
 على الأضحك وانبعاث الفكاهة ، لأنه ينطلق على طبيعته ويرجم عن إحساس
 خلا من التعقيد ، ويواكب سجيته التى ركبها الله فيه ، وأنعم بها عليه .
 ومهما بلغ الوقار بأحد كائناً من يكون ، يستطيع أن يمسك نفسه عن
 الضحك إذا ما استمع لقائل أو راو ، لحكاية الشغالة الصغيرة ، التى
 دقت باب جارتهم فى السكن ، فلما فتحت الجارة ، بادرتها الشغالة
 بقولها : ستى بتصبح عليكى ، وبتقول لك اضرينى قلمين ، علشان إيدها
 مش فاضية . . .

أو حكاية الراكب في الترام ، الذى أعطى الكمسارى عشرة قروش ، وكان إلى جواره راكب آخر أعطى للكمسارى قرشاً واحداً ، وكان الزحاه حائلاً دون التعرف على وجوه دافعى أجرة الركوب . وبعد قليل نادى صاحب العشرة قروش على الكمسارى ليرد له باقى العشرة قروش ، لأن محطة نزوله هى القادمة . وكان الكمسارى بسبب الزحام ، قد ناول هذا الباقي لمن دفع قرشاً واحداً على اعتبار أنه هو صاحب العشرة قروش . ولكن الكمسارى أفهمه أنه ناوله باقى ما دفع ، فأنكر الرجل ، وإذا بالكمسارى فجأة يلمح وجه الراكب الذى دفع قرشاً وأخذ باقى العشرة قروش ، فقال له فى غيظ : ألم تأخذ منى باقى عشرة قروش ، فلم ينكر الراكب ولكنه قال للكمسارى بثبات : وأنا أعرف منين ثمن التذكرة عندكم يطلع بكام . . .

وكذلك ما يروى من أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أرسلت تابعاً بدوياً ذات يوم ليأتىها بقبس من نار للدار . وبينما البدوى يلتمس القبس شاهد قافلة تسير إلى مصر ، فمضى معها ومكث بها عاماً ، ثم حنّ لمآلفه وأهله فعاد . وخلال مروره بطرق المدينة ، تذكر القبس عندما رأى ناراً على مبعدة ، فعدا إليها ، فتعثر ووقع على الأرض ، ثم نهض وهو يقول : لعن الله العجلة . . .

وليس أبعث على الضحك من المفارقة التى تعد أساس كل ضحك وفكاهة ونكتة . وقد رأينا فى الحكايات الثلاث السالفة ، قدر المفارقة الذى كان هو أساس الإضحاك فيها . وسوف يأتى شرح ذلك فى فصل قادم . والفكاهة والنكتة والظرف والمجون ، أجهزة لا تستطيع كل يد أن تلعب بها أو تستخدمها . فإن لها لطرائق خاصة وفلسفة خاصة وقدرة فى

الاستعمال كقدرة الطبيب الجراح في استعمال المبضع ، توخيّاً من أن
تجاوز ما هو مقصود منها إلى ما يجرح أو يسيء ، ما دام القصد منها
إضحاكاً يقتضيه المقام في حدود مرسومة ، سادتها الذوق العام ، والبعد
عن الإيلام ، والتوسل بها لنقدٍ برئ ، يتطلب النصيح والتوجيه والإشارة .
والفكاهة من قبل ومن بعد ، مثلها مثل ملح الطعام ، قليله ضروري
ومرغوب ، وكثيره متلف وضار .

وشرح سيجموند فرويد النكتة بقوله :

النكتة ضرب من القصد الشعوري ، والعمل ، يلجأ إليها الإنسان
ليعفي نفسه من الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجهد
ولوازم العمل .

ونبي الفطرة ، محمد عليه الصلاة والسلام ، يقول في حديثٍ ، هو
قبسٌ من الذكر الحكيم :

« رُوحوا عن النفوس ، في الحين بعد الحين ، فإن النفوس إذا كَلَّتْ

عميت » .

الفصل الثاني

الفكاهة والمجون في ضوء العلم والفلسفة

بالضحك يستعيد الإنسان ما اهتزت له نفسه من أحداث نزلت به .
فهو يقاوم بحركة لاشعورية هذا الذي حلّ به من حدث أمضه وأزعجه ،
بابتسامة أو ضحكة أو قهقهة في بعض الأحيان . إنها عملية موازنة ~~مُسيرة~~
هو فيها لا مخير .

إنها أشبه بموقف كرات الدم البيضاء من الميكروبات الدخيلة التي
تقف منها بالمرصاد للقضاء عليها إن حاولت التسلل .

فعندما يصاب امرؤ بجرح ، فإنه يتزف حتى ينقطع التزيف عند حد
محدود بالعلاجات المألوفة المتيسرة .

عند هذه النقطة ، تبدأ الكرات البيضاء التي يتكون الدم منها ومن
شقيقتها الحمراء ، في العمل بنشاط وانتباه ، لمنع أى ميكروب من التسلل
إلى الجرح الذي يكون قد بدأ في الاندمال .

ولولا هذه الكرات البيضاء ، لتلوث الجرح بما يتسلل إليه من
ميكروبات ، كانت تتحين الفرص للانقضاض ، غير مقيمة وزناً لما ينتظرها
من تهلكة .

هذه الحركة البيولوجية التي وضعها الخالق لحكمة بقاء النوع ،

بقدر معلوم وفي زمنٍ موقوت ، هي الموازنة التي أشرنا إليها فيما سلف ، بين اهتزاز النفس ، وبين اندفاع الابتسام أو الضحك ، الذي يقينا من الانخراط في البكاء أو الانطواء على ألم ، كترياق سريع المفعول ، مضمون الأثر . ولكن هناك سؤال يلح في طلب الجواب والشرح .

لماذا يضحك الكائن الحي ؟ .

الكائن الحي ، من إنسان أو حيوان أو طير أو نبات ، ترتسم على أساريره أو أعضائه الابتسامة في ظروف معينة ، وعند وقوع أحداث تحمله حملاً لا خيلة له فيه على الابتسام أو الضحك أو القهقهة ، على قدر ما يحمله الدافع إلى الضحك من شحنات و بواعث ومن نوازع وهواتف .

فالرجل والمرأة ، وما بينهما من شبان وشابات ، وصبيان وصبايا ، وأطفال وطفلات ، يتسمون ويضحكون عند سماعهم أو رؤيتهم ما يضحك ، أو عند ارتياحهم لأمر جاء وفق ما تمنوا ، أو لسماعهم نبأ جاء على هوى ما كانوا ينتظرون .

فالرجل إذا سمع نبأ نجاح ولده ابتسم وانشرح . والأم إذا جاء لابنتها خطيب مرموق ، ضحكت وربما زغردت . والزغرودة في مصر أعلى مراتب الفرح ، وليس لي أن أقرر ما إذا كان لها مثيل في غير مصر ، وإن كتبت لم أسمعها في كل ما زرته من أقطار متعددة .

وقل المثل في الشبان والشابات عندما يسمعون ما يحبون . أما الطفل فإنك إذا ناولته شيئاً مما يحب كقطعة من الشيكولاته ، فإنه يتسم ابتسامة ملائكية ، تحملك على إعادة العطاء ، لتسعد بمثل هذه الابتسامة (والغاوى ينقط بطاقيته) .

والطير الذى يصدح ويهدل ويزقزق ، فوق غصن فينان ، إنما يصنع ذلك إعراباً عما يحسه من متعة الأنس والانشراح . والكروان الذى يسبح ويصدح ويتغنى بوحداية الله ، دليلٌ حىٌ صائت على شعوره بالمسرة والابتهاج . ولن تجد كرواناً يصدح إلا قريباً من مجرى الماء ، الذى هو أصل كل شيء حى .

والحيوانات التى تتصل حياتها بحياة الإنسان ، مثل الكلاب والقطط والخيول ، لها طرائقها فى إبداء السرور والابتهاج . فالكلب يهز ذيله عند عودة صاحبه بعد غيبة ، طالت أو قصرت ، فإنه يرتاح لوجوده ويبتهج بوجوده . وهو يهز ذيله كذلك فى مناسبة أعظم ، وهى عندما يقدم إليه ما يحب تناوله من الأطعمة .

والقط يتنازل أحياناً ، ويتمسح فى صاحبه ، إظهاراً لرضاه وارتياحه وسروره ، ثم يتمطى فى دلال وحركات أنيقة ، حمل الشاعر الشعبي على أن يقول :

« خُذِ الدلال من الحمام والبِدْع من القطة »

وهو ضنين بهذا السرور الذى يبدیه . فالكبر فى طبعه ، والجحود ديدنه ، منذ أن اتخذ قوم من قديم الزمان إلهاً يعبدونه ، فاستخف بعقول الناس ، وراح يتعالى ويتكبر . والقط يأنس للمكان لا للسكان . فإذا تبدلوا أو شالت ريحهم ، فالأمر عنده لا يعنيه ، ما دامت الجدران هى الجدران والأثاث الوثير الذى يفترشه ما يزال فى مكانه .

والحصان عندما يبتسم ، يكشف عن ثنايا أسنانه ولثته ، ومتسع خياشيم أنفه ، ويهز ذيله فرحاً وانشراحاً بما يحسه من عوامل البهجة ، إلى جانب

دق الأرض بقدمه . والحصان الأصيل يعرف صاحبه ، ولا يآلف على ظهره
سواه ، بل ربما أوقعه على الأرض ، فليس هو بالمطية لكل من هبّ ودبّ ،
ولكنه يتخير الفارس الرشيق العالم بسرائره . وهو يتسم لصاحبه هذا إذا
اقترب منه ليلاطفه أو ليمنحه قطعة سكر أو شيئاً من اللوز والفستق ،
جزاء له على فوزه في سباق الخيل أو قفز للحواجز .

ولعلنا لا نجاوز المنطق ، إذا سلطنا النبات والماء في سلك الكائنات
الحية التي تضحك وتبتسم .

إنك إذا استجمعت كامل أحاسيسك الدفينة ، ونظرت إلى نبات
ظامي وأنت ترويه ، بدفقات صغيرة متأنية من الماء ، الذي ينساب إلى
أرضه المشققة ، من فرط الظمأ ، أمكنك أن تشعر بحسك هذا الشقيف ،
بآيات الرضا والفرح تترقق على ورق هذا النبات ، وكأنه يتسم لك تعبيراً
عما أوليته من نعمة الريّ وحنان الرعاية .

والبحر في هدوئه إذا نظرت إليه والريح من حوله رخاء ، والنهر في
جريانه إذا ما تابعت مساره الوثيد الوسنان ، راعك منهما رضى يتجسّد في
همهمة للبحر كأنما يتغنّى ، وفي وشوشة موج النهر وهيئاته المرحّة اللعوب ،
كأنه يكم ضحكة خافتة نذّت عنه ، ولكنك تسمعها مهما حاول إخفاءها .
وخرير الجدول موسيقى راقصة ضاحكة ، يعبر بها عن فرحه بفقراته الغريرة
فوق صخور المجرى .

والفولكلور الشعبي الحريق العميق الرقيق ، لم يفته الإحساس بهذا
الهمس الساحر من ابتسامات وضحكات مكتومة ، تنعكس على صفحة
البحر أو النهر ، فراح شاعره يسجل انطلاق الصبايا وهن يتغنّين بأغنيته

التي صاغها هن ، وهن في طريقهن إلى النهر ملء جرارهن من مائه
السلسال النмир ، تقول كلماتها :

البحر يضحك ليه وأنا نازله ادّلع املا القلل

* * *

نعود لنسأل . هذا الكائن الحي ، ما الذي يضحكه ؟

مما أوردنا فيما سلف ، نجد أن راحة الأب لنجاح ولده ، ورضى الأم
لخطوبة ابنتها ، وفرحة الطفل بحصوله على أشهى ما يتمنى وهي الشيكولاتة ،
التي يتم بها اعتدال مزاجه ، كأي صاحب كيف ، ولا أهمية عنده لما عداها
من سكريات ، أقول إن نوال كل هذه التمنيات ، بعث مرحاً ، تشكل في
ابتسامة ، هي حركة عضلات متعددة في وجه المبتسم ، تجمعت كلها
وارتسمت على صورة ابتسامة . فإذا انفرجت هذه الابتسامة وغدت ضحكة ،
احتاجت إلى عضلات أكثر ، واستخدامات أوسع لهذه العضلات التي
تمتد إذا ازداد الضحك إلى منطقة البطن . وكثيراً ما نسمع من أحد ،
أضحكه موقف ، قوله آه يا بطني . . .

والمعنى المستخلص من ذلك ، أن الابتسامة إنما هي تعبير عن الفرحة
بنيل شيء مرغوب ، والوصول إلى مبتغى تحقق ، فشاعت الفرحة ، واتسعت
البسمة ، وتعالّت الضحكات .

إلا أن علم النفس لا يقف عند هذا الحد ، بل ينصرف إلى إيراد
تحليل آخر للموقف المثير للضحك ، وللظرف المحيط بالضاحك .

فعلماء النفس يرجعون مبعث الضحك إلى حالات من غرابة المفارقة
حيناً ، أو الخروج عن مألوف القول ، أو الإشارة ، أو العمل أحياناً .

كما يرجعون أسبابها إلى أنانية الضاحك ، عندما يرى موقفاً يقع فيه على الأرض ، وجهه ذو هيبة ووقار ، يرتدى بزّة غالية أنيقة ، حتى إذا ما انطرح على الأرض لسبب خارج عن إرادته ، راح يللم أطراف وقار تبعثر ، وثياب علاها التراب ، ووقف ليستعيد اتزانه ، وليهرب من أنظار متطفلة وبسمات متوارية ، خجلاً منه ، لا رثاء له .

في رأى علماء النفس ، أن الضاحك ، رأى في تعثر هذا الوجه الوقور مفارقة كبرى ، ورآه ينبطح على الأرض في وقار حاول أن يجمع شوارده ، ولكنه تخلى عنه وتركه يقع ومن حوله حاجياته من نظّارة إلى عصا إلى سيجار ، وهي مبعثرة على قارعة الطريق .

هذه المفارقة يتضح حجمها ، إذا ما قسناها بالحدث نفسه ، إذا ما جرى لصبي جزار مثلاً ، وقع على الأرض مع دراجته التي حمل عليها فخذاً من اللحم سميناً وثميناً . . . إنه يقوم سليماً معافى ، دون أن ينال تراب الطريق من ملابسه شيئاً ، (وماذا تأخذ الريح من البلاط) . هذا المنظر لا يثير ضحك أحد ، مثلما أثار المنظر الأول ضحك الضاحكين .

ويسترسل علماء النفس في إيرادهم لبواعث أخرى للضحك ، مستلهمين في ذلك بما انطوت عليه الطبيعة البشرية من ضعف أو استعلاء . فالإنسان بطبعه محب لذاته ، لا يحب أن يقع فيما وقع فيه غيره من الشر . أما الخير ، فهو طامع فيه ، متلهف عليه ، مشتاق إليه ، وممانعه عن غيره كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وهذا ديدن النفوس الشريرة النهمة ، وما أكثرها .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه استمع إلى أعرابي ، بعد أن قُضيت الصلاة ، يدعو الله أن يدخله ومحمداً الجنة وحدهما . فاستدرك النبي وذكر للرجل أن الجنة سعتها السماوات والأرض ، وهي تتسع لكل المتقين .

والذي ضحك على الوجيه الذي اقترش أرض الطريق ، وتبعثرت أشياؤه وأشلائه ، إنما يضحك لأنه نجا من وقوع ذلك له ، وأنه كما يقولون ، أخذ الشرور راح . ولذلك فإنه يحمد الله على أنه لم يكن في هذا الموقف . وقد استطاع شارلي شابلن أن ينفذ بذكائه اللامع ، وعمقه الفلسفي ، إلى نخاع هذه الظاهرة العميقة ، ويستغلها على أحسن ما يكون عليه الاستغلال في أفلامه .

فالمشاهد إذا رآه يوقع برجل الشرطة ، الذي يمثل سلطات الأمن كلها ، على الأرض ، فإنه يضحك للمفارقة أولاً ، ثم لأن ذلك لم يحدث له ، وأخيراً لأنه يعلم أن الأمر قائم على التمثيل لا الحقيقة ، وإلا لأخذه إلى القسم شاهداً على ما رأى . . . ويدخل في حلقة س ، ج المعهودة . . . وعندما يرى المشاهد ، شارلي ، وهو يعدو هارباً من كلب يطارده ثم لا يلبث الكلب ، بإرادة المخرج ، أن يلحق بشارلي ويأخذ في تمزيق سرواله وعضه ، استغرق هذا المشاهد في ضحك متواصل ، تهتز له كل أطرافه وعضلات جسمه ، للأسباب الأولى نفسها .

هذا الخيط الرفيع ، التقطه بمهارة وذكاء واقتدار ، نجيب الريحاني ، وراح ينسج من غزله مفارقات ومواقف ، بناها على حب الإنسان لذاته ، وميله إلى أن يرى غيره في مأزق هو في منجاة منه ، ومبعدة عنه ، وبعده

فليكن الطوفان . وإلى جانب هذا الشعور ، فإن بعض النفوس ترى لذلك ،
ويبعثها هذا الشعور النبيل على ضحك راق .

ويذهب بعض الفلاسفة إلى أن هناك علاقة وثيقة بين الضحك
والتعاطف والمشاركة الوجدانية .

ذلك أن بعض طبائعنا الرقيقة ، تتأذى إذا فاض بها الانفعال من جراء
منظر تتأثر له هذه الطبيعة النفسية الحساسة .

من أجل ذلك اخترعت لنا القدرة الإلهية ، حيلة ومخرجاً بيولوجيين ،
في صورة الضحك ، ليقينا آثار الانفعال المبالغ ، والشفقة المستجيبة
لنوازع النفس ، والتعاطف البالغ عندما نحس بالآم الآخرين إذا وقعوا
في مأزق أو نكبة أو ورطة .

ومحتوى هذه الحيلة وهذا المخرج ، يتمثل في أن الضحك في مثل
ما ذكرنا من حالات التعاطف ، إنما هو استجابة للألم لا للسرور ، بحيث
إننا إذا لم نضحك ، استرسلنا في حالة من الضيق والكرب هي نتاج زيادة
التعاطف والمشاركة الوجدانية لدى النفوس الرقيقة ، التي بناها من الكرب
بعضاً مما شاهدت .

وتأييداً لهذا الفريق من الفلاسفة يقول Mac Dougol في كتابه An
Outline of Psychology إن النظرية الحقيقية في تفسير بواعث الضحك ،
يمكن أن تلخص في عبارة واحدة ، مضمونها ، أن الضحك ترياق
سريع المفعول ، يمنع من التعاطف والمشاركة الوجدانية Antidote to
Sympathy ، ودفعها للانفعالات التي تصيبنا ، فلا نجد لها مخرجاً إلا
بالضحك .

وإذا كان الضحك يبعث على إدخال السرور إلى نفوسنا فإننا نحس السرور لأننا نضحك ، وكلاهما جاذب للآخر ، وباعث عليه .
وأذكر أن الزوج الإفريقيين في أمريكا ، كانوا يضعون ألحاناً دينية تعرف بالروحيات ، ويتغنون بها مع نغمات الجاز المرقص ، تصحبها الطبول الإيقاعية الموافقة لأصوات غنائهم . وكانت هذه الأغاني ، يغلب عليها مسحة الحزن ، لانصرافها إلى التعبير عن بؤس حياة الزوج ، إلا أن ذلك لا يمنع من استخدامها في الترويح والرقص على أنغامها ، أيا كان محتواها .
وقامت إلى جانب هذه الأغاني ، أغاني (البلوز) Blues ، التي تعبر عن الفراغ واليأس والجوع والحنين والحسرة عند هؤلاء الزوج .
وعلى سبيل المثال ، تقول إحدى هذه الأغاني :

عندما تراني أضحك

فإنني إنما أفعل ذلك

لأمنع نفسي من الاسترسال في البكاء

* * *

من هذا يتبين أن (فرويد) كان على حق عند ما أوضح أن الفكاهة تؤدي دوراً رئيسياً هاماً في صميم حياتنا النفسية ، لأنها باستبعادها لما يمكن أن يحدثه الألم ، تتخذ مكانها لدفع الألم ، ولتحررنا من الانفعال ، وترفع من مستوانا النفسي ، وصحتنا النفسية .

وكثيراً ما يواجه الإنسان مواقف الخوف والهلع والقلق ، والاضطراب بالاسترسال في الضحك ، دون أن نعرف متى هذا الضحك أو أسبابه

الظاهرة أو الخفية .

ولكنه على أى صورة كانت ، يرفع من الروح المعنوية ، عندما اضطرب ، وتستعين بهذا الضحك المبالغى ، على مواجهة المواقف الحرجة . وهناك حالة من الضحك ، تملكنا أحياناً عندما نكون فى مأتم أو فى ساحة المحكمة أو فى أى مكان يتطلب الإصغاء بأدب واحتشام . وقد تقع حركة أو إشارة داخل هذه الأماكن ، لا تثير أى ضحك إذا وقعت خارجها ولكنها تطلقنا فى ضحك ، نحاول جاهدين أن نوقفه ، فإن الموقف لا يحتمل مثل هذا العبث ، الذى نتغلب عليه بكثير من المشقة ، فإن خاب مسعانا ، تركنا المكان حثيثاً .

وهناك روايات تروى عن مواقف درامية ، ينسى فيها المرء نفسه ، ويلقى بنكته ، قد تكون هى آخر ما يقول

من ذلك أن محكوماً عليه بالموت شنقاً ، وقف فوق الخشبة فى انتظار وضع الحبل حول عنقه ، وراح يردد على مسمع من منفذى الحكم : لعلّ ذلك ارتدع ، ولا أعود ثانية لمثل ما صنعت

ولا بأس من أن نورد هنا ما جاء على لسان محكوم عليه بالشنق ، عندما وقف على الخشبة ، وسأله ضابط السجن ، على ما جرت به التقاليد ، هل يريد شيئاً لتحقيق المستطاع منه ؟ فقال للضابط ، نعم ، أريد أن أقول شيئاً ، وقد ظن ضابط السجن أنه ربما أفشى أسراراً تساعد سلطات الأمن والعدالة ، وأوقف أمر التنفيذ لحظة ، وإذا بالمحكوم عليه يقول : الحبل راح يخنقنى

وتجربى فى هذا السبيل ، رواية الرجل المتنبئ الذى ادّعى النبوة فى صدر الإسلام ، مع من ادّعوا ، وما أكثر من ادّعوا النبوة حتى إن حروب الردّة

والتنبؤ في ذلك الحين ، في مطالع فجر الإسلام ، قد عوّقت التقدم المنشود الذي جاء به الدين الجديد .

جىء بهذا المتنبي المدّعى النبوة أمام الوالى ، وهو مكبل بالسلاسل ، وكان في دعوته يقول إنه نبي مرسل إلى هذه الأمة من قبل السماء .

وكان الموقف يدعو إلى الخوف والهللع ، من قسوة العقوبات المفروض توقيعها على أمثال هذا المتنبي . فلما سأله الوالى :

أما زلت تصر على أنك نبي مرسل ؟ .

فأجاب المتنبي بسرعة خاطر ولما حية أسعفته بقول عجيب :

لقد كنت بالفعل نبياً مرسلًا ، أما الآن ، فأنا يا مولاي مقيدٌ كما

ترانى . . .

ومن ذلك أيضاً أن الجاحظ لم يكن يفارقه مجونه أو يغيب عنه بيانه اللطيف ، وهو في أقصى الظروف ، وفي أعنف المراجعات والمساءلات .

وتقرر الروايات الأدبية ، أن صديقه الوزير ابن الزيات قضى نجهه في (تنور)^(١) على يد منافسه قاضى القضاة ابن أبي دؤاد . فما كان من الجاحظ إلا أن هرب ، فلما جىء به بعد القبض عليه ، إلى ابن أبي دؤاد ، سأله .

لم هربت ؟

(١) . التنور صندوق خشبي يضاوى الشكل فيما يشبه البرميل . وجدرانه قد كُسيّت بمسامير حادة متقاربة . ويدخلون المحكوم عليه بالإعدام على هذه الصورة ، ثم يأخذون في دحرجة الصندوق جيئة وذهاباً ، حتى يقضى المحكوم عليه نجهه وسط عذابات تفوق كل وصف .

أجاب :

خفت أن أكون ثانياً اثنين إذ هما في الثُّور . . ؟

فقال ابن أبي دؤاد : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً فقال

الجاحظ :

خَفَضَ عليك ، فوالله ليكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لي عليك . ولأن أسىء ، وتحسن ، خير من أن أحسن ، وتُسِء . وأن تعفو عني في حال قدرتك ، لأجمل من الانتقام .

فقال ابن أبي دؤاد :

قبحك الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام .

جيئوا بحداد ؟

فقال الجاحظ :

أعزَّ الله القاضي . ليفك عني ، أو ليزيدني !

قال :

بل ليفك عنك .

وأتى الحداد ، فغمزه أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل

أمره قليلاً ، فما كان من الجاحظ إلا أن لطمه وقال :

اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في

لحظة ، فإن الضرر بساقي وليس يجرع . . . !

وانتهت القصة بضحكة عريضة من قاضي القضاة ، قال على أثرها :

« إني أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه » .

ومهما حلل وعلل علماء النفس والفلاسفة ، بواعث الضحك ودوافعه ، ومهما أقاموا من نظريات دَلَّوْا عليها بكل منطق وحجة ، فإن المفارقة ، إذا رُوعِيَ فيها براعة الحبكة ، وغرابة ما اشتمل عليه ، وحكمة ما تستهدفه ، فإنها وحدها تكفي لحمل أى إنسان على الضحك ، مهما بدأ بتجهمه وانطواؤه .

وما علىّ للتدليل على ذلك ، إلا أن أسرد نادرتين ، تلعب فيهما المفارقة دورها ، كما لو كنت قائداً لأوركسترا ، يحرك بعصاه كل العازفين ، حسبما يشير به .

أما الأولى ، فإنك سوف تجد نفسك أمام بناء درامى مكتمل الصورة فى الشكل والمحتوى ، وفى مقدماته ونهاياته ، حتى تصل إلى موقف الحبكة Climax ، التى تبلغ الذروة من هذا البناء المكين .

وسوف تجد أنك فى الثانية ، أمام سيمفونية ، تبدأ سريعاً ، ثم تتمهل ، ثم تخفت هامسة راقصة ، لتعود إلى سرعتها الأولى عند الختام ، مع براعة فى القرار ، وعند الجواب :

أقام أعرابى كان الحجاج قد ولّاه بعض النواحي النائية ، مدة طويلة ، بعيداً عن مآلفه وأهله ودياره ، وذات يوم مرّ به أعرابى من حيّه ، فحمد الله على أن أرسل له من يطمئن منه على من يحب ويرعى . وقدم له الطعام ، وراح يسأله عن أهله ، والرجل منهمك فيما بين يديه من طعام . وكان الرجل عابر السبيل جائعاً ، فراح يجيب بكل عناية وتلطف ، وقد أحس بنشوة الطعام بعد مسغبة .

ودار الحديث على الوجه التالى :

كيف حال ابني عمير ؟
على ما تحب . قد ملأ الأرض والحي رجالاً ونساءً .

فما فعلت أم عمير ؟
صالحة أيضاً .

فما حال الدار ؟
عامرة بأهلها .

وكلبنا إيقاع ؟
قد ملأ الحي نبهاً .

فما حال جملي زريق ؟
على ما يسرك .

عند ذلك وبعد أن اطمأن والى الحجاج من الضيف العابر على ما
ما يهمله من أمر أهله وولده وداره ، مال إلى خادمه يأمره برفع الطعام ، ولم
يكن الأعراي قد شبع بعد . ولكن الوالى اشتاق لأن يسمع من جديد ،
المزيد من أخبار أهله ، فراح يسأل الأعراي الضيف ، وأخذ الحديث
مجره على هذه الصورة :

يا مبارك الناصية . أعد ما ذكرت وزد .

سل ما بدا لك

فما حال كلبي إيقاع ؟

مات .

وما الذى أماته ؟

اختلفت بعظمة من عظام جملك زريق ، فمات .

أو مات جملى زريق ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

كثرة حمل الماء إلى قبر أم عمير .

أو مات أم عمير ؟

نعم .

وما الذى أماتها ؟

كثرة بكائها على عمير .

أو مات عمير ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

سقطت عليه الدار .

أو سقطت الدار ؟

نعم . . .

عند ذلك قام والى الحجاج المنكوب فى كل من سأل عنهم من أهل
ودابة ودار ، وراح وقد شهر عصاه ليضرب بها الضيف الذى ولى هارباً
مدعوراً .

* * *

والثانية مفادها أن بشار بن برد ، الشاعر الضريع ، دخل على
المهدى ، وكان فى مجلسه خاله ، يزيد بن منصور الحميرى . فأنشده
قصيدة يمدحه فيها . فلما فرغ من إلقائها ، سأله خال الخليفة :

ما صناعتك أيها الشيخ ؟
فأجابه بشار وقد أحب ممازحته :

أثقب اللؤلؤ :

فقال له المهدي :

ويحك أتتهزأ بخالي ؟

فقال بشار :

يا أمير المؤمنين . ماذا تريد أن يكون ردّي على امرئ يراى شيخاً
أعمى ، أنشد المديح من الشعر ، ويسألني عن صناعتى ! ...
فأعجب المهدي بجوابه ، وأجازه .

* * *

وللضحك وجهان . وجه جاد هادف ، ووجه هازل أجوف ، ليس فيه
إلا قهقهة عالية تصدّع الرؤوس . ويخلو محتواه من الهدف والمبدأ والسخرية
التي تتطلع إلى إصلاح مُعوج أو تقويم انحراف ، وتستهدف التحرر من
العبث ، لترقى إلى ذروة من الضحك المهدب الرزين الرصين ، الذي يصل
إلى أعماق متلقّيه من الطبقة المثقفة ، وإلى أبعاد يعجز عن الوصول إليها
الضحك الهازل السفيف .

ويقول الكاتب البريطاني ، جوزيف إديسون ١٦٧٢ - ١٧١٩ في
معرض تحبيذه وتقرّظه للضحك الراقى ، والكوميديا الهادفة ، في الشكل
والمحتوى :

« سأعرض أفكارى على شكل صور مجسّدة ، فالضحك الراقى
عندى ، إنسان ، جدّه الأعلى هو الحق ، وقد أنجب هذا الحق ابناً سماه

حسن الرأي ، وهذا بدوره أنجب الذكاء اللماح ، الذي تزوج من امرأة من قريباته ، اسمها الفرحة ، فأولدها مولوداً اسمه الفكاهة .

هذه الفكاهة المتعددة الأعراق ، نراها لهذا السبب ، تارة جادة ، وتارة نشوانة ، وثالثة عابثة ، ونراها أحياناً في وقار القاضي ، وأحياناً أخرى مرحة كأي ممراح ، على أنها على أي صورة ، تثير ضحك من حولها .

وهناك فكاهة تدعى وتتطاول في ادعائها حتى يصح في الأذهان أنها شبيهة بالفكاهة الأولى الجادة ، واليكم شجرة عائلتها :

يقوم على رأس الشجرة ، الكذب ، ويليه الهراء ، ويلى هذا ، الحمق ، والضحك الأجوف ، ثم الفكاهة الزائفة .

أما أوجه الشبه والخلاف بين الفكاهة الحقة ، وتلك الفكاهة المزيفة ، فتقرب مما يقوم من شبه بين الإنسان والقرود وصفات الفكاهة الزائفة هي « الشقلية » والمحاكاة البلهاء للصالح والطالح ، بلا تمييز ، والتيل من الجيد والردىء معاً .

ومن شأن الفكاهة الزائفة ، أنها لاتفرق بين عدو وحبيب ، منذ أن كان كل ههها هو مجرد الإضحاك . ولما كان هذا هو مبلغ جهدها القاصر ، فإنها تقدم ما تستطيع ، لا ما يجب ، أو يحسن تقديمه .

وإذا كانت هذه الفكاهة عاطلة من كل عقل ، فإنها لا تهدف إلى شيء سوى من الخلق أو العلم ، وإنما هي تسير في طريق الغفلة من أجل هذه الغفلة وحدها .

ومن أجل ذلك ، فإنها تهاجم الأفراد والأشخاص ، وتعجز عن أن تسمو إلى مستوى المبدأ المجرد .

وحسبنا هنا أن نسوق تفسيراً واحداً لهذا الكلام الذى قاله قائله منذ ما يقرب من الثلثائة عام ، ونفذ به إلى دخيلة ما يجرى فى زماننا الحاضر ، عندما نشاهد موقفاً للريحانى يبنى على سوء فهم وعلى حيرة وعلى تورط أو استنكار من جانبه لما يدور حوله من واقع هو فى نظره عجيب غريب مثل موقفه فى مسرحية « غزل البنات » من مربى كلب الباشا الذى يبلغ مرتبه ثلاثين جنياً والمربى المعلم لا يصل مرتبه إلى نصف هذا الرقم ، نقول إننا نتحقق من صحة وواقعية ما أورده الكاتب إديسون فيما سلف ذكره ، عندما نقارن بين موقف الريحانى المثير للضحك الراقى المذهب وبين موقف ممثل آخر يعتمد على مواقف حركية يستخدم فيها الأيدى والأرجل لإثارة ضحك الجمهور وصخبه ، استجداءً لتصفيق فارغ يملأ فراغ المسرح الخالى من المتعة الذهنية .

ولعلنا نزيد الأمر وضوحاً بسرد مثلين فى روايتين ، فهما الكفاية ، ويمثلان الرمز إلى ما سلف ذكره .

كان عباس محمود العقاد ، يوم مع كثير من الأدباء ورجال الفكر من رجال وسيدات ، دار كاتبة أدبية ، جرت عاداتها على إقامة حفل فى اليوم الموافق لعيد ميلادها ، تدعو إليه المعارف من الأصدقاء والصديقات . وكانت بين السيدات المدعوات ، سيدة متصايبية ، تطوى حقيقة عمرها ، فى تلافيف الأصباغ والمساحيق التى لا تلبث كثيراً حتى ترفع الستار عن الواقع الأليم من العمر المديد .

وبينما كانت الأحاديث تدور فى حلقة من الحلقات ، فى صالون ربّة الدار ، حول أعياد الميلاد ، وهدايا أعياد الميلاد ، إذ بالسيدة المتصايبية

تقول في تفاخر وازدهاء ، إن زوجها أعفاها مؤونة التفكير فيما تحب أن يقدمه لها ، أو تكراره إذا لم تذكر له ما تريد ، تقول السيدة إنه درج على أن يقدم لها في كل عيد من أعياد ميلادها مبلغ خمسين جنيهاً لتشتري به ما تشاء ، وهنا فاجأها العقاد بقوله ، وهو سيد مثل هذه المواقف ، لا بد يا هانم أنك أصبحت مليونيرة . . .

والصورة الأخرى للضحك الفارغ إلا من القافية ، نراها في هذه الحكاية : أقام أحد تجار الفاكهة من أبناء البلد ، حفلاً بمناسبة زواج ابنه ، دعا إليه زملاءه من تجار الفاكهة . وكانت الموسيقى تعزف ألحاناً مشجية مرقصة ، لم يستطع معها أحد المدعوين الذي استخفه الطرب والنغم المرقص ، وهو من تجار الموز ، إلا أن يمسك بعصاه وينزل إلى وسط القاعة ، حيث رقص عشرة بلدى ، وعشرة بنقطة . . .



الفصل الثالث

علاقة الفكاهة بالأدب في جميع صوره

تمتريج الفكاهة بالأدب في جميع صورته ، امتزاج الروح بالجسد ، حتى ليتعذر فصل هذه عن ذاك .

ولن نجد أدبياً ، مهما التزم الجد في كتابته ، بقادر على أن يتجنب التمثل بنادرة ، أو يستبعد بيتاً من الشعر لطريف المعنى والمبنى ، أو يخلو قلمه من أسلوب مشرق بسام .

سم وإذا كانت وظيفة الأدب الكبرى هي تعميق الحياة ، وإحسان التعبير عنها بمختلف الفنون وصورها ، تعبيراً يعكس إحساس الفنان ومشاعره ، وتأثره بالبيئة والمحيط ، ونقل كل ذلك بأمانة ، يتجلى بعدها الأدب في ثوب دقيق الصنعة ، متناسق الهيئة ، مهذب الطابع والأسلوب ، فإن هذه الوظيفة للأدب تستكمل زينتها من ديكور وما كياج وإكسسوار ، بأنماط من الفكاهة والمجون ، في رقة مستحبة ، ورشاقة نادرة ، لتبدو الصورة الأدبية مشرقة الوجه والمحتوى .

ويقول (مكسيم جوركي) في معرض وصف نتاج الأديب حسيما توحى به مشاعره ، وما يتأثر به وجدانه :

« عندما تمتلئ الروح إلى حلقها ، فلا مفر من أن تنسكب أحزانها

أو أفراحها على العالم ، وفي آذان الناس «
وبراعة التمثيل والتمثيل ، وروعة الشعر وإيماءاته ، ودقة التصوير
وما يرمز إليه ، ورشاقة الأسلوب الساحر ، كلها تتجمع لتكون سبيلا
للفكاهة والظرف .

والظرف في اللغة ، هو الوعاء الذي يحوى الشيء . فظرف الخطاب ،
وظرف الفنجان ، هما اللذان بحميان هذا وذاك من كل شر ، ويقيانهما
الأذى ، ويظهرانها على أحسن صورة ، ويكسوانهما لطف المظهر
ورشاقة الهيئة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، يكون الرجل الظريف ، هو الإنسان
الذي يحوى خفة الظل ، وحضور الذهن ، وروعة الفكاهة ، وذكاء
القلب .

والفكاهة تنساب بين الناس كأنها الماء الذي يرويههم ، والنور الذي
يهديهم ، والشمس التي ينعمون بدفئتها .
ولم يكن من الأمور التي تدعو إلى العجب ، أن تتسبب إلى الرسل
والنبيين ، روايات تشيع فيها المزحة والمجون ، وهم يتقبلونها ، ويستطيعون
قولها ممن حولهم .

وقد روى عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه أجاب ، ضاحكاً ،
على سؤال سيدة عجوز عن نصيبها من الجنة ، بما فهمت منه ، بالأمكان
في الجنة للعجائز ، فلما أحسَّ بذعر العجوز ، استدرك بما اطمأنت
إليه من أن أهل الجنة كلهم ينعمون بشبابٍ دائم لا يريم ولا يبرح .
وروى الراوون أن الهدهد جاء يوماً إلى سليمان الحكيم عليه السلام

وقال : أريدك أن تكون في ضياقتي .

فقال سليمان متمشياً مع فكاهة الهدهد : انا وحدي ؟

فأجاب الهدهد : بل أنت وعسكرك .

وحدّد لذلك يوماً محدوداً ، ومكاناً مذكوراً على شاطئ جزيرة

سمّاها باسمها .

فلما كان اليوم المعلوم ، ذهب سليمان وجنوده ، إلى تلك الجزيرة

وعندما رأهم الهدهد ، طار واصطاد جرادة ، لم يلبث حتى خنقها وألقى بها

إلى البحر ، وأردف قائلا :

كلوا جميعاً ، فمن لم ينل من اللحم نصيباً ، أصاب من المرق ما

يشاء . . .

فضحك سليمان وجنوده طويلاً على مزاح الهدهد الماجن .

ومن المعروف عن قضاء سليمان ، أنه كثيراً ما كان ينحور به نحو الحيلة

المستظرفة ، ليصل إلى قلب الحقيقة .

من ذلك ما صنعه مع المرأة التي ادّعت أن طفلها تنازعه فيه جارتها ،

فلما جرى بالمرأتين إلى سليمان ، أمر بقسمة الطفل المتنازع عليه ، وإعطاء كل

امرأة نصفاً ، فصرخت إحداهما وهي تقول : فلتأخذه خصيمتي ، وليبق

الطفل حياً ، وهنا أدرك سليمان أنها الأم الحقيقية للطفل ، وأمر لها به

دون الأخرى المدعية كذباً أمومتها للطفل .

ومن ذلك أيضاً أن رجلاً شكّا إليه أن جاره سرق من داره أوزة . فلما

توافد القوم على المسجد للصلاة ، قام سليمان ليخطب في الناس ، وراح

يعظهم حتى وصل إلى تحريم السرقة وأنها إثم له عقوبته وجزاؤه .

ومما جاء في خطابه : إن أحدكم ليسرق أوزة من جاره ، ثم يدخل الجامع ليصلي ، والريش على رأسه ، فما كان من الرجل إلا أن مسح على رأسه بيده ، فقال سليمان ، لقد وقعت فيما كنت تنكر . خذوه ! . . .

* * *

والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للعلم .
فالعلم يقوم على تقرير وقائع ، وتطبيق نظريات ، سلخ العلماء قدراً كبيراً من الزمن ، وقدراً آخر أكبر من الجهد ، حتى توصلوا إلى الكشف عنها ، بعد انعكاف في المكاتب ، وفي المعامل ، وفي المصانع ، ووراء الأنابيب والمجاهر . فهو قانون وقواعد .
والعلم لا يؤمن إلا بالمحسوس الملموس . ولا مجال فيه لبراعة خيال ، أو رشاقة أسلوب ، أو روعة موقف .
والأسلوب العلمي ، أسلوب جاد جامد ، يزن الكلمة بميزان الجواهر ، في دقة وحزم .

ولا يعني هذا أن الأسلوب الأدبي يفتقد الدقة ويفتقر إلى الجلد والحزم ، ولكنه إلى جانب هذه المواصفات ، يصحب قارئه في زورق حالم ناعم ، إذا ما شاء الكاتب الأديب أن يصور منظرًا يحتاج إلى سعة خيال وحسن تصور ، فيمهد له بجمال الوصف ، وموسيقى الكلمة ، وبديع البيان . وإليك حقيقة علمية ، لن يستطيع إنسان أن يدس في ثناياها كلمات تبعد بها عما هي بسبيله من تطبيق نظرية ، أو تقرير حقيقة أو تحليل واقع ، لا ظرف فيه ولا تندر :

« إن الذي يجري في بيضة الأنثى ، من بني الناس ، محجوب من

رؤية الناس ، لأنه يجرى في ظلمات البطون والأرحام .
ولقد كشف العلماء عن كثير من هذا المجهول ، بدراسة هذه الظواهر ،
في الحيوانات ، مثل الأرانب والفئران ، وعلموا من ذلك الكثير .
ومن بيضة الحيوانات ، انتقلوا إلى بيضة الإنسان . وقد علموا أن الطفلة
الأنثى حين تولد وبها كل حصيلتها في الحياة من البويضات غير الناضجة ،
قد أتمت أول تطور لها ، وذلك بانقسامها أنصافاً . بمعنى أن
(كرىموسوماتها) ينقسم كل منها إلى نصفين . وهي تبدأ هذا التطور
الأول ، وتتمه بين الشهر الرابع ، والشهر السابع من حياة الجنين .
هذه مسألة مقررة بميزان العلم ، وتطبيق نظرياته ، وتجاربه ، من غير
ما تنميق أو تجميل .

* * *

ولقد أتى حين من الدهر ، كانت الفكاهة فيه صناعة تدر الربح الوفير
والذكر البعيد .
فعندما أصبح الخلفاء والأمراء يعيشون في ترف ونعيم ، وعندما ناءت
كواهلهم بأثقال وأحمال المسئوليات والمتاعب ، أحسوا أنهم في حاجة إلى من
يمسح عن صدورهم ويسرى عنهم عبء ما يحملون ، بالضحك والمجون .
وفي بلاطات ملوك الغرب ، كان هناك مكان دائم لمن كانوا يطلقون
عليهم اسم King's yester أو مضحك الملك . وكان يصاحب الملك في
رحلاته ويرفه عنه في قصوره ، وإذا غاب افتقده الملك وبعث في طلبه .
وقد اشتهر في بلاط كل خليفة أو والٍ أو ملك عربي كثير من الأدباء
والشعراء وأهل المجون ، الذين لا هم لهم إلا إضحاك ساداتهم بالفكاهة

الحلوة والنادرة النادرة .

واشتهر من هؤلاء أشعب الطماع والشاعر أبو دلالة وأبو الحسين الخليل وأبو العيلاء وغيرهم مئآت ومئآت .

وكان الجاحظ إمام عصره في فن الفكاهة الذي امتلك ناصيته بإدراك واقتدار ، أعانها منه ، سخرية قادرة ساحرة وهو يستهدف في الفكاهة الضحك والإضحاك . ويروى فيهما خير ما في الحياة ، وما يُعد مصدراً للقوة ومعيناً على العمل .

وهو يقول في تحليل وتعليل المجون :

« إنه شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه ، الذي هو علة سروره ، ومادة قوته »

ثم يقول في موضع آخر :

« وإذا أريد بالمرح النفع ، وبالضحك الخير ، الذي جعل له الضحك ، صار المرح جداً ، والضحك وقاراً » .

وقد كانت مجالس الخلفاء والملوك والولاة تفيض بالقول النادر والشعر الرصين والحكمة الغالية ، وقد تغلغلت في كل هذه الفنون ، فكاهة عفة راقية ، جمعتها بين دفتيها كتب للأدب ، يزمو بها أدب أي عصر وأي جنس ، بدءاً بالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وبدائع البدائع لعلي بن ظافر الأزدي ، إلى كتاب الكشكول للعامل .

ولا يسع كاتب في هذا الباب إلا أن يتتق بعض ما قد قيل في تلك

المجالس ، التي كانت بمثابة مدارس وجامعات ، تطرح فيها مسائل في اللغة وفي الفقه وفي المنطق وفي الشريعة وفي رواية الشعر حفظاً ونظماً وفي قوالب النثر التي ينبر لها العقل ، وتأخذ بمجامع الرشد ، من قوم في مطالع الحضارة وعلى شاطئها الضحل .

غضب الرشيد على جارية فأقسم لا يدخل إليها ، ثم لم يلبث أن عاجله الندم فقال :

صدّ عني إذ رآني مُفتنً وأطال الصدّ لما أن فطنً
كان مملوكي فأضحى مالكي إن هذا من أعاجيب الزمن
وطلب إلى جعفر بن يحيى أن يطلب من الشعراء من يزيد فيهما ،
فأجابه هذا .

ليس لهما إلا أبو العتاهية وكان مسجوناً ، فكتب إلى الرشيد ، لما بلغه الخبر .

يا ابن عم النبي سمعاً وطاعة قد خلعنا الكساء والدرّاعة
ورجعنا إلى الصناعة لمّا كان سخط الإمام ترك الصناعة
فأمر الرشيد بإطلاق سراحه ، وصلته ، فقال أبو العتاهية ، الآن ،
طاب القول ، وأنشد يميز البيتين السالفين :

عزة الحب أرتبه ذلّتي في هواه ولسه وجه حسن
فلهذا صرت مملوكاً له وبهذا شاع ما بي وعكس

فاستحسنه الرشيد ، إذ أصاب ما في نفسه ، وضاعف صلته .
وتغنى زرياب يوماً بين يدي عبد الرحمن الداخل فاتح الأندلس ،
بهذين البيتين :

قالت ظلوم سميّة الظلم ما لي رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده أنت الخير بموقع السهم
فقال عبد الرحمن : هذان اليتان منقطعان ، فلو كان بينهما ما
يوصلهما ، لكان أبدع .

فقال عبد الرحمن بن قزمان :
فأجبتها والدمع منحدر مثل الجمان ، هوى من النظم
فاستحسنه عبد الرحمن الداخل وأمر له بجائزة .
وقال الشيخ أبو عبد الله ، محمد بن علي القرموني ، إن والده الشيخ
أبو الحسن ، أنشد قول ابن الرومي :

شهر الصيام مبارك ما لم يكن في شهر آب
خفت العذاب فصمته فوقعت في نفس العذاب
فقال عبد الرحمن الداخل ، إنهما كذلك منقطعان ، ويحتاجان
إلى من يصل بينهما ، وأنشد بديهاً :

اليوم فيه كأنه من طوله يوم الحساب
والليل فيه كأنه ليل التواصل والعتاب

* * *

ولعل من أكثر ما يوضح الفرق بين الأساليب الأدبية والأساليب العلمية
فيما يدخل في اختصاص هذا الكتاب ، ما جاء على لسان أبي العلاء المعري
عند ما وصف بكاء الطفل ، ساعة مولده ، بقوله :

لما تُؤذن الدنيا به من صُروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولدُ
وإلا فما يكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغدُ

هذا ما يقرره الأدب على لسان شاعر فحل كأبي العلاء المعري ،
 أما الطب ، فإنه يقرر أن بكاء الطفل ساعة مولده ، إنما هو أمر تلقائي ،
 يأتيه الطفل بوحى من حبه ونزوعه للبقاء ، وكفاحه ونضاله فى سبيل ذلك
 بالبكاء الصارخ ، الذى تفتح به رثاه ، بعد انكماش كانتا فيه
 مضغوطتين ، بحكم الحيز الضيق الذى جاء منه الطفل .
 ومن أجل ذلك ، ينصح الأطباء بترك الطفل الوليد يبكى ويصرخ
 بأعلى صوته ، ففى هذا نفعه .

وهكذا نرى أن فى التقرير الأدبى ، خيالا ومقارنة وتصورا جميلا
 بموازين الأدب ، ومفارقة فيها تشاؤم ذكى عميق ، ولكنه بعيد عن الحقيقة
 العلمية ، التى تقرر ما ذكرنا ، تأكيداً لحب البقاء عند الإنسان منذ
 ولادته حتى يتوفاه الله ، بغريزة رُكبت فيه ، ليتشبث بحياة مهما أتعبت
 فإنه راغب فيها لا عنها .

* * *

وكانت للكتابة الأدبية عند العرب ، روح شفيفة ، تفيض بالتهكم
 والسخرية وسرعة الخاطر والنقد لأوضاع المجتمع ، وهى جميعها عناصر
 أساسية للكوميديا الراقية فى عالم المسرح ،
 قال الجاحظ : سألنى بعضهم كتاباً بالتوصية إلى بعض أصحابى ،
 فكتبت له رقعة وختمتها .

فلما خرج من عندى ، فضها فإذا فيها :
 « كتابى إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقّه ، فإذا قضيت
 حاجته لم أحمذك ، وإن رددته لم أذمك » فرجع الرجل إلى فقلت له :

كأنك قرأت الرقعة ١

قال : نعم .

قلت : لا عليك . ولا يضرك ما فيها ، فإنه علامة لى إن أردت
العناية بشخص .

فقال الرجل :

قطع الله لسانك ويدك ورجليك ولعنك .

فقلت : ما هذا يا هذا .

فأجاب :

لا عليك فهذه علامة لى إن أردت أن أشكر أحداً . . .

وقد تثير ضحكك ، المقارنة بين نظرة العالم للإنسان ، ونظرة الأديب
للجماد .

فالعالم يحلل الإنسان إلى جزئيات تحتوى على هيموجلوبين وكالسيوم
وفوسفور ومغنيسيوم وكبريت وصوديوم ويوتاسيوم إلى آخر ما فى جسم
الإنسان الحى من أجزاء .

فى حين أن الأديب أو الشاعر ، إذا نظر إلى نهر ينساب فى مساره ،
شبهه براقص يعرض فوق مجراه أفانين من الرقص الجميل ، حتى إذا
ما استمع إلى خرير موجه ، وصفه بأنه سيمفونية شجية ، نادية النغم ،
حلوة الأداء .

وحسبنا أن نرى العالم وقد حول الإنسان إلى جماد وجزئيات ، فى
مفارقة مذهلة ، فى حين حول الشاعر الجماد إلى كائن حى يحس
ويمشى ويرقص ويبعث الصوت الرخيم ، والنغم الأغنى .

الفصل الرابع

أدب الفكاهة في المسرح

امتلاً شراعنا بالهواء والهوى ، أوبالرياح والمحبة ، ليدفعان بمركبنا (عَظِيل)
باسم الله مجريها ومرسيها ، في طريق ما نحن بسبيله من رحلتنا مع الظرفاء ،
التي نَمْضِي من هذا الفصل الرابع ، في صحبة أقطابها ، لنسمع منهم
وعنهم ، ونستشف من وراء ما يقولون وما يعملون ، روح الفكاهة وأدب
المجون .

مضت سفينتنا تشق عباب الماء في ثقة واطمئنان .

وكان قائد السفينة ومعاونوه قد حملوا معهم ، إلى جانب الركاب ،
أثمن ما تحمل سفينة ، من رواد التاريخ في كل أدب وفن مما ضمه هذا
الكتاب من فكاهة وظرف ومجون . وكان أولهم مؤرخ المسرح الفكاهي .
وكانت السفينة من طراز سفن الأقدمين التي كانوا يجوبون بها البحار
قبل اكتشاف البخار ، وقد زودها مرتبو الرحلة بكل وسائل الراحة وبما
تستلزمه من أبهاء للمناقشة والاستماع .

ورحنا نحن أعضاء الرحلة ، نتخلق حول مؤرخ المسرح الفكاهي ،
وسادن آدابه ، وحافظ أطواره ، نستمع منه إلى أقواله :

الكوميديا في مفهومها الشامل ، تعبير يوصف به الكثير من الأعمال

الأدبية الدرامية وغير الدرامية . وكلمة دراما Drama في اللغة اليونانية ،
 تعنى العمل ، كما أن كلمة Comedy ، كوميدي ، تعنى في عرف
 المسرح القديم ، العرض المسرحي ، قبل أن تطلق على العمل المسرحي
 الفكاهي ، وتختص به وحده . ونذكر من باب التداعي ، أن كلمة
 Opera ، أوبرا ، تعنى في اللغة الإيطالية العمل ، من فعل Operare
 ثم تطورت لتصبح علماً على المسرح الغنائي الكلاسيكي المعروف
 بالأوبرا .

والمسرحيات الدرامية المعاصرة ، والتي تسمى بالكوميديا ، هي تلك
 التي تكتب بأسلوب خفيف مرح ، وتتضمن أحداثاً لطيفة ، وشخصيات
 تتمتع بظرف يمكنها من استحداث مواقف تثير الضحك وتبعث على
 الإضحاك .

ويوم أن بدأت الكوميديا اليونانية ، لم تكن تحوى سوى طقوس
 واحتفالات دينية أو اجتماعية ، تتخللها أغنيات ورقصات . وكانت تتميز
 بما يلبسه القائمون بالتمثيل فيها ، من أقنعة من جلود الحيوانات ورءوسها ،
 وربما كان هذا التخفى على هذه الصورة البدائية الفجّة ، هو بداية
 (البال ماسكيه) الأنيق الراقى في العصور الحاضرة ، أو مهرجانات
 الزهور وملكات الجمال التي تعلى عربات أنيقة وشيقة لا يبين هيكلها
 من غزارة الزهور التي تغطى كل جزء فيها وتفتّح براعمها عن ملكات
 جميلات .

ورحم الله عمرو بن العاص ، وهو ابن الصحراء ، يوم أن رأى لأول
 مرة عندما غزا مصر ، مركباً في النيل ، ليس من اليسير معرفة كنهه بعد

أن تعلق به الناس وانتشروا وفاضوا على جانبيه ، فسأل عن خطبه ، فأجابه المسئول ، بأنها مركب تحمل الناس ، ليقطعوا بها النيل إلى الضفة الأخرى فقال : دودٌ على عود

ويقول (أرسطو) في كتابه (الشعر) إن كريّس Crates (٤٥٠ ق . م) ، يُعد أول من قدّم كوميديا ذات حبكة ، وذات وحدة في الموضوع .

ونظرة الكوميديا إلى البشرية ، تختلف عن أعمال البطولة والشعر الحماسي للتراجيديا . وكثيراً ما حاول أرسطو أن يجد تعريفاً للكوميديا ، حتى اهتدى إلى أنها عمل مسرحي ، يتناول بطريقة مسلية ، الشخصيات العادية في حياتها ، ومواقفها اليومية حيال ما يحيط بها .

وعندما نقل الرومان هذه الأسس للكوميديا ، عن اليونان ، ضمّوها قدراً وفيراً من المتعة ، حتى أمكن وصفها بأنها عمل يبعث على التسلية ، ويهدف إلى عرض مسائل بعينها ، قد يتخللها التعرض لبعض الأخلاقيات . ولقد وصف سيشيرو Cicero ، الكوميديا الروائية لذلك العصر ، بأنها « تقليد للحياة ، وتصوير للعادات ، وللحقيقة » .

ثم جاء بعده دوناتوس Donatus ، ليقرر أن الكوميديا تبحث المسائل الشخصية دون عنف أو مخاطرة . وتحل فيها السعادة محل الشقاء . فإذا ما اشتملت القصة المعروضة ، على موقف يحنى فيه طفل ، فالكوميديا تحتم العثور على الطفل المفقود ، كنهاية سعيدة للعمل المسرحي المعروف ، الذي ترتاح إليه نفوس المشاهدين .

ولا يوجد في تاريخ الدراما ، ما يشير إلى أن الكوميديا تهدف إلى

مجرد الضحك والإضحاك ، ، وإن كان الضحك مقترن بالكوميديا ،
ومرتبط بها ارتباطاً عضوياً .

ولقد ناقش هذه الحقيقة كل من Burgson (بيرجسون) في
كتابه عن الضحك Le Lire ١٩٠٠ ، وكذلك Sully في كتابه
An Essay on Laughter

والكوميديا تنفرع إلى الكوميديا التهكمية ، والكوميديا السلوكية ،
Come dy of manners ، والكوميديا الاجتماعية ، والكوميديا ،
الرومانتيكية ، والكوميديا العاطفية . وربما كان أرقى هذه الأنواع ،
كوميديا السلوك ، التي تهدف إلى عرض شخصيات من المجتمع ،
وتسليط الأضواء على ما يقومون به من انحرافات ، وخلق جو يشيع فيه
الضحك الراقى ، عن طريق نقد تصرفاتهم نقداً مهذباً ، سوى القصد ،
دون الالتجاء الرخيص إلى استخدام ألفاظ ذات مدلولات ومعاني مزدوجة ،
استدرااراً للضحك الحاضرين .

ولن نجد كوميديا راقية ، إلا في وسط متحضر ، يكون للمجتمع فيه
تقاليد خاصة ، وسلوك اجتماعي متحضر ، حتى يمكن التغلغل فيه ، لنقد
ما يستحق النقد بصورة تجمع بين التهكم واللذع والسخرية ، توسلاً إلى
الإصلاح والبناء السوي .

والكوميديا تمتاز بهذا الهدف الراقى عن الفارس Farce ، الذي
وصف بأنه كوميديا مبالغ فيها بقصد الإضحاك ، وسيلة وغاية .

وهو في جملته يعتمد على التناقض ، وعلى المواقف المصطنعة ،
استغلالاً للضحك المجرد من أى هدف أو غاية .

وإن كان هذا ، في جملته ، لا يمنع الكوميديا الراقية من اشتغالها على عناصر ومواقف من الفارس .

عند هذا الحد ، توقف قليلا المؤرخ الأعظم للمسرح الكوميدي ، ليسأل إن كان هناك من يريد توجيه سؤال إليه ، وهنا انبرى أحد المستمعين ، ليسأل عن نصيب العرب ، في عهودهم الأولى ، من المسرح ، سواء في تراجيدياته أو كوميدياته ، فأجاب المؤرخ الأعظم بهذه الحقائق :
علة قصور العرب في المسرحية والتأليف المسرحي ، أن مزاويلهما تقتضي الروية وإمعان الفكر ، والعرب أهل بديهة وارتجال . كما أنهما يتطلبان الإلمام بطبائع الناس وأحوالهم ، والعرب في بدواتهم الأولى كانوا رُحَلًا ، فإذا استقروا قليلا نفروا إلى الحرب لأسباب تتعلق بالعيش والحياة .

وظل العرب في شغل بأنفسهم : وما ينتقلون إليه من مطارح ، وكفائتهم بذلك عن النظر إلى من عداهم ، ومن جاوز أفق تفكيرهم .
فوق أن ممارسة شئون التأليف المسرحي ، تتطلب التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم تعمقاً في البحث ، وأكثرهم ضيقاً بالمعاناة في أمر يلزمهم بالتفكير في دوائر محدودة وآماد مقيدة .
وهم أهل انطلاق وحرية تأني أي قيود وحدود . ولا يضير العرب قصورهم في التأليف المسرحي ، فقد سلس لهم قياد الشعر والبيان ، فضلاً عما بلغوه ، فيما أتى بعد ذلك من حقب ، من شأو بعيد في العلوم والفنون أيام نهضتهم ، عندما كانت أوربا تحبو في ظلام دامس وغفوة لم يوقظهم منها إلا العرب ، بما نقلوه إليهم من علوم وفنون وآداب ، جمعوها وترجموها

وصنفوها ، فكانوا حماة لها من أن تندثر وتندوى .

ولعل العهد بالأندلس ما يزال قريباً نسيباً ، لمن يريد العلم بما وصل إليه العرب في ذلك الزمان من امتياز في العلوم والفنون والطب والمعمار والهندسة وفنون القول على اختلاف صوره وبأساليب كان يمكن لمن يشاء منهم أن ينسج منها درامات لا تطاولها أعمال مسرحية في زمانهم في الأندلس .

وكان موقف ابن زيدون من ولادة بنت المستكفي ، الخليفة ، وهو موقف واحد من آلاف مثله ، وما تبادلاه وتطارحا به من أروع الشعر الغزلي الرقيق ، كافياً لأن يكون عملاً أوبرالياً وتراجيدياً ، ولأن يكون فكرة لأوبريت تجرى في أروقة وأبهاء ، قصور الأندلس ، وتتغنى بشعر ابن زيدون الوزير وبشعر الولادة ، قيان مغنيات مع رقصات أندلسية يزيد من بهائها ملابس ذلك العصر المتحضر البهيج . وابن زيدون ، الوزير الشاعر ، هو الذي قال عند ما يش من لقيا ولادة بعد دل منها وإلحاح منه ، وهو منظر درامي تراجيدي ، قال بعد ترك قرطبة إلى أشبيلية :

أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بثم وبنا فما ابتلت جوانحننا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا	أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
عليك مني سلام الله ما بقيت	صباية منك تخفيها فتخفيننا

وهي قصيدة طويلة لكل بيت فيها موقف تمثيلي جدير بالإشادة .

ثم أردف المؤرخ المسرحي العظيم قائلاً ، إن العصور الوسطى كذلك ،

خلت من العروض المسرحية بصورة عامة ، فيما عدا موضوعات مستمدة من التوراة والإنجيل وطبيعي أن يكون أغلبها تراجيدياً وأقلها ما كان كوميدياً .

ومن كوميديات العصور الوسطى ، ما ورد نصه في كتاب m سيزام ، وهي كوميديا « سفينة نوح » حيث تُشاهد زوجة نوح تعنف معه إلى حد الاعتداء عليه بالضرب .
والحبكة هنا تعتمد على أن نوحاً أصر على أن يأخذ من كل كائن حي ، زوجين ، استمساكاً منه بدوام الحياة ، وليسير بهذه الأزواج في مركبه ، مع علمه بما سوف تتعرض له الحياة فوق المركب من خلافات تثيرها المرأة ، برغم عدم وجود منافس لها ، ولكن القصة كانت تغمر ، مبالغة منها ، إلى أن المرأة تلازمها طبيعتها في كل مكان وزمان ، وهو غمز مقصود ، تتطلبه الكوميديا .

والعجيب أن مسرحية (فاوست) Faust ، المفروض أنها مأساة ، كانت تمثل تمثيلاً كوميدياً . فقد وجد رجال المسرح آنذاك ، أن شخصية (فاوست) في تطاوله على شئون إلهية عليا ، يمكن أن تكون موضوعاً للسخرية التي هي مادة الكوميديا ، لا أن تكون موضوعاً للتراجيديا .
في مثل هذه العصور الوسطى الجامدة الجادة ، لم تجرؤ ابتسامة ما ، أن تطل من فوق شفاةٍ أطبقها شظف العيش حتى لا تنطق ، لا أن تبسم .

ومضت السنين يطوى بعضها بعضاً ، حتى أطل عصر النهضة^١ وظهرت الكوميديا في ثلاث صور :

كانت الصورة الأولى تعتمد على الفكاهة اللفظية ، التي تعتمد بدوره على ذكاء وفطنة وسرعة خاطر الممثلين في الحديث والجدل .

وكانت الثانية تعتمد على المواقف ، عندما يقع سوء تفاهم أو خطأ غير مقصود ، أو تورط في أمور مفاجئة .

وكان النوع الثالث هو أرقاها ، وهو ما أطلق عليه ، Comedy of Humours ، أى كوميدياً الطبع ، لأنها تبرز ما في الإنسان من نقط ضعف تدعو إلى التهكم عليه لا الرثاء له .

وكوميديات شيكسبير من هذا النوع الراقى . وتظهر براعته في تناوله للكوميديا ، في مسرحية (هنرى الرابع ومسرحية زوجات وندسور المرحات ، ثم في كشف ما انطوت عليه شخصية شايلوك في تاجر البندقية) .

ولعل (مولير) كان سيد هذا النوع ، الذى تفرغ له وأصبح علماً عليه ، ولا شأن له بغيره ، على عكس شيكسبير الذى توزع بين التراجيديات والكوميديات .

وكان مولير ، بفضل تفرغه ، قد جمع بين أصابعه خيوط الكوميديات الثلاثة التى سبق ذكرها ، وراح يستخدمها بقدرة وإدراك فى مسرحه الذى ما يزال نابضاً بالحياة حتى أيامنا هذه ، وهو أمر يندر وجوده . ومن ذا الذى ينسى شخصيات المريض بالوهم والبخيل . إنها أهرامات آدمية .

وما يروى عن (مولير) ، أنه كان ينجح إلى وسيلة بارعة ، للتأكد من بلوغه ما يطمع فيه من مستوى الكوميديا الراقية التى يقدمها . فقد لاحظ أن خادمه الخاص ، الموكل إليه كل ما يتصل بخدمة مولير وشئون

لعامة والخاصة ، وهو ما كان يطلق عليه اسم Butler أو الوصيف ،
أحظ أن هذا الوصيف لا يعرف الابتسام إليه مبيلا .

وكان من العسير إضحাকে ، أو بعث الابتسامة إلى شفثيه .

فكان يستدعيه ، ويطلب منه الاستماع إلى مسرحيته الجديدة . ويطلب
منه أن يجلس أمامه ، ليستطيع موليير تتبع أسارير وجه خادمه . ثم يمسك
ورقة وقلم ، ويدون ما راق للوصيف ، وما أحس بأنه حرّكه حتى ابتسم
و أخرجته عن حدّه حتى ضحك ، ليقف من ذلك على تأثير ما يكون
قد كتب ، على المشاهدين عن طريق متابعة الخط البياني الذي ارتسم
على وجه وصيفه العبوس ، ثم يمضى في إجراء تعديلات على مسرحيته من
واقع ما خرج به من ملاحظات ، كانت أمامه مقروءة كأنها رسم القلب
أو مقياس ضغط الدم ، أو تقلبات الأسعار

وبرغم أن أعمال (ابسن) المسرحية لا تدخل في نطاق ما نحن
بسييله من بحث الكوميديا ، إلا أن العلم بمسرحه يؤدي إلى العلم بما تأثرت به
الكوميديا من روافد صبت في نهريها ، وأمدته بالغزير الوفير من العلم
الصحيح والمدى الأفق والرأسي للمجتمع ، وما به من نقائص ، يعمل
مسرحه على إبرازها كعلة كشف عنها فحصه ، وكتب لها الدواء الذي
يساعد على الشفاء .

ولقد سقط ظل (ابسن) على المسرح الحديث ، وكان تحليله لمشكلة
الطبقة المتوسطة قاطعا ، مما استحال معه تجاوز حدود فكرة . ذلك أن
التحرك خارج هذه الحدود ، معناه التحرك خارج حدود المجتمع في
تكوينه الحديث .

ففي مسرحية (عصابة الشباب) يظهر (ابسن) براعة فائقة وقدرة مذهلة استطاع بها أن يحلل بها شخصيات مسرحية عن طريق ما تصنعه الضغوط الاجتماعية بالنفوس . ويقول في القصة ، دكتور قيلدر عن أحد شخصيات الرواية « كان أبوه أنقاض رجل : عُشب ذابل أو قل لا شيء وكان يحتفظ بـدكان يعمل فيه بالتجارة وبالربا . أو على الأصح كانت زوجته ، تقوم بذلك ، نيابة عنه ، حتى يصح في أذهان كل معارفه ومن لا يعرفه ، أنه لا يصلح لأي عمل » .

وهو على عكس من أراد من مؤلفين ومفكرين ومسرحيين ، أن يظهرُوا أن الطبقة المتوسطة طبقة مغلوقة على أمرها ، كان هو يرى أنها طبقة تحاول إنقاذ نفسها بشتى الطرق ، التي كان المال يلعب أكبر دور في الضغط على هذه الطبقات ، ليحملها على الانحراف . وكان يرى أن أفراد هذه الطبقة ، كانوا يكافحون ضد العرف الذي أصبح قانوناً ، لا ضد الظروف التي ينبع منها العرف .

ثم مرّت هذه الفترة لتعقبها الكوميديا الحديثة ، التي كان مسرح « برناردشو » زعيمها . وكانت كوميدياته تقوم على المذهب الواقعي ، ولذلك ارتبطت هذه الكوميديات بالنقد الاجتماعي ، وهو مادفعه إلى اتباع مدرسة كوميديا السلوك .

ومع برناردشو ظهر في فرنسا مارسيل بانيول . وفي روسيا نيكولاى جوجول . وكانت أعمالهم جميعاً تهدف إلى النقد .

وما دما قد أثينا على ذكر الكاتب المسرحي الفرنسي وعضو الأكاديمية الفرنسية ومؤلف المسرحية الخالدة (توباز) ، مسيو مارسيل بانيول ،

فلا بأس من أن نذكر طرفاً مما عرف عنه من ظرف ومجون وأقوال مأثورة
لأذعة .

كان يقول إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحمر وجهه .
ولا بد من حيوان آخر مثله يتسبب فى ذلك .

وكان يقول عندما علم بمأساة أحد أصدقائه بعد أن أصبح لا يملك
شيئاً على الإطلاق ، وفى وقت مبكر : إن الإنسان لا يرتاب فى توخى
هذا الصديق لما وصل إليه من إفلاس ، كان نتيجة وضع ماله فى يد
امرأة ، وخاصة عندما كانت يد هذه المرأة صغيرة .

ويقول إن المرء يبلغ سن الشيخوخة عندما يبدأ فى ترديد هذه العبارة :
إننى لم أشعر من قبل بأننى قى مثل اليوم .

وكان يروى عن أحد الخالدين الأربعين أعضاء الأكاديمية الفرنسية
الذى اشتهر ببخله ، أنه انقطع انقطاعاً تاماً الآن للتاريخ حتى أصبح
يعيش فى دهاليز الماضى وأروقة الزمن الغابر ، فما كان من فرانسوا
موريyak الذى كان يستمع لهذا الوصف ، إلا أن استغرق فى ضحك
طويل ليقول :

ذلك لأن تكاليف الحياة ، هناك ، زهيدة جداً

وكان يروى نادرة يعود تاريخها إلى عهد الملك لويس فيليب . مفادها
أن أحد أصحاب الحاجات ، كان يبغى إنجاز مهمة لدى موظف حكومى
عظيم الشأن ، وقد عرف عنه أنه يرتشى . فلما تأكد صاحب الحاجة ،
أنهما وحيدان فى المكتب ، همس بصوت خفيض :

نحن يا سيدى الآن وحيدان هنا . فخذ بالله هذا المبلغ المتواضع ،

وأقسم لك أن أحداً لن يدري شيئاً عما جرى بيننا .
 فما كان من الموظف الكبير إلا أن هتف عالياً :
 بالعكس أيها العزيز ، أعطني ٢٥ ألف فرنك ، واروا الخبر للجميع ...
 وكان إذا أراد مارسيل بانيول أن يتحدث عن فتنة امرأة ، وجمالها
 الأخاذ ، يقول :

إنها جميلة مثل زوجات الآخرين ...
 ومن أقواله أيضاً إن اللحظة الوحيدة ، التي تصفى فيها الزوجة إلى
 ما يقوله زوجها ، هي ، عندما يتكلم في نومه ...
 وكان يقول عن التليفزيون الفرنسي ، إنه ساهم بحق في نشر الثقافة
 في فرنسا على أوسع نطاق . فعندما يبدأ هذا التليفزيون في عرض مسلسلاته
 على شاشته ، فإن عدد المشاهدين الذين يقفلون أجهزتهم ، يزداد ليفزعوا
 إلى أقرب الكتب الجديدة التي صدرت وقرءوا عنها ، هارعين إليها هرباً
 مما يرونه من عروض ، وهو أمر لم يكن قائماً قبل التليفزيون

* * *

ويسأل المؤرخ العظيم : هل أمضى ؟ أم لأحدكم شيئاً يريد أن
 يستعلم عنه ؟

وارتفعت أصواتنا تسأله الاسترسال ، رغبة منا وقد قاربنا عصرنا
 الحاضر ، أن نسمع منه عرضه له ومسحه الشامل للمسرح الفكاهي
 في زماننا .

راح يستعرض المسرح الفكاهي منذ عهد يعقوب صنوع الذي كان
 إمام الساخرين في الصحافة والمسرح الفكاهي ثم جاء بعد فترة مجدبة

من الفكاهة في المسرح المصري ، عهد الريحاني وعلى الكسار ، الذي
 اعتمد فيه الأول على شخصية عمدة كفر البلاص ، حتى إذا أحس
 بملل الجمهور منها انتقل إلى كوميدياته الراقية التي بناها على نقداً في
 المجتمع من نقائص ، واعتمد فيه الثاني ، على الكسار ، على شخصية
 رجل كان يطلق عليه (بربرى مصر الوحيد) وكان طيب القلب ، مهمته
 في الحياة التوفيق بين المتخاصمين وجبر الخواطر ، حتى يصل الشاطر
 حسن إلى ست الحسن التي حجبا عنه شياطين يمثلون الشر ، مع استعراض
 غنائى كان الجمهور يستسيغه ، ويغنى فيه حامد مرسى وعقيلة راتب ،
 ويلمع هو فيه معهما ، لمعاناً أتاح له أن يقف موقف الند من مسرح
 الريحاني .

ثم أتى حين في الحرب العالمية الأولى ، كانت الكوميديات تعتمد
 على استعراض مسرحى غنائى راقص ، مع بعض دياالوجات فكاهية ،
 فرانكو آراب ، كما كانوا يطلقون عليها .

ثم ظهرت إلى جانب هذه الاستعراضات ، مسارح عبد الرحمن
رشدى وجورج أبيض والشيخ سلامة حجازى وعزيز عيد وأمين صدق ،
 لتقديم كوميديات مترجمة راقية ومصرية أحياناً .

وكان مسرح الشيخ سيد درويش يقدم أوبريتات غنائية ما تزال
 أغانيها كأنما قد فرغ ملحنها المبدع الخالد سيد درويش منها في التوفى
 هذه الأيام التي نعيشونها . والفن الأصيل روح لا تنطق شعلتها ، بل تبقى
 متوهجة بفضل ما بها من حرارة الصدق وعبقورية خالقها وصانعها الفنان
 التقدير .

وقد قدّم على مسرحه العشرة الطيبة وشهر زاد والباروكة ، التي كان يضع فيها من النقد للاحتلال ، غمزات لاذعة حتى استطاعت السلطة أن تغلق مسرحه بأساليبها الملتوية .

* * *

ويمضي المؤرخ الأعظم في سرد أخبار المسرح الكوميدي في مصر فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

كانت الكوميديات ، كما ذكرنا ، تنحصر في مسرح الريحاني والكسار وعزيز عيد في فترات متقطعة ، وذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

وعزّ على يوسف وهي ألا يلتقي بدلوله في الدلاء ، فراح يقدم مسرحيات كوميدية مترجمة لاقت نجاحاً كبيراً . وهو نفسه ، كوميدي من طراز فريد شكلاً إن أراد ، وصوتاً وحركة برغم إرادته .

كما أنه يعد من أكثر الممثلين فهماً لأبعاد الدور الذي يمثله أيّا كان نوعه ، وهو ما حدا به إلى تقديم مسرحية (بيومي أفندي) التي كان يغمز فيها بنقد لاذع ، أوضاع المجتمع ومتناقضاته ، ويوغل في سويداء ما يريد كشفه متوسلاً في ذلك بقدرته على فهم كوميديا . المواقف وكوميديا السلوك .

وكان يعلم أن تراجيدياته لا تجذب إلا فريقاً من الطبقة المستثيرة ، وهذه لا تشبع جوع الشباك النهم .

فقلة ، هي التي تعنى بمشاهدة راسبوتين وغادة الكاميليا ، والمجنون ، والوحوش وأبناء الفقراء وعشرات مثلها .

ولا بأس من سرد نادرة تناسب هذا المقام ، عن تراجيديات عميد المسرح ، يوسف وهبي . فقد قصد مسرح رمسيس ، في أوج مجده ، عامل من الكادحين ، أراد أن يروح عن نفسه في يوم عطلته وهو يوم الجمعة ، واجتذبتة الإعلانات فقطع تذكروته في أعلى التياترو ، وجلس لمتابعة أحداث الرواية التراجيدية التي راح يوسف (بك) يأتي فيها على مصائر كثير من شخصيات التراجيديا ، بلا شفقة أو رحمة .

انقبض صدر العامل المسكين ، الذي جاء ليرفه عن نفسه ، فإذا به أمام مأتم متلاحق المآسي ، وأيقن أن نقوده ذهبت هباء ، وتمنى لو كان ما يجري أمامه ، إنما هو مقدمة ، كان لا بد منها ، لسوء سلوك الذين لقوا مصرعهم على يد رغبة عميد المسرح ، وأنه سوف يأتي بعدها ، إن شاء الله ، ما يزيل كربيه ، ويعمل على الترفيه المنشود .

ولما لم يحدث ما تعلق به من أمل واه ، صرخ من أعلى التياترو :
« يا سي يوسف . كفايه كده . واللى فينا مكفيننا . قول لنا حاجة من شكوكو ، الله يجبر خاطرك » .

ولعل المجال يسمح بسرد نادرة أخرى أقدم عهداً تتعلق هي الأخرى بالمسرح .

فقد حدث في إحدى جولات فرقة جورج أبيض في عواصم المديرية ، أن تخلف ممثل من أعضاء الفرقة ، وكان دوره صغيراً ، ولكن مغصاً كلويًا . مفاجئاً ، أقعده عن مجرى الحركة . ومهما يكن من أمر دوره الصغير ، فإنه لا بد من شغله بأحد .

أسقط في يد الأستاذ الكبير جورج أبيض ، لولا أن انتشله مما هو

فيه ، أحد ممثلى الفرقة ، الذى ذكر للأستاذ جورج ، أنه قابل صديقاً فى المدينة - وكانت المنصورة - أنبأه بأنه كان فى طريقه إليه ، ليدعوه إلى حضور فرح أخيه ، الذى أحضروا له من القاهرة ، فرقة موسيقية وبعض فنانين من المونولوجست وكذلك أحمد الفار الذى اشتهر برواية الحكايات الفكاهية ، والدخول فى قفشات مع الجمهور ، بترتيب خاص ، مثلما كان يحدث فى مسرح على الكسار ، إلى جانب تقليده لبعض الأصوات وهو بحكم اعتياده على مواجهة الجمهور ، فإنه يستطيع أن يقوم بدور الممثل المريض ، ثم يعود إلى الفرح ، لأن دوره لا يتجاوز دقائق .

واستصوب الأستاذ جورج أبيض الفكرة ، وأحضروا أحمد الفار ، الذى أفهموه دوره الصغير ، وألبسوه عمامة وقفطاناً ووضعوا له ذقناً وشارباً مستعارين .

وكان عليه ، طبقاً لمجريات الرواية ، أن يرد على جورج أبيض ، بأربع كلمات على التحديد ، هى :
أقسم لك أنى برىء

وذلك عندما يكون جورج قد غرز أصابعه فى صدره ، صارخاً ، « سوف أقتلك أيها المجرم ، سوف أقتلك ، سوف أقتلك . . »
وبدلاً من أن يغرز جورج أبيض أصابعه فى صدره ، غرزها فى بطنه ، بسبب ضعف بصره ، ويسبب ما عرف عن جورج أبيض من اندماج كلِّ فى الدور الذى يؤديه ، فإنه لم يكن يسمع شيئاً مما يدور حوله ، حتى

صوت الملقن ، ولم يلتفت إلى صوت أحمد الفار وهو يناشده أن يخفف من ضغط قبضة يده ، لأنه بالفعل سيموت إذا استمر جورج فيما هو مندمج فيه . فلما لم يجد الفار صدى لهذا الرجاء المستميت ، إذ به يخلع العمامة والذقن والشارب والقفطان ، ويلقى بهم على أرض المسرح وهو يصرخ ويدفعهم عنه :

حدّ الله بيني وبينكم ! دول ما كانوش ثلاث (برايز) ، ثلاثين قرشاً ، علشان تتأمروا على قتلى ، والاسم تمثيل ؟ . . . ابعدوا عني . . .

ثم جاءت سنوات ما بعد عام ١٩٥٠ ، وظهر معها مسرح كوميدى انتقادى ، مهمته نقد المجتمع فى سبيل خدمته ، عندما تنحرف بعض طبقاته عن جادة المعقول والصواب .

وكان من الطبيعى عقب الانتقال من مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى ، أن تهتز موازين كل شىء قامت عليه الكوميديا فيما قبل ذلك . وأصبح الهدف شيئاً ضرورياً ومصاحباً لأحداث المسرحية الكوميدية .

وانحصرت الكوميديا فى السخرية من أوضاع المجتمع القديم أو من وقوع انحرافات حديثة تدعو إلى النقد والتوجيه ، مثلما كان يجرى فى رواية (ميرامار) أو (روبايكيا) ، بهدف تنقية المجتمع والسلطة من شوائب ، إن لم تستأصل وهى فى بدايتها ، استشرت وصعب الفتق على الراقق .

وظهرت فى هذه السنوات الأخيرة مسرحية سكة السلامة ، ومسرحية القضية ، اللتان عرضتا إلى نقاط الضعف فى شخصيات من المجتمع ، ذات ميول متباينة واتجاهات متعددة ، ونخفة ظل وقدرة على الحركة والتحليل ، سرت فى طول هاتين المسرحيتين ، عن فهم وإدراك الكوميديا

السلوكية الراقية .

وقد أكون واقعياً وأنا أقول إن الكوميديا المصرية منذ عهد الريحاني ، لم تتقدم خطوة إلى الأمام ، إلا في بعض شخصيات المسرحية ، التي يعتمد فيها المؤلف على ما يقع من متناقضات في الطبقة المتوسطة ، نابعة من تخفيف التمسك بقيود القديم ، والتطلع إلى الجديد بحذر متأه نقده المجتمع والبيئة لكل أمر مستحدث ، سرعان ما يألفه بعد حين ، ما ذكرته هنا من مسرحيات إنما هو على سبيل المثال . وقد ظهرت عشرات التمثيليات التي نجح مؤلفوها في الوصول بها إلى حيث يريدون .

ومما يؤسف له أن بعض كوميديات العصر الحاضر في مصر ، نرى فيها المؤلف يلجأ إلى الألفاظ التي تثير الضحك لمدلولات فيها ، وإشارات وحركات تخدش الحياء .

كما أن الاعتماد على الإضحاح لمواقف حركية كضرب الممثل نفسه بحذاء ، أو الوقوع على الأرض ، أو بلبس ملابس مستهجنة ، لا يعد من الكوميديا الراقية مطلقاً . وإن كان يثير الضحك للضحك ، وهو في رأى بعض الناس هو الغاية من الكوميديا ، بل هو وسيلة وغاية في اختصار مفيد .

على أننا لوجه الحق ، نقول إن المؤلف المصرى للكوميديا معذور في ذلك كل العذر .

ذلك أن الجمهور لا تحركه إلا مواقف بعينها ، يراقب المؤلف بعين يقظة ، مواضعها أثناء العرض ، ليجد لنفسه مكاناً في كوميدياته القادمة إرضاء لهذا الجمهور ، الذي يخافه ويخشاه كأنه اللجنة والنار ، والذي

عرف زاده الذى يهفو إليه ويهواه .

ولعل لا أجاز الحق ، إذا قلت إن يارقان شانيل سانك ، أوجاك فات ، أو كريستيان ديور ، لا يقبل عليها أقوام لا يرضيها إلا الروائح النفّاذة ، التى تحتل المواضع التى تنسكب عليها ، احتلالاً يتطلب جهداً وكفاحاً ونضالاً ، حتى يذهب ربحها . . . هذا إن ذهب . . . ومؤلف الكوميديا المصرى يعلم أنه يعرض عمله على شعب ذكى (يفهمها وهى طائفة) كأنه فى موقعه يبيع ماء فى حارة السقاين .

وليس أعرف بطبيعة النفس إلا صاحبها . وقد تتطور الكتابة المسرحية للكوميديا إلى ما هو مرجو منها ، إذا التزم الكتاب الجانب الإنسانى الذى يمكن أن يضحك منه كل مشاهد ، مهما كانت طبقته ، ومهما كان زمانه وعصره ، وأينما عرضت مثل هذه المسرحيات .

ولديكم فى مصر بحمد الله وفرقة من الممثلين الكوميديين تباهون بها أى دولة . وكلهم مجيد نابغ لأن وصولهم إلى خشبة المسرح وسط هذا الجمهور الواعى المستنير ، يتطلب مزايا هي بحمد الله متوفرة لدى الكثرة من المصريين وتظهر واضحة بالمران . ولو وقع هذا الحشد من الكوميديين على نص ناجح ، إذن لسمعتم طرباً ورأيتم عجباً .

* * *

كنا قد وصلنا فى طوافنا إلى بيروت ، ثغر لبنان القريب ، حيث كان المؤرخ الأعظم للمسرح على موعد مع مركز هيئة اليونسكو فى بيروت ، الذى أعد له برنامجاً ثقافياً يستمع فيه المدعوون إلى محاضراته ومناقشاته ، عن تاريخ المسرح اليونانى منذ عهد يوريبيدس صاحب مسرحية

هيبوليتاس ، وسوفوكليس صاحب أوديب وأنتيجون ، وأشيل صاحب بروميثيوس .

ودعناه شاكرين ، ودعا لنا بالتوفيق في باقي رحلتنا .

ولما كنا ننوي أن نبحر إلى أماكن نائية ، لا قبل لمراكب الشراع بها ، لأسباب جوية وفنية ، فقد هبطنا بيروت مع الهابطين ، لنستقل منها ، طبقاً لجدول مرسوم ، باخرة فاخرة ، ضخمة فخمة ، تُغرى بالاطمئنان وتبعث بالثقة في النفوس ، وتزدان أبهاؤها بكل ما تطيب به الروح ، وينشرح له الصدر . كما كانت تتسع هذه الأبهاء لمئات المسافرين ، عند عرض مسرحية أو فيلم سينمائي لدفع أى ملل أو سأم من الرحلة ، إلى جانب تجهيزها بالحديث من الآلات الكهربائية الحديثة ، التى تتحكم فى الصوت وفى الضوء ، بحيث يطيب للمشاهد فى مقعده الوثير ، الوقت والمتعة والفائدة وانسجام رفقة الطريق .

تفرقنا فى ممرات الباخرة بحثاً عن مقصوراتنا التى دلّنا عليها مستخدمو الباخرة ، وتواعدنا على اللقاء فوق ظهر الباخرة ، لنشاهد الهابطين والصاعدين ، وهى متعة المسافر فى كل شيء ومن أى جنس ، وكأنما كنا نلتقى بخواطرنا مع خواطر أبى الفرج الأصبهاني ، صاحب كتاب الأغاني عند قوله : « فى طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه ، أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، المنتظر أعلى على القلب من الموجود » .

وتلاقينا على سطح الباخرة : « مفاعيل » . . . وقفنا ندقق النظر فى الصاعدين ، انتظاراً منا لرؤية المؤرخ الأعظم للشعر والشعراء ،

حيث كان منظمو الرحلة قد اتفقوا معه على أخذه في رحلتنا هذه ليحدثنا خلال الرحلة عن عالم الشعر الفكاهي والشعراء الماجنين ، إلى أن نتوقف في ميناء تريستا الذي يتزل هو فيه ليقطع الطريق براً من فينيسيا إلى فلورانس شمالاً ، وهي مركز الإشعاع الفكري في القرون الوسطى ، وموطن (دانتي) صاحب الكوميديا الإلهية ، وأخذ شعراء إيطاليا ، ليصل منها إلى مدينتي (فيرونا وبادوفا) القريبتين من بحر الأدرياتيك حيث وقعت أحداث مأساة (شكسبير) الخالدة ١٥٩٤ (روميو وجولييت) في هذه المنطقة .

وقد علمنا من منظمي الرحلة أن المؤرخ الأعظم للشعر تلقى دعوة من جامعة (فيرونا) لإلقاء محاضرة ، صرف همه فيها إلى عقد مقارنة بين مأساة مجنون ليلى ، العربية ، ومأساة شيكسبير ، روميو وجولييت .



الفصل الخامس

أدب الفكاهة في الشعر عن الشعراء

شاهدنا من مواقعنا العالية فوق سطح الباخرة «مفاعيل» شيخ مهيباً وقوراً أشيب ، يلبس (حُطَّة) يحيط بها عقال ، ويلتف في عباءة فضفاضة بيضاء ، وقد أمسك بعصاً طويلة ، وأطل من تحت إبطه سجل كبير ، كان يحرص عليه حرص الخليل بن أحمد الفراهيدي على صحة أوزانه وبحوره .

وكان يصعد مرقى الباخرة في تودة ومهابة استقطبت من حوله الأنظار وأحاطت به في إعجاب وارتقاب .

لقد بدا عليه ، برغم طول الطريق الذي قطعه ، ثوب الشباب ، واطمئنان الشيوخ .

لقد علمنا فيما بعد ، أنه جاء من شبه الجزيرة العربية ، وعرج في طريقه على بغداد فدمشق فحلب ، موطن وحاضرة إمارة سيف الدولة الحمداني ومسرح تغني المتنبي بشعره ، حتى بلغ بيروت ، ليصبحنا في رحلتنا ، ولنسعد بصحبته ولنستمع بمعارفه وواسع إحاطته بكل مجالات ، الشعر ، وبصفة خاصة بالشعر الفكاهي والشعراء الماجنين .

سار الشيخ الوقور بتودة ووقار ، وتقدمه إلى البهو الكبير ، ضابط

بحرى من ضباط المركب ، حتى استقر فى صدر البهو فوق أريكة وثيرة
 الفراش ، ناعمة المساند ، وزاح يتمم بكلام مقفى موزون ، تبين لى
 من التقاط أذنى لبعض ألفاظه ، أنه لابن أبى صقر ، الذى كان يقول
 بعد أن طعن فى السن ، وأصبحت العصا جزءاً من أشلائه :

كلُّ أمر إذا تمعنت فيه وتأملته رأيت ظريفاً
 كنتُ أمشى على اثنتين قوياً وترانى على ثلاثٍ ضعيفاً

* * *

أخذ الشيخ برفع صوته حتى يصل إلى كل سمع متشوق ، وكل نفس
 راغبة ، وراح يقول :

الظرف فى الشعر ضرورة كضرورة الأنوثة للمرأة ، والطيب فى
 العطر ، والماء للزروع ، والحرية للبشر أجمعين .

ولن تجد شعراً تستطيه الأسماع ، وتحفظه الأذهان ، إلا إذا احتوى
 على طلاوة أسلوب ، وجمال معنى ورهافة حس ، وخفة ظل فى التناول
 والسرد ، والتندر ببدايع المجون . .

والهجاءون إذا لم يضم هجاؤهم ظرفاً مُستحباً ، وخيالاً ممتد الأفق ،
 ومفارقة ذات مجون ، فأولى بشعرهم وهجائهم أن يسلك فى شعر السباب
 والشتائم ، لا الهجاء الظريف .

فقد حدث أن الأقيشر ، واسمه المغيرة بن عبد الله الأسدى ، الذى
 ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام ، كان يحب ابنة عم له اسمها الرباب
 ويتحرق شوقاً للزواج منها الذى أباه عليه أبوها ما لم يدفع مهرأ قدره عشرة
 آلاف درهم لم يكن يملك منها درهماً . وقد ردّه أهله عندما رجاهم بدعوتهم

له ، فعاد حزينا شقياً .

وهذه تفكيره إلى أن يسأل العون من ابن رأس البغل ، وهو ذهقان الصين ، وكان محوسياً من عبدة النار . وقد وجد عنده ضالته وأعطاه الصداق المطلوب .

ورأى الأقيشر أن يمدحه بقصيدة تم عن الشكر وهي إلى جانب الشكر ، تضمنت قدحاً مستطرفاً بالغ الظرف . قال :

كفاني المجوسى مهر الرباب
فدى للمجوسى خالى وعم
شهدت بأنك رطب المشاش (١)
وأن أباك الجواد الخضم
وأنك سيد أهل الجحيم
إذا ما ترديت فيمن ظلم
تجاوز قارون فى قعرها
وفرعون والمكتنى بالحكم (٢)

فلما عاتبه المجوسى على هذا الجزاء وهو الذى فك ضيقته ، أجابه الأقيشر :

أو ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبى جهل ؟
بل إن بعض الرثاء إذا صاغه شاعر ظريف ، لطيف الحس ، لمست فيه العزاء الجميل ، والفلسفه التى تذهب الحزن .

(١) رطب المشاش بمعنى كريم النفس .

(٢) الحكم هو أبو جهل .

فقد حدث أن أبا دلامة زلـد بن الجون الكوفي المنبت ، الماـجن المضـيع للقروض ، والمـجاهر بـذلك ، كان الخلفاء والولاة يتجاوزون عن آثامه للطفه وظرفه .

وكان من ندماء أبي جعفر المنصور ، الذى حـببه فيه ظرفه . ومما يروى عنه أنه دخل على أم سلمة المخزومية ، امرأة الخليفة أبي العباس السفاح ، بعد وفاة زوجها . فإذا بفجيعتها فيه تبعث الدموع فى عينيه ، فبكت معه . وراح ينشدها قصيدة فى رثائه ، فقالت له :

لم أر أحداً أصيب به ، غيرى وغيرك يا أبا دلامة .

فقال : يرحمك الله ، ولكن لا سواء ، فأنت لك منه ولد ، وما ولدت أنا منه

فضحكت ، ولم تكن ضحكت قبل ذلك ، وقالت :

لو حدثت الشيطان لأضحكته .

* * *

طاف المؤرخ الأعظم بنظره بين المستمعين ، فلمح وجوهاً مصرية كثيرة ، فابتسم لها مرحباً ، ثم أردف يقول :

يطيب لى قبل أن نوغل فى عالم الشعر الفكاهى عند العرب ، أن نعرض بعض ملامح رقيقة من شعر ظرفاء مصر ، فى عصر ، لا هو بالبعيد ، ولا هو بالقرب ، وإن كان العلم به غير منتشر ، حتى ليخشى أن يندثر .

كان هذا العصر وشعراؤه ، يقع فى نهاية القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وبلغ ذروة إشراقه ما بين عام ١٧٥٠ وعام ١٧٩٠ .

ولم يأل صديقي الجبرتي جهداً في بحث أحوال ذلك العصر ، في نواحيه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والعسكرية ، ليؤرخ لها تاريخاً ، التزم فيه كالعهد به ، صدق الحس ، وأمانة العرض ، والإحاطة بالوقائع .

وشعراء مصر من الظرفاء ، لا يحصيهم العد .
والظرف في مصر فن له أصالته وطريقته ، وله سذنته وفرسانه .
وانك لتدركه في كل مقال ومجال ، فإن لم تدركه أدركك ، لما يتميز به من سرعة بديهة وإشراق لماحيته ، وظرف معناه ومبناه .
وانك لتقرأ لافتات على محال تجارية ، فيما تسلك من طرقات ، تثير في نفسك الضحك وتشيع بين جوانحك البهجة .
من ذلك أن جزراً فتح محلاً في شارع من الشوارع غير المعروفة ، وعلق لافتة للمحل جاء فيها : « الجزيرة العالمية »
ويبدو أن الرجل ، أخذ الحياء مما أقدم عليه من ادعاء العالمية ، فعاد يكمل اللافتة مستدركاً بظرف لمّاح ، لتصبح : « الجزيرة العالمية »
الصغرى

وعندما عُرض في مصر فيلم الوردة البيضاء ، استهوى الاسم أفئدة كثيرين من أصحاب المحلات التجارية ، من غير مراعاة لمقتضى الحال ، كما هو الأمر في البيان .

فكنت ترى مثلاً « فسخاني الوردة البيضاء » أو « أسماك الوردة البيضاء » أو فرارجي الوردة البيضاء »

وصدرت في مصر مجلة في الثلاثينات ، طاب لصاحبها أن يسميها

« مجلتى » . وكانت هذه التسمية كفيّلة بأن تجتذب إليها المولعين بالتجديد ،
 فراح كثير من التجار يطلقونها على محالهم ، فكنت ترى على سبيل
 المثال : « بفتى » لمحل بيع الأقمشة الشعبية من بفتة ودمور وغيرها .
 أو « لحمى » . . . على محل جزارة متطور . حتى بلغ الحال بحانوتى
 عصرى بالإمام الشافعى ، أن أطلق على دكانته : « طربى » . . .
 وأنت إذا كلّت عينك من قراءة اللافتات ، التقطت أذنك وأنت
 تسلك طريقك ، أحاديث المارة التى تنطوى على متعة ما بعدها من متعة .
 فقد أبلغنى صديق ، أنه كان يتزّه على شاطئ النيل ، وإذا برجل
 يصحب أولاده الأربعة فى نزّهة اقتصادية ، فهو موظف محدود الدخل
 من المال لا من الولد . . . ، وكان منظر بائع « السميّط » الذى مرّ
 بهم ، قد حرّك شهية الأولاد ، فرضخ الوالد لإلحاحهم ، واستوقف
 البائع ليسأله عن ثمن الواحدة من السميّط ، فلما علم أنه قرشان ، راح
 يتلمس مخرجاً من هذا الحرج ، وسرعان ، ما وجده فى جس السميّط
 وقوله للبائع : منذ كم من الأيام وأنت تبّيع هذا السميّط ! . .
 وإذا بالبائع يرد عليه بصوت عال ليقول : إذا لم تكن قادراً على
 السميّط ، ابحث لك عمّا يتفق ومقامك . . .

وذكر لى صديق آخر أنه كان يمر فى الطريق ، وإذا به يسمع حواراً
 بين صاحب عربة « كارو^(١) » تحمل نسوة رقيقات الحال ، وبين

(١) الكارو عربة يجرها فى الأغلب حمار وتتكون من ألواح خشبية عريضة فوق
 عجلتين . ويجلس على الألواح ركب هذا النوع الذى يعد أقل أنواع المواصلات نفقة
 وقدراً . والاسم إيطالى معرّف .

امرأة تسأله عما يتناوله بين أجر من المنيرة للصليبة . فلما أبلغها أنه يتناول قرشاً صاغاً أجابته بأنها لا تدفع أكثر من نصف قرش ، وإذا به يحث حماره على الإسراع في السير ، ليقول لها وهو مدبر :

« ما دمتم غير قادرين على « الكارو » ما لكم وما لها »

وقد حفلت مصر بشعرائها الظرفاء منذ القرن الخامس عشر ، وبزهم صفي الدين الحلبي وابن نباتة .

وقد جاء من بعدهما شعراء عرفوا بشعراء (وجه البركة) .

وكانت آثارهم الأدبية ، كما سوف نرى ، تتم عن طول باعهم في الشعر ، وجمال تصورهم لما كان يحيط بهم من متع وحياة وارفة الظلال ، تميل أغصانها بثمار المنى ، على مذهبهم .

ولعل المقام يقتضينا أن نذكر أمثلة من شعر صفي الدين ورفيقه ابن نباتة ، قبل أن نخرج على شعراء وجه البركة .

يقول صفي الدين الحلبي في الغزل :

يا ضعيف الجفون أمرضت قلباً كان قبل الهوى قوياً سويّاً
لا تحارب بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان قويا
وله في موضع آخر .

أبت الوصال مخافة الرقباء وأنتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودةً وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحييت بزورها النفوس وطالما ضننت بها فقضت على الأحياء
أمت بليلٍ والنجوم كأنها درُ بياطن خيمة زرقاء
أمت تعاطيني المدام وبيننا عتبٌ غيتُ به عن الصباء

وأبيت غير مسلم من طعننة
ولا بن نباتة هذا النظم الرقيق :
شكوت فما ألوى وقلت فما صغى
طويل التواني ، دله متواتر
أطارحه بالنجسو يوماً تعللاً
ويرفع وصلّى وهو مفعول في الهوى
تفقهت في عشقي له مثل ما غدا
فيا مالكي ما ضرّ لو كنت شافعي
فإني حنيتُ الهوى متحبلاً

نجلأء أو من مقلّة نجلأء
وجدّ بقلبي حبه وهو هازل
مديد التجنى وافر الحسن كامل
فيبدو وفي الإعراب فيه دلائل
وينصب هجرى عامداً وهو فاعل
خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
بوصلك فافعل بي كما أنت فاعل
بعشقتك لا أصغى وإن قال قائل

* * *

نخلص من هذا إلى الشعراء الذين وفوا بشعراء وجه البركة ، واشتهر
شعرهم بلطف المعنى وظرف المبنى .

ولا بأس من ذكر نبذة عن تاريخ وجه البركة ، لنصل منها إلى
شعرائها الذين تأثروا ببيتها وأثرها عليهم .

بعد زوال الدولة الفاطمية ، قبض الله للبركة حوالي عام ١٤٦٠
ميلادية ، أميراً وقائداً شجاعاً ومحارباً مغواراً ، هو الأمير يزبك الخازندار .
وعندما استتب له الأمر في مصر ، فكر في أن يشيد له قصرًا منيفاً ،
يجمع فيه أطراف الترف من طارف وتليد . وقد وقع اختياره على بركة
بطن البقرة ، التي شاء لها الزمن أن تحمل اسمه ، فأصبحت تسمى
بركة الأزبكية .

وما يجدر ذكره ، أن القاهرة في العصور الماضية ، كانت تكثر

فيها البرك ، فكان منها بركة الفيل ، وبركة الرطلى . وبركة الحاج ، وبركة الجيش ، وبركة الأذربكية .

وكان الخليج المصرى يخرق القاهرة ، ومن أجل ذلك كثرت القناطر المقامة عليه ، مثل قنطرة الدكة وقنطرة السباع وقنطرة الليمون ، وقنطرة الحسينية .

وذكر الجبرتي ، فى تأريخه لهذه الحقبة ، الكثير من أحداث ذلك العصر ، وأدباء وشعراء هذه البركة ، التى انتشرت من حولها القصور والمنازل الفخمة التى شيدها ثروة القاهرة وتجارها الكبار أصحاب الجاه والمال العريض .

من ذلك ما ذكره ، من أن عائلة الشرايبي ، كانت تسكن قصرًا منيفاً بناه عميدها فى وجه البركة .

وفى عام ١٧٢٦ شيد قاسم بن محمد داود الشرايبي ، جامع الشرايبي الذى يعرف الآن بجامع البكرى بشارع الرويعى وقد سُمى (جامع البكرى) لأن المجدوب على البكرى قد دُفن فيه عام ١٧٩٢ .

ولم يكن هذا المجدوب يمت لعائلة البكرى المعروفة التى كانت قصورها حول البركة منيفة عامرة ، ولكن انتماؤه للطريقة البكرية ، أكسبه هذا اللقب .

وعندما أتى الجبرتي على ذكره قال : « كان رجلاً من البُلّه ، يمشى بالأسواق ، عرياناً مكشوف الرأس والسواتين ، غائباً » واستطرد الجبرتي ليصل إلى أن أخا هذا المجدوب ، كان فقيراً

لا يكاد يجد قوت يومه ، فعنَّ له أن يحتال على الناس ، عندما رآهم
 يبركون بأخيه ، ويعتقدون في قدرته على الاطلاع على الغيب ، ويشفي
 المرضى ، ويفرج هم المكروب ، فراح يشيع بين الناس أن أخاه أصبح
 قطباً يزار ، وحجزه في داره ، فانهالت عليه الهدايا والندور والأموال ،
 حتى جمع أخوالمجنوب في فترة قصيرة ، أموالاً طائلة من وراء هذه الحيل
 والاحتياال .

ولما مات البكرى المذكور ، دفنه أخوه ، في ضريح يجتمع حوله
 للآن المنشدون الذين يذكرون وينشدون المدائح الشعرية في القطب
 (على البكرى) .

ومما ذكره الجبرتي كذلك في تأريخه لهذا العصر ، أن الشيخ عبد الله
 الشبراوي ، المتوفى عام ١٧٥٥ ، كان من أبرز شعراء وأدباء عصره .
 وقد تولى في أخريات حياته مشيخة الأزهر . وقد شيد قصراً في حي
 الرويعي جمع فيه النادر والثمين وحوى ألوان الترف والبدخ التي عرفها
 الأمراء والأثرياء بفضل ما ورثه من والده .

وكان في ريعان شبابه ، يخرج مع خللانه وأخذانه ، إلى مطارح
 اللهو المنتشرة حول البركة وفي الملاهي العديدة المنبثة في كل ركن من
 أركان حي وجه البركة ، وما تحويه من كل ما يخطر على بال من شراب
 أو مأكـل أو رقص أو لعب ومن متعة مجالسة فائنات هذه الأماكن ،
 حيث لا رقيب أو حسيب .

وقد اندفع مع خللانه ليغترف من هذه المتع قبل أن يمضي الشباب
 ويذبل العمر .

وقد انعكس أمر هذه الحياة على شعر عبد الله الشبراوى الذى شهد
له أهل عصره ومن أتى بعدهم بالرقه والظرف .
انظره فى قوله :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى	وموتى شهيداً فى الصباية مذهب
وأصبر إلى الوجه الجميل إذا بدا	وأهرب من ذكر السلو وأغضب
وعشق القدود الهيف عندى عقيدة	وطبع عليه ، قد رُبيت ومذهب
قضى الله أن الحب أعلى فضيلة	وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

* * *

وإن الذى يعنى النظر فى نظم هذا الشاعر ، يستوقفه حرصه على
ذكر ما يرد عادة فى العبادات من مثل « الدين والشهادة والمذهب والعقيدة
وقضاء الله والفضيلة والنعم » .

فى شعر غزلى ، لا فى تصوف أو ابتهاج ، وكأنما كان يريد أن يشعر
قارئه ، على طريقته ، أن الرجل نشأ فى بيت دين وفضيلة ، غلب ما
يشيع فى البيت من ألفاظ العبادات على نظمه الغزلى ، فى ظرف ناعم
متعمد شديد الذكاء .

وكان فى حياته تلك التى عاشها فى صدر شبابه ، قد وقف قلبه على
أهل الحسن وذوات الفتنة والجمال ، حتى إذا وقعت عينه على إحداهن ،
انصرف إليها ، تاركاً كل ما عداها ، وإذا بالنظرة يعقبها ابتسامة والهوى
ميسر حيناً ، ومتعذر أحياناً ، وهذا شأن الجمال وأهل الجمال .

اسمعه فى وصف اجتماعه بإحدى فائناته :

عانقته فاسودت المقل التى هى بلوتى ، واحمرت الوجنات

وَضُمْتُ قَامَتَهُ فَخَلْتُ كَأَنَّهَا قَدْ عَجَّلَتْ لِدَاتِهَا الْجَنَّاتِ
يَا قَلْبُ إِنْ زَعَمَ الْعَوَازِلُ أَنَّهُ فِي الْحَسَنِ يَوْجِدُ مِثْلَهُ ، قُلْ هَاتُوا
مَا زِلْتُ أَجْنَى مِنْ لَذِيذِ حَدِيثِهِ تَحَفًّا لَهَا مِنْ طَيِّبِهِ نَفْحَاتُ
وَبَلَغْتَ قَصْدِي حِينَ وَافَى طَيْفَهُ لِيَزُورَ مِنْ رَاقَتِ لَهُ الْأَوْقَاتِ
وَدَنَا يُوَدُّعُنِي فَلَا وَأَبِيكَ مَا بَقِيَتْ لَدَى التَّوْدِيْعِ فِي حَيَاةُ

* * *

وَمِنْ أَدْبَاءِ وَشُعْرَاءِ وَجْهِ الْبَرَكَةِ الْمُبَرِّزِينَ ، الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْجَبْرِتِيُّ ،
عِنْدَمَا كَانَ يُؤَرِّخُ لِهَذَا الْعَصْرِ اللَّاهِي ، قَاسِمُ بْنُ عِظَا اللَّهِ الْمَصْرِيُّ ،
الْمُتَوَفَّى عَامَ ١٧٨٥

نَظَّمَ شَعْرًا كَانَ يُسَمَّى فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ ، بِالْمَزْدُوجَاتِ ، وَهُوَ مَقْطَعَاتُ
شَعْرِيَّةٍ ، ذَاتُ جَرَسٍ حَلَوٍ وَسَلَاسَةِ عَذْبَةٍ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ فِي وَصْفِ بَدِيعِ لِحْدَائِقِ بَرَكَةِ الْأَزْبَكِيَّةِ ، وَمَا
بِهَا مِنْ طَيْرٍ وَشَجَرٍ ، وَزَهْرٍ وَجَدَاوِلٍ ، وَرِيَاضٍ وَوُرُودٍ :
حَدِيقَةٌ بِهَا السَّرُورُ مُحْدَقٌ جَدَوَلُهَا مُسَلْسَلٌ مُنْطَلَقُ
فِي جَوْهَا نَجْمُ الزَّهْوَرِ مُشْرِقُ وَبَانُهَا طَوْرًا يَمِيلُ وَيَسْرِقُ
مِنْ وَجَنَةِ الْمَاءِ أَحْمَرَارُ الْوَرْدِ

* * *

بَاكِرُ صَبُوحِ رَوْضَةِ الزَّهْوَرِ فَأُبْرِكُ الْأَشْيَاءَ فِي الْبُكُورِ
وَرِدُّ عَلَى اللَّذَاتِ وَالسَّرُورِ وَاتْرَكَ هَوَى وَسَاوِسَ الصَّدُورِ
فَمَنْهَلُ اللَّذَاتِ عِنْدَ الْمَوْرِدِ

والورق مذعنت على العيدان بين قد ، ماس غصن البان
والآس فوق وجنة النعمان من ذا رأى الجنة في النيران
عجبت للتأليف بين الضد

* * *

وقد وصف الجبرتي حياة ذلك العصر ، بما عرف عنه من دقة وإحاطة
وشمول وغوص وراء أبعد الغايات .

يقول في وصف قصر من قصور الأمير (كتحذا رضوان) المتوفى
عام ١٧٧٥ ، وكان قد شيدته على ضفاف بركة الأذربكية :

« أنشأ قصراً في الأذربكية ، له قبابٌ عجيبة الصنعة ، منقوشة
بالذهب واللازورد ، والزجاج الملون ، والألوان الزاهية ، والصنائع
الدقيقة . وبني قصراً آخر مطلاً على الخليج الناصري وبوسطه بحيرة
تمتلئ بالماء من أعلى ، وينصب منها إلى حوض من أسفل ، ويجرى إلى
البستان في سقي الأشجار .

وبني قصراً آخر بداخل البستان ، مطلاً على الخليج . فكان يتنقل
بين هاتيك القصور ، وبخاصة في أيام النيل » .

وفي مجلس بأحد هذه القصور المظلة على البركة ، وصف الشاعر
قاسم بن عطا الله المصري ، يوماً قضاه مع الأمير وحاشيته من أصدقاء
وندمان وقيان وعازفين ، في قصف وشراب وضحك وإبتهاج :

لله ما أبهى وما أسناها في كأسها كالشمس في مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها من شفّته اللّعلس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

* * *

شعاعها سطا على الندمان - ساوى شجاع القلب بالجبان
ومالت الحمراء فى الميدان بين صفوف صحبة القيان
كأنها من الدما فى بُرد

* * *

مليكة لطيفة المزاج تختال فى برد من الدِّيَّاج
على جوادٍ أشهب الزجاج يبهجة احمرارها الوهَّاج
تحكى خدود قاتلى بالصدِّ

* * *

وكان حى وجه البركة لا ينام . ليله كله حركة وصخب وعربدة وتهتك
وخلاعة ومحون وحشيش وخمر وميسر ونساء من كافة الأجناس . وفى ذلك
يقول الشيخ حسن العطار ، وهو من أدباء وشعراء وجه البركة ، الذين
تأثروا فى أدبهم بما تزخر به هذه البيئة الماجنة .

« يوقد بها كثير من السُّرج والشموع ، فالأنس منها غير مقطوع
ولا ممنوع . وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه
من النشوة مخمور ، ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليال ، هن فى
سبط الأيام من يتيم اللآلى » .

ومما ذكر عن الشيخ الشعرانى أحد هذه العصبة الخليفة ، المتوفى
عام ١٥٦٩ ، قوله الماجن فى صدر شبابه « لابد لكل معصية من عاص » .
وكأنما على غير لقاء مع (راسبوتين) يلتقى معه بالفكر الداعر ويذهب
مذهب (راسبوتين) الذى وضعه ليصل به إلى مبتغاه ، ومفاده « أنه
لا يتأتى لامرئ معرفة الفضيلة ، حتى يقترف الرذيلة » .

وانتشر اللهو والغناء والطرب في ملاهى البركة ، واتصل المغنون بالشعراء ، يلتمسون منهم نظم المقطعات والموشحات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشونه .

وقد استجاب الشعراء لهؤلاء الداعين ، وانتشرت الموشحات والمقطعات والأشعار بين أرباب الفن والغناء . كما ذاعت بين الناس الذين كانوا يحفظونها ويتغنُّون بها في مجالسهم الخاصة وفي أوقات سمرهم .

وكان من أشهر مغنى هذا العصر ، في أوائل القرن التاسع عشر : مصطفى الصيرفى ، وإبراهيم الوراق ، والمقدم ، وحسن قشوة والحبابى . وكان التنافس على أشده بين الصيرفى وحسن قشوة وقد انتصر الشاعر الخشاب للصيرفى ونظم له شعراً كان يتغنَّى به وبتيه بما احتواه من مدح لصوته :

صوت رقيق ولحن حين يُعربه يأتى بما عنه تعيا طاقة البشر
فلو تغنى لميت مات من قدم جرت به الروح جرى الماء فى الشجر

* * *

ومن الشعر الغنائى الذى اشتهر فى ذلك العصر ، وما يزال نابضاً بالحياة إلى هذا العصر ، بفضل ترديده من سيدة الغناء العربى ، منذ أن ترنم صوت بغناء عربى ، السيدة أم كلثوم ، قول الشيخ عبد الله الشبراوى :

وحقك أنت المتى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوّة تحير فى وصفها كل صب
أبيت أسامر نجم السما إذا لاح لى فى الدجى أو غرب

ويعجبني منك حسن القوام ولين الكلام وفرط الأدب
 وكان ملحن هذه الخريدة الخالدة الأستاذ أبو العلا محمد للسيدة
 أم كلثوم .

* * *

ولم يخل ذلك الزمن من بعض أهل الفضل الذين ورد ذكرهم على
 لسان الجبرتي ، وكان شعرهم عفاً وإن كان موقفهم مما حولهم من فجور ،
 لم ينغمسوا فيه ، ولم يحاولوا دفعه أو وقفه ، أشبه بموقف أصحاب الأعراف .
 وكان (دانتى) قد كشف في الكوميديا الإلهية عن أناس لا يستحقون
 عذاب النار ، ولا يستحقون نعيم الجنة .

ويبدو أن (دانتى) تأثر بما تناوله أبو العلاء المعري في كتابه (رسالة
 الغفران) ، عند وصوله إلى أحاديث المعراج وفي قوله : « إن أصحاب
 الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فتجاوزت بهم حسناتهم عن
 النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة » .

وقد وصف الجبرتي أحد هؤلاء الأدباء وهو مصطفى أسعد اللقيمي
 الدمياطي ، المتوفى عام ١٧٥٥ بقوله :
 « أفضل النبلاء ، وأنبأ الفضلاء ، بلبل دوحة الفصاحة ، وغريدها ،
 من انحازت له بدائعها ، طريفها وتليدها .

ومن شعره في وصف حديقة الأذربكية :

وهات لي حديث الأذربكية وما حوت أرواحها الزكية
 يا حبذا معاهد حسان يُغنيك عن وصفي لها العيان

قد حلَّ فيها الزنبق الفتَّان حصابؤها الياقوت والمرجان
فانظر تراها جنة كالخلد

* * *

فكم بها من دوحة أنيقة وروضة أغصانها وريقة
وربوة أنهارها غديقة ومرجة أزهارها عيقة
من نرجس وسوسن وورد

* * *

تزهو بها حدائق الأزهار عن طيب نفح عرفها المعطار
تعيد نشر طيها وتبدي

* * *

هذه المزدوجات التي نأتى على ذكرها ونعيدها على أسماعكم ، إنما
نحرص على إثباتها لما تحتويه من ظرف التناول ، وما تحمله من إشارات
رقيقة ، وأسلوب قصصى بديع ، وشعر خلا من التكلف ، وتبرأ من الملل
والسأم . وهل هناك ما هو أظرف من هذا ؟

شاع الفجور حول البركة ، حتى لم يكن هناك موضع قدم لفسق
جديد . وأقبل أبناء الموسرين ، وتبعهم متوسطو الحال على ملاهى ومراقص
وملاعب وجه البركة وحاناتها . وأضاعوا ثرواتهم وصحتهم ومستقبلهم .
وغدوا فوق الفقر مرضى .

وكم بيعت ضياع وقصور ومتاجر بضمن بنحس ، للحاق بقطار اللذات ،
الذى يتطلب الكثير الغزير من الوسائل والمال ، والقليل الأقل من العقل
والحجا .

وتلقفت هذه الثروات موائد الميسر وجماعات الرقص ، الأمر الذى ارتفعت معه أصوات الكتاب والمفكرين والمصلحين وراحوا يطالبون الحكومة بالعلاج والإصلاح ، إلا أن الامتيازات الأجنبية كانت تغل يد الحكومة عن إتيان أى إصلاح ، بحكم مراعاة الصالح الأجنبي الذى من أجله قامت الامتيازات ، ومن أجله أنشئت المحاكم المختلطة ومن أجلهما قام الاستعمار لحمايتهما .

ولقد كان شاعركم الكبير وشاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم فى طليعة من ندّدوا بشعرهم ، بهذا الحال المفجع ، عندما قال مخاطباً الأذربكية :
 كم وارت غصّ الشباب رميته بگرام راقصة وحب هلك
 ألبسته الثوبين فى حالهما تيه الغنى وذلة المفلوك
 وفى موضع آخر يقول :

يقولون فى النشء خير لنا وللنشء شر من الأجنبي
 أفى الأذربكية مثوى البنين ! وبين المساجد مثوى الأب ؟

* * *

ولم يصدر إلا فى عام ١٩٤٩ الأمر القاضى بإلغاء البغاء .
 وعند ذلك فقط ، جدّت الحكومة فى غلق أمكنة الدعارة ومطاردة القوادين والمفسدين ، وعاد الحى مُبرئاً من كل فساد ، وشغل مبانیه القديمة ، أصحاب الصناعات والتجارة والحرف ، وأصبح من أنشطه الأحياء فى الصناعات الصغيرة وبيع بضائع الطبقات الوسطى .
 وقد أورد على مبارك باشا فى خططه إحصائية عن عدد المقاهى والخمارات بخلاف بيع البوظة ، فكان فى وجه البركة ٢٥٢ مقهى ، ٢٢٨

خمارة ، ١٥ محلا للبوطة . وهذا يعادل كل ما كان في القاهرة عام ١٨٨٠ من خمارات ومقاه .

* * *

يتوقف المؤرخ الأعظم للشعر الفكاهى قليلا ، ليستجمع شوارد ذكرياته ، وهنا ، استأذن أحد المستمعين ، الأستاذ المؤرخ ، فى سؤاله عن السر فى انفراد الشعر العربى إلى حد بعيد وتميزه بالقدرة على استخدام السخرية والتهكم والتنديد ، وهنا أضاف المؤرخ مكملًا قول السائل ، بل على الشعر الكاريكاتيرى الذى لم يسبقهم إليه سابق ، حتى لكأنك تشاهد أمامك صورة متحركة ، نابضة بالحياة والمجون والفكاهة .

انظر إلى ابن الرومى وهو يصف قزماً بصندوق صدرى (أتب) .

قصرت أقاذعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صُفعت قفاه مرةً وأحس ثانية لها فتجمعا

وصورة أخرى لعمر بن أبى ربيعة يقول فيها :

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

وراح المؤرخ يزيد الأمر وضوحاً بقوله :

لقد ميّز الله العرب بالأديان والشعر . وميّر مصر وروما بالمعمار والنحت ، وميّر اليونان بالحكمة والفلسفة ، وميّر الألمان بالأوبرات والسيمفونيات ، كما ميّز أوروبا الصناعية قديماً . . بالاستعمار والاحتلال . . حتى لقد كانت كلمة الاستعمار لا تذكر إلا وعدا وراءها الوعى واستحضر إلى جانبها عالم الغرب .

والعرب أهل سخرية تجرى على ألسنتهم فى شعر كان ذلك أو فى

نثر . وهم أئمة الهجاء والتهكم والسخرية التي تملأ محلدات إن أردنا لها ذكراً
أو تمثيلاً . وهم على هذا الحال في حال يسر أو عسر . انظر إلى قول
جحظة البرمكي في أخريات حياته :

يطول على الليل حتى أمْلُهُ فأجلس والنوَّام في غفلةٍ عني
فلا أنا بالراضى من الدهر فعله ولا الدهر يرضى بالذى ناله مني

* * *

وربما كان مرجع ذلك إلى ما كانوا عليه في بداوتهم من رزق محدود ،
وشطف بغير حدود ، فأطلقوا ألسنتهم بالتهكم والسخرية . وم يخافون !
والمفلس يغلب السلطان .

وعلى الرغم مما كانت عليه بداوتهم من خشونة في العيش ، وندرة
فيما حولهم مما يوصف ، فقد أتوا بالعجب العجائب في وصف أى شيء يقع
عليه نظرهم ، في قصائد ومعلقات طوال ، بارعة العرض ، عميقة الفكر
والتحليل . وقد يكون الموصوف نخلة أو ناقة أو أطلالا دارسة ، ولكنك
سوف تجد في السرد وفي الوصف وفي التأمل وفي الظرف ، نواة للدراما
أو عرضاً مسرحياً . نجترى لنعرض إلى مشهد الأعرابي الذي اعترض طريقه
أسد هصور وكان هو يركب حصاناً تقاعس عندما رأى الأسد ، فراح
الأعرابي يصف موقعته مع الأسد كما لو كانت مشهداً يستحضره إليه
لتراه رأى العين مع أخته :

أفاطم لو شهدت يبطن خبي وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذن لرأيت ليشاً أم ليشاً هزبراً أغلباً لاقى هزبراً
وأخذ يُعد حصانه للهجوم عليه ، ولكن حصانه جفل وجبن وتقاعس ،

فراح الأعرابي يقول :

أَنِلَ قَدَمِيَّ ظَهَرَ الْأَرْضَ إِنِّي رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا
وَتَنَتْنَى الدَّرَامَا ، بِاسْتِشْهَادِ الْأَسَدِ وَفُوزِ الْأَعْرَابِيِّ .

وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْغَرْبِ قَدْ بَزُّوا الْعَرَبَ فِي مِيَادِينِ التَّمْثِيلِ وَالْمَسْرَحِ
بِأَنْوَاعِهِ ، فَإِنَّ مِنْ أَسْبَابِ تَأَخُّرِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ ، خَشَوْنَةُ النِّشْأَةِ ، وَصُعُوبَةُ
الْعَيْشِ فِي مَحِيطٍ وَبَيْئَةٍ تَصْعَبُ فِيهَا الْحَصُولُ عَلَى مَطَالِبِ الْحَيَاةِ ،
وَصُعُوبَةُ التَّنَاقُصِ مَعَ مَحِيطٍ كُلِّ مَا فِيهِ عَدُوٌّ لَهُمْ ، بَدْءًا بِعَصْفِ الرِّيحِ
الْهُوجِ ، وَخَتَامًا بِعَطَشٍ لَا هَبَّ لَا يَرْحَمُ ، وَكَرُوفَرِيْنِهِمَا بِلَا نِهَايَةٍ .

وَبِرْغَمِ ذَلِكَ تَنَاقَصُوا مَعَ هَذَا الْمَحِيطِ وَأَتَوْا بِالْعَجَبِ فِيمَا تَرَكَوهُ مِنْ
آثَارِ ، فَلَمَّا تَزَحُّوا إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ بَعْدِهَا إِلَى أَوْرَبَا ، أَثَارُوا دَهْشَةَ
الْعَالَمِ حَتَّى الْيَوْمِ ، بِمَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَفَنٍّ وَمَعْمَارٍ وَمُوسِيقَى وَأَدَبٍ
وَشَعْرٍ وَفَلَسْفَةٍ وَطَبِّ وَجِرَاحَةٍ ، أَخَذَهَا عَنْهُمْ الْغَرْبُ وَأَزْدَهَى بِهَا ، وَعَاشَ
عَلَيْهَا قَرُونًا ، كَانَ الْغَرْبُ فِيهَا عَالَةً عَلَى عُلُومِ الْعَرَبِ وَفَنُونِهِمْ .

* * *

وَلَعَلَّنَا إِذَا أَلَمْنَا إِمَامَةً عَاجِلَةً ، بِقَطْبَيْنِ مِنْ أَقْطَابِ الْمَجُونِ ، مِنْ شِعْرَاءِ
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، هُمَا أَبُو نَوَاسٍ الَّذِي وَلَدَ عِنْدَ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
وَحَمَّادَ عَجْرَدَ الَّذِي شَهِدَ الدَّوْلَتَيْنِ وَارْتَفَعَ ذِكْرُهُ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
نَكُونُ قَدْ عَرَضْنَا نَمُودَجًا بَارِزًا يَغْنِي عَنْ أَخْبَارِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ مَلَأُوا
بِمَجُونِهِمْ صَفَحَاتِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، حَتَّى إِنَّا إِذَا شَتْنَا أَنْ نَجْمَعَ جَانِبًا مِمَّا
قَالُوا ، لَاحْتِجْنَا إِلَى مَجْلَدٍ فِي حَجْمِ دَلِيلِ تَلَيْفُونَاتِ الْقَاهِرَةِ عَامِ ٢٠٠٠ .
وَأَبُونَوَاسٍ ، الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ يُعَدُّ إِمَامَ الْعَابَثِينَ الْمَاجِنِينَ .

وعندما قدم الكوفة ، تفتقت شاعريته الباكرة ، عندما أحب فتاة صغيرة هي التي قال فيها قصيدته الغزلية الرقيقة :

حامل الهوى تعبُ يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعبُ
تعجيب من سقمى ! صحتى هي العجبُ

ثم راح يتردد في البصرة على حلقات الدرس والتحصيل والعلم واللغة والرواية حتى حذق كل ما كان يجلس لسماعه . ولم يكن يفوته منها حلقة . وعندما دخلت الجارية جنان حياته ، برزت فيه ملكة الشعر الغزلي والوجداني والفلسفي والصوفي كذلك كأنما انفتحت على وجهها كنوزه .

وكانت حلوة ناعمة ، أدبية ذكية . وحدث أن رآها مرة ، ولم تكن تظهر سافرة ، وإنما كانت تتحجّب ، نقول رآها وهي تبكى وتلطم خديها حزناً على موت بعض ساداتها ، وكان يرقب المنظر من بعيد ، فقال :

يا قمراً أبرزه ماتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيدرى الدر من نرجس ويلطم السورد بعناب
لا تبك ميتاً خلّ في حفرة وابك قتيلاً لك بالباب

ويوم أن خرجت جنان للحج في ركاب سيدتها ، لم يستطع صبراً على فراقها ، فلحق بها . وعندما دنا مأخوذاً بقدسية الكعبة ، تملكته رهبة المكان المقدس ، وهو الزنديق العابث الفاسق ، فانخرط في بكاء صادق ، لعل الغفران يحل به والعفو يناله ، وراح ينظم ابتهاً لا ما يزال يسمع ويتغنى به الناس حتى هذه الأيام :

إلهنا ما أعدلكُ ملك كل من ملكُ
 ليك قد لييت لكُ وكل من أهل لكُ
 ليك إن الحمد لكُ والملك لا شريك لكُ
 يا غافلاً ما أغفلكُ عجل وبادر أجلكُ
 ليك إن العز لكُ والحمد والنعمة لكُ

* * *

أما قصة استغفاره وتوبته وابتهاله ، فقد نفذ إلى صميم حقيقتها كاتبكم الكبير دكتور حسين هيكل عندما قال عن هذا الحدث ، قول طيب نفساني ، يتعمق الظواهر ، ليصل إلى المكنون : « لا تقل إن الازدواج النفسى شأن الشعراء . وإن أبا نواس الذى كان يقول :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
 ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
 هو أبو نواس الذى كان يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت

له عن عدو فى ثياب صديق

فليس هذا من أبى نواس ازدواجاً فى الروح . وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدها اللذة فأضعفتها ، فأخافها الضعف ، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد ، وإلى استغفار الله والتوبة إليه . لذلك لا تلبث نفسه إذ تحاورها القوة ، حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة .

* * *

أما حماد عجرد فقد عاش خلال الدولتين الأموية والعباسية وكان

نديم ابن يزيد الأموي . واشتهر في الدولة العباسية .
 وقامت بين حماد وبشار بن برد مهاجاة لا تهدأ ولا تستقر . وكان
 ما بينهما من هجاء ، لو تفرغ له باحث لأخرج مجلداً ضخماً ،
 لا أقول يسر القارئ ، ولكن أقول ، يسر الهجائيين الذين يفتخرون
 بأنفسهم لهذه القطيعة ، مثلما ينتسب الرّسامون إلى مدارس بعينها ،
 فهذا كلاسيكي وهذا تأثيري وهذا سيريالي وهذا واقعي .
 ومن أقذع ما هجا به حماد ، بشاراً ، قوله :

وأعجمي يشبه القرد إذا ما عمى القرد
 ويروون أن بشاراً أبكاه هذا القول أكثر من كل هجاء سبقه ،
 ولما سأله عن بكائه أجاب ، وفي إجابته سخرية مرّة لاذعة : يراني فيصفني ،
 وأنا لا أراه حتى أصفه . . .
 وتروى رواية أن بشاراً بلغه موت حماد عندما اشتدت عليه علته
 فقال :

لو عاش حماد لهونا به لكنه صار إلى النار
 وعندما سمع حماد هذا البيت قال :
 نبشت : بشار نعاني وللشعر يراني الخالق الباري
 يا ليتني مت ولم أهجّه نعم ، ولو صرت إلى النار
 وأي خزي هو أخزي من أن يقال لي : يا سابّ بشار
 ومن عجيب أمر نهايتهما أنهما اشتركا في قبرين متجاورين ،
 بعد أن مات حماد بعلة ومات بشار مقتولاً . ولما مر على قبريهما شاعر
 بصرى ، هو هشام الباهلي قال :

قد تبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين في دار
 قالت بقاع الأرض لا مرحباً بقرب حمّاد وبشّار
 تجاوزا بعد تجسّفيهما ما أبغض الجار إلى الجار
 صاراً جميعاً في يدى مالك في النار والفاسق في النار

* * *

وماذا أقول عن شاعر العروبة شوقي . إن كل ما تقرأه له ظريف
 يعبق باللفظ والطرافة والجِدَّة . . ولو شاء أن يكتب شيئاً لا ظرف فيه
 لا ستعصى عليه ما أراد . إنه رسول الحياة .
 وهو يجمع ثلاث صور في نفس واحدة . إنه شاعر نهج البردة الذي
 قال :

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم
 إلى أن يناجي رسول الله بقوله في نبواه الطاهرة :
 سَرَتْ بِشَائِرِ الْهَادِي وَمَوْلَدِهِ

في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم
 أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
 إلا على صنم قد هام في صنم
 وهو نفسه ، رسول الحياة وترجمان ما بها من متع ولذائذ ، والداعي
 لما تشاقه النفس من هذا النعيم قبل أن يولي العمر ، ويدبل الشجر
 ويدوى الزهر . وهو يقول في حلبة رقص وفي كأس :
 حفّ كأسها الحبيب فهي فضنة ذهب
 ثم يهرب من واقع ما يأمر به الدين فيفرع إلى المتعة :

رمضان وليّ هاتها ياساقى مشتاقه تسعى إلى مشتاق
ثم تراه فى صورة ثالثة ، كالروح الشفيفة التى ترفُّ ومملاً الحياة
مجوناً لطيفاً ، كأنه رفيف الفراشة أو نسمة الربيع .
فتراه يصف ذقن دكتور محجوب ثابت التى أوت إليها البراغيث
كملجأ تخرج منه فى سبيل العمل والسعى فى طلب الرزق من الغير .
براغيث محجوب لم أنسها ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربى وتنفذ فى اللحم والأعظم
بواكير تطلع قبل الشتاء وترفع ألوية الموسم
وقال مرة على لسان محجوب شعراً هو ترجمة للمثل الشعبى
« يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة »

أيشتمنى سليمان بن فوزى
(وپاپي) فى يدى ومعى (طبائى)
بقارعة الطريق ينال منى
ويوسعنى عناقاً فى الزقاق
وذلك عندما اختلف سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول مع
محجوب ثابت .

وعندما استبدل دكتور محجوب ثابت عربته وجواده الذى كان
يسميه (مكستوينى) نسبة إلى محافظ (دبلن) عند إضراب أيرلندا
مدى عام للحصول على استقلالها ، وكناية إلى ضعفه وهزاله ، استبدل
هذه العربة وجوادها بسيارة (أو فرلاند) قال شوقى قصيدته الشهيرة
لكم فى الخطّ سيارة حديث الجار والجارة

وقد تحزن أحياناً وتمشي وحدها تاره
ولا تشبهها عين من البترين فواره
إلى أن يقول وقد عاودته الحكمة :

أدنيا الخيل يا (مكسي) كدنيا ، الناس غداً
لقد أبدلك الدهر من الإقبال إدباره
فصبراً يا أخا الخيل فنفس الحر صباره
وكان شوقي رحمه الله قمة في كل ما نظم ، والنبع الصافي لا يتغير
صفاءه . من حيث تفجرت عين مائه ، أو حيث يستقر في الوادي تجده
كاللجين .

أما شيخ شعرائكم في مصر ، وهو إسماعيل صبرى باشا ، فقد كان
على شاكلة شوقي في ظرف نظمه ، وصدق حسه ، ورقة خياله . وإنه
ليعيك أن تجد شعراً نبت في باطن الكف ، مثلما يعيك أن تجد شعراً
لهذين الإمامين خلا من الظرف والطرافة وحلو الرنين .
يقول إسماعيل صبرى ، عندما سقطت وزارة حشمت عن صدر
الشعب عام ١٩٠٨ بعد سنوات أعانت فيها المستعمر على ما يريد :

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن
مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ الصقت نفسك بالثرى
وحرمت - خوف العزل - ما لم يُحرّم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة
على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

وقال يعتب على صديق يتوب عن شرب الخمر ثم يعود إليها :
 في كل يوم عندكم دم كرمة
 لك توبة من توبة من سفكه
 والصدق من شيم الكرام فقل لنا
 أمن الشراب تتوب أم من تركه !
 وكان يؤثر. الكاتبة الكبيرة الآنسة مى بالتقدير والإعجاب .
 وكانت هي أهل لأكثر من ذلك .
 وقد كانت موضع رعاية واهتمام الأئمة من الكتاب والشعراء ورجال
 الصحافة ، عند بداية القرن العشرين .
 وكانوا يكتبون إليها ، وتكتب إليهم ، على بساط من الطهر ممدود ،
 من أجل استشارة كوامن الشعر والأدب .
 نظم لها إسماعيل صبرى هذه الأبيات :
 أهاجرتى أطفئى ، لسواعج لا تنهى
 مضت في هواك السنون ، وما نلت ما أشتى
 إذا قيل مات الأديب بفاتنة ، أنت هي .
 فلما بلغت الرقعة كتبت تحتها :

زمانك قبلى انتهى ولا يرجع المنتهى
 فحسبى أن أزدهى وحسبك أن تشتهى

* * *

النيل وشاعره جديران أحدهما بالآخر . كل منهما فياض على
 على طريقته . هذا بالماء والخيرات ، وذاك بالشعر والحسرات .

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما

وعُدت وما أعقبت إلا التندُّ ما

ولم يكن حافظ يضمن شعره ما كان يجول في خواطره وحواشي نفسه
من أخيلة مجونية اشتهر بها في مجالسه ، ابتعاداً بشعره من أن يترخصه
غير عالم ولا بصير .

ولقد كان له ذوق بارع في اختراع النكتة وإدراك موضع الفكاهة
في أي حديث أمامه ، فيلتقط الخيط ويسير في اتجاهه الضاحك .

وكان في مجالسه موضع الإعجاب ومنبع السرور . وهو ممن يرسل
النكتة من بديهة حاضرة ، فتستخف الوقور ، وتستهي الرزين ، على
عكس ما يُعطيك شعره من صور جادة صادقة عبوس .

ولو قد أتيح له أن يدخل صوراً من فكاهته في شعره ، لربح الأدب
والشعر المجونى من ذلك ربحاً وفيراً .

ولكن كان يُغلب على أمره إذا تعرّض لما لا بد منه من فكاهة في
مناسبة أو موضع ، وهنا تبرز موهبته الخارقة في النكتة التي تستخرج
أعمق الضحك من أكثر الناس وقاراً .

ففي حفل تكريم للشاعر الكبير حفنى ناصف بك بمناسبة انتقاله
من القضاء إلى التفتيش بنظارة المعارف ، تجد مواضع في قصيدته ،
تبتعث الضحك الذي تدمع منه العينان .

يا يوم تكريم حفنى أرهقت للقول ذهني
فيا قريض أجبنى ويا ييسان أعنى

إلى أن يقول :

فكل رب يسراع
إن قال شعراً فراح
أو قال نثراً فروح
إلى أن يصل إلى :

لولا الحياء ولولا
لقمت في يوم (حفي)
ويعمضي ليقول :

أقول هذا وإني
فإن غدوت وزيراً
فلا تكن ذا حجاب
ولا تقل من غرور . يا أيها الناس إني

ثم يأخذني التذكير بأمر حدث لهما وأصبح مما ترويه أحاديث
الأدب . ذلك أنه لما توفي الشيخ محمد عبده ، وقف على قبره يوم تأبينه ،
سته من الخطباء هم على الترتيب التالي : الشيخ أبو خطوة ، وحسن
عاصم باشا ، وحسن عبد الرازق باشا وقاسم أمين بك ، وحفي ناصف بك ،
وحافظ إبراهيم بك .

وقد مات الأربعة الأولون ، واحداً في إثر سابقه ، وعلى نفس
ترتيب أصحاب كلمات التأين . وجاءت النوبة على حفي بك ،
وكان قد بعث إلى حافظ بآيات يذكره فيها بالموت ، ويدعوه إلى
الاستعداد له ، إذا نزلت به المنية .

وقد تذكر حافظ عندما وصل إلى الحد الذي ذكرناه آنفاً ، تذكر
هذه الحادثة ، فرأى أن ينبه إليها ذهن المحتفى به فراح يقول له :

أخشى عليك المنايا حتى كأنك مني
إذا سكوتَ صداعاً أطلت تسهيد جفني
وإن عراك هُزال هياتُ لحدي وقطني
وإن دعوتُ لحي يوماً فإياك أعني
عمري بعمرك رهن فَعِشْ أَعِشْ ألف قرن
وليس على الله بمسكثر أن يجمع العالم في واحد

ذلكم هو حفي ناصف القاضي المرابي العالم اللغوي الشاعر الكاتب
الأديب الخطيب الفكه ، السادن للغة العربية ومتمنها وشرحها ، ونحوها
وصرفها . أو الوصية به ، شأن غيره من المثريين :

أتمضي معي إن حان حيني تجاربي
وما نلتها إلا بطول عناء
ويخزني ألا أرى لي حيلةً

لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورث المثلون أبناءهم غني
وجاهاً فما أشقى بني الحكماء

ولقد أطلنا الحديث عن شعراء المجون منذ زمان بعيد ، إلى زمان قريب ،
ولولا أنني أرى على الأفق شواطئ الأرض الإيطالية تبدو مؤذنة بانتهاء هذه
المرحلة ، لأطلت ، وخاصة في ذكر الطيب من أقوال وأشعار الشاعر
العالم الفيلسوف حفي ناصف بك .

وأختتم ببعض ما أثر عنه :

فقد قال عندما نقل وهو في القضاء إلى مديرية قنا ، وجوهاً على ما هو معروف قائل لا هب ، قال : إن اسمها مشتق من الآية الكريمة « وقنا عذاب النار » .

ولكنه يستدرك بسرعة بديهية غلاظة ، حتى لا يغضب أهل قنا .
نكان يقول ، عن شهرتها في عالم صنع الأواني الفخارية ، إن أى جرة من الفخار أو قلة تشرف بين الناس لانتائها إلى قنا ، ثم يزيد :
ويكفى أن يُقال قنا لتقنى

وأنجبت مصر من شعراء الفكاهة محمد الأسمر وحسين شفيق المصرى وعبد الحميد الديب والعقاد (وإبراهيم ناجى ومحمود غنيم)
وكان بينهما مثل ما كان بين بشار وعجود . والمحال يطول والنهاية اقتربت .
قام المؤرخ الأعظم للشعر ، ليستعد للهبوط إلى ميناء تريستا التى يغادرها إلى (فيرونا) وفق ما اتفق عليه مع جامعة المدينة العتيقة التى شهدت أحداث روميو وجوليت ، ليلقى محاضراته عن هذه المأساة ومقارنتها بمأساة مجنون ليلى .

وقد شكرنا له ما أفدنا منه ودعا لنا بالتوفيق وسمعناه يُردد قول ابن حزم الأندلسى :

لم يستقر به دارٌ ولا وطن
ولا تدفأ منه قط موضعه
كأنما صيغ من بعض السحاب فما
تزال ريحٌ إلى الآفاق تدفعه

الفصل السادس

أدب الفكاهة في الرسم عند الرسّامين

هبط المؤرخ الكبير ميناء تريستا مع الهابطين ، ومضى لغايته نحو الأديج الأعلى الذى تقع فيه مدينة فيرونا .

وهبطنا نحن للقيام بجولة فى الميناء الذى تقسمه يوجوسلافيا مع إيطاليا ، فى عالم وزمن تميزا بانقسام الكل إلى قسمين أو أكثر مثل كوريا والصين وفيتنام وألمانيا والكونجو واليمن .

ثم ترك تريستا الى (فينيسيا) لمشاهدة شوارعها المائية التى تجد بينها أزقة مثلما هو الحال فى طرق المدن ، وأضل سيلا . . .

كما سوف نشاهد أو نستقل ، من باب التذكار ، واحداً من (جناديلها) إن صح هذا الجمع . وكم وددت ألا يرى الجندول ، كل من رسم له فى خياله صورة ترتفع به إلى عربة (ساندريلا) ، من ابتكار (والت ديزنى) أو فى القليل عربة زينب هانم التى كانوا يؤجرونها للعرائس فى العهد الخديوى .

لون الجندول المعروف بسواده الحالك ، يقبض الصدر ويدفع الفكر إلى الغراب النوحى وسواد شعره الفاحم ونحسه القائم . . . ولا جمال فيه إلا فى أخيلة العشاق وشعراتهم الغادين ، الذين يهيمنون

بهم وبعقولهم كل هيام ، ويعصبون أعينهم برقيق نظمهم الذى يحجب عنهم حقائق الملموس ، وقسوة الواقع .

والملاح الشادى الذى يجدف بالعشاق وهو يغنى ، إنما هو طير يرقص مذبوحاً من الألم ، فى ملابس تقليدية ، تبدو فى الأفلام أنيقة برّاقة ، ولا يسعد بها إلا لحظة التصوير ، ثم تعود إلى مخازن الشركة المنتجة للفيلم ، ويعود هو إلى ارتداء بزّته التقليدية التى بليت من فرط الاستعمال وارتفاع نفقات المعيشة فيما حوله ارتفاعاً لا يسمح له بأن يتناول فى غذائه أكثر من رغيف أسمر كبير ، يغمسه فى دفعات من نبيذ أحمر ، صبيّ فى إناء من صفيح ، هو زاده خلال عمله الخيالى الذى عشنش فى أخيلة المحبين . وله فى العشاء (سباجيتى ساخنة) .

عدت مع صحبى بعد جولتنا السريعة إلى باخرتنا التى كانت ستقلع بنا إلى مارسيليا ثغر فرنسا الكبير ، الذى اشتهر بماريوس أو اشتهر ماريوس به ، حتى لا يذكر أحدهما حتى يرد على الخاطر ذكر الآخر . والفكاهات التى أجراها الفرنسيون على لسان ماريوس ، تشبه فكاهات جحا فى الأدب العربى ونحوه نصر الدين فى تركيا .

من ذلك ما رواه من حكاية مفادها أن أحد أصدقائه الباريسيين ، كان على موعد مع فتاته أمام صيدلية معينة . وكان الشتاء على أشده فى شهر يناير ، والثلج قد جمّد كل شىء حتى كاد يجمّد الأنفاس .

وكان صاحب الصيدلية يضع بارومتراً لقياس حرارة الطقس على جدار مُعرّضٍ لتقلبات الجو ، حتى يكون تحرك مؤشره طبقاً لمقتضى الجو

وقد رأى العاشق أن مؤشر البارومتر قد وصل إلى درجة عشرة تحت الصفر . وطال انتظاره وهو يمشى ذهاباً وجيئة استجلاباً لبعض الدفء ، وقد دس كفيه في قفاز شاموا ، واختفى قفاه وراء ياقة المعطف والتفت حول رقبته شال صوف (أنجورا) ، وعلى أذنيه واقية من جلد سميك وأصبح كالقواقع التي لا يبين من هيكلها الصدفي إلا رأسها أو جزء منه تخرجه إذا اطمأنت لما حولها .

ولما طال الوقوف بالعاشق ، قال بينه وبين نفسه : سأنتظر حتى تصل البرودة إلى خمسة عشر تحت الصفر ، فإذا لم تحضر (چانيت) فسوف أنصرف . . .

* * *

غادرنا ميناء مارسيليا إلى محطة السكة الحديدية لنسافر إلى باريس في قطار المساء الذي يصل باريس في ساعة مبكرة من الصباح التالي . وعندما خلوت إلى نفسي في مقصورة النوم الخاصة بي ، كان الإرهاق قد أخذ مني مأخذه ، فما إن لامست رأسي وسادة الفراش ، حتى رأيتني مستغرقاً في نوم ، بغالبتني فيه أحلامٌ ، كنت أستمع من خلالها إلى صوت عميق هادئ ، ينساب كالنغم الشجي الذي ملك على كل حواسي ، ولقيتني أستمع إليه في اهتمام ومتابعة وإعجاب وهو يقول :

الكاريكاتير من فنون الرسم ، كالشعر من فنون القول ، فيه بلاغة وبيان وبديع ، تستسيغه حواس النظر والفهم والذوق ، وتحفظ به لتردده وقتما تشاء .

وإذا كان الشعر هو الرقص ، والنثر هو السير ، فإن الكاريكاتير

رقص باليه ، لأن الرمز يجمع بين الفنين .
 ولن تجد رسماً كاريكاتورياً لا يبعث على الضحك .
 فالضحك مادته التي يستعين بها على الوصول إلى هدفه من نقد
 وإصلاح وتقويم اعوجاج ، مثلما هو الحال مع النكتة التي تتخذ من
 الضحك وسيلة لتحقيق مأربها في هذه الوجوه .

والنكتة قولاً أو رسماً ، إنما تنبع من وراء كبت ثور عليه بالكلمة
 أو بالصورة للتنفيس عن ضغط هابط ، أو حكم جائر ، يعاني وقعهما
 شعب يقول النكتة اللاذعة ، ويرسم الصورة العميقة الأثر التي تأتي
 في حيز ضيق ، بما لا يستطيعه كتاب .

أما عن الكلمة ، فيمكن أن نذكر ما أورده (بيكاسو) عندما
 كانوا يحتفلون ببلوغه سن الثمانين ، ودهشة البعض من نشاطه وحيويته
 في هذه السن فأجاب بيكاسو :
 الأمر في غاية البساطة . . . فأنا لم أشرب نقطة من الخمر ،
 أو أدخن سيجارة أو أعرف امرأة ، أو أسهر . . . قبل أن أبلغ العاشرة
 من عمري . . .

وأما عن الصورة الكاريكاتورية ، فقد حدث أن اختفى اللبن في
 إحدى المدن ، ولم يكن من السهل العثور عليه إلا بأعلى الأثمان ،
 بسبب المستغلين ، وضعف الرقابة .

وقد رأى رسّام كاريكاتوري الفرصة سانحة ، ليسخر من المشرفين
 على توزيع هذا الغذاء الحيوى وخصوصاً للأطفال فعمد إلى رسم أطفال

يقفون في حلقة وهم يقولون :

« يعملوها الكبار ، ويقعوا فيها الصغار »

.

والرسم الكاريكاتورى يمكن وصفه بأنه الجزء الذى يجمع فى كيانه خصائص الكل . وهو التعبير الذكى ، والإيماءة البارعة ، والفجر الذى لا يطيل فى إقامته ، فهو بعد أن يشرق ، يدع للنهار مكانه بعد أن أدّى ما عليه . أو هو كالهلال الذى ييزغ ثم لا يلبث أن يغيب تاركاً مكانه للدورة القمرية .

والكاريكاتير ، كلما أمعنت النظر فى أهدافه أو هواتفه ودواعيه ، وجدته دعابة غير مخلوعة العذار ، وعلى قدر كبير من التهذيب الراقى . وقد تصيب النكتة رجلاً فترديه ، لما تضمنته من فحش فى القول وبذاءة فى الألفاظ ، وإيلام جارح دون أن يكون من ورائها نفع أو جدوى للمجموع .

وليس الحال كذلك بالنسبة للكاريكاتير ، لأنه لا يهاجم فرداً ، إلا إذا كان حاكماً خرج عن جادة العدل ، وهو بإصلاحه إنما يسعى إلى إصلاح حال يعود الخير من ورائه على المجموع . وكثيراً ما يكون الكاريكاتير عميقاً فى فهم مؤداه ، كما لا يكون من اليسير تبين غوره .

وإنك إذا نظرت إلى الحصى اللامع فى قاع النهر ، أو السمك السابح فى مجراه ، ظننت أنه قريب من متناول يدك ، بفعل خداع انكسار الضوء فى الماء .

وكثيراً ما يصادفك شعر يحتوى على شحنة قوية من الكاريكاتير .

انظر إلى أبي نواس وهو يصف بخل شحيح اشتهر بتقتيره الشديد .

قال يصفه في هذا الشعر الكاريكاتيرى :

يُقَرَّ عيسى على نفسه وليس يباقي ولا خالد

ولو يستطيع بتقتيره تنفّس من منخر واحد

ولصلاح جاهين ولع شديد بهذا الشعر الكاريكاتيرى الذى تراه

في شعره الشعبى أكثر مما تراه في صورته .

لقد أراد أن يصور الشرور التى تحيط بالعالم ، حتى تكاد أن

تتفرقه دون ما أمل في إنقاذ أو نجاة كما نجا نوح :

استمع إليه في هذه الرباعية الكاريكاتيرية :

نوح راح لحاله والظوفان استمر

مركبنا تايه لسه مش لاقى له بر

آه من الطوفان وآهين يا برّ الأمان

ازاى تبان والدنيا غرقانه شر

عجبي

* * *

ويقولون إن كلمة (كاريكاتير) مشتقة من اللغة اللاتينية .

وتشير إلى معنى من يحمل شيئاً Carrier .

ثم تطورت إلى أن استعملها الإيطاليون بمعنى القيام بعمل ، من

فعل Caricare .

وقبل في التدليل على ذلك إن القائم بالأعمال - فى السلك الدبلوماسى -

يطلقون عليه باللغة الإيطالية ، اسم Caricato d'affare بمعنى أنه يقوم بعمل أحد في حال غيابه

ومن ذلك يبدو أن الصورة الكاريكاتيرية ، طبقاً لهذا المفهوم ، تعنى أنها تحل محل الصورة الأصلية ، لا بصورة كاملة ، ولكن على وجه قريب من الوجه الأكمل . وهذا هو الحادث بالنسبة للصورة الأصلية والصورة الكاريكاتيرية .

وكان لابد من احتوائها على عنصر المبالغة ، حتى تصل إلى هدفها من التهكم والسخرية . فإذا كان صاحب الصورة ذا أنف يطول قليلاً عن الأنف الطبيعي ، ركّز الكاريكاتيرست على حجم الأنف ، وبالغ في تكوينه مبالغة تحمل على الضحك منه والهزاء به . وقل المثل في السياسة والاجتماع .

* * *

لقد بدا لي أن إمكانيات النفس ليست مقصورة على منطقة الشعور ، وإنما تكمن وراء هذه المنطقة ، قوة أخرى تعمل بطريقة ما ، وبكيفية لا يشعر بها الإنسان ، ولا يدري من أمرها شيئاً ، حتى جاء « سيجموند فرويد » وأطلق على هذه القوة المخفية اسم (اللاشعور) .

ويبدو أن هذا هو الذي حدث لي ، عندما استغرقت في النوم ، ومرّ على صفحة ذهني هذا الشريط من الحديث عن الكاريكاتير وأصله وهدفه وغاياته .

ثم تذكرت وأنا بين النوم واليقظة ، أن بعض النقاد ولعلمهم من الوجوديين - قبل وجودهم - زعموا أن فن الكاريكاتير بزغ في عهد

النهضة (Renaissance) ، من أجل إثبات أهمية الفرد ووجوده ، وهو ما كان يُعنى به هذا العصر ، تأكيداً لإظهار شخصية الفرد في أى مجال من المجالات وعلى أى صورة من الصور .

وتذكرت أن يعقوب صنوع ، هو أول من استخدم في صحيفته (أبو نضارة) فن الكاريكاتير ، في بداية القرن العشرين ليصلح من ورائه ما يريد إصلاحه ، بلغة يفهمها حتى الأميون .

ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة قبل وخلال الحرب العالمية الأولى واستخدمت هذا الفن الجديد . وكان يرسم لها الأخوان . . . إيهاب ونهاد خلوصى ، وهما من أصل عثماني .

ثم جاء سانتس ورسم للكشكول وأعقبه صاروخيان في روز اليوسف وأخبار اليوم .

وزخرت مصر بعد ذلك بفناني الكاريكاتير أذكر منهم على سبيل المثال وبلا ترتيب رخا وصلاح جاهين وزهدى وناجى ورجائى وجورج ، وحجازى وبهجت والليثى وطوغان وعبد السميع ، ورفقى وشوقى ومصطفى حسين وظهرت شخصيات مصرية ، على يد الفن الكاريكاتيرى ، منها : رفيعة هانم والسبع أفندى ، والمصرى أفندى ، وبنت البلد ، وابن البلد ، وكشكش بك .

أما الفهامة فهى شخصية آلية ، يستخدمها قصيرو الفهم ، مثلما يستخدم النظارة ، قصيرو النظر . ويستخدمها مبتكرها بكل اقتصاد .

كان الفجر قد أخذ يبعث بنوره ، وقد أزحت ستارة شباك المقصورة ،
لأمتع بصرى بمنظر الريف الفرنسى قبل الوصول إلى باريس . هذه هى نعمة
الحياة التى تتجدد مع كل فجر وصباح .

هذه هى اللوحة الإلهية التى تتقطع أبدى كل الفنانين دون أن يصلوا
إلى سر مزج هذه الألوان على صورتها الطبيعية ، عند الأفق وعلى صفحة
السماء وعلى أديم الأرض . إعجاز يفوق كل إعجاز .

الهواء كأنه العطر ، وألوان السماء تبدو كما لو كانت قد ارتسمت
على جبين ووجنات عذراء ، مسحها سحر الرغبة ، ثم أخذ يزايلها كلما
اطمأنت ، رعشة المفاجأة ، وحمرة الخفر .

بعد قليل من الوقت ، أخذ الركب يستعد لمغادرة القطار فى محطة
الشمال بباريس ، التى كانت أنوارها ما تزال تختطف الأبصار وإن كان
نور النهار قد حجبها على الانصراف .

هبطنا باريس العزيزة التى لها فى صدر ونخلد وقلب ونخاطر كل منا ،
ألف حديث وذكرى وتاريخ .
وذقت من عطرها كأساً مشعشةً

فعاد لي الأطييان الشعر والغزل
ولكل أديب وشاعر ومصور وفنان ، وطنان : موطنه الأصلي ،
ووطنه الفكرى ، فرنسا ، حيث عاش أو درس أو زار أو قرأ أو نقل
عن الصفوة من فنانيها فى كل مجال .

وكنا على اختلاف جنسياتنا ، واختلاف لغاتنا ، لو شئنا أن نقول
شيئاً ، نحى به ذكرى أيامنا المواضى ، لما خرج ما نقوله عما قاله

إسماعيل صبرى منذ عهد بعيد :

سقى الله عهد الشباب النضير
فقد كان روضاً شهياً الجنى
إذ العيش كالغصن فى لينه
يميل بعبء ثمار المنى

* * *

كان موعدنا مع المؤرخ العالمى الكبير للرسم والرسمين قد تحدّد ،
بعد ظهر اليوم التالى ليوم وصولنا ، وفى الساعة الخامسة مساءً بمدرج من
مدرجات المعهد العالى للفنون الجميلة فى الحى اللاتينى ، وهو يتبع
كلية الفنون الجميلة التى تقع ضمن مبانى السربون .
أمضينا ما كان لنا من وقت بين الوصول وبين موعد المحاضرة ،
فى زيارة عاجلة لمتحف اللوفر وحده . إنه موجز الفنون جميعاً . ومقبل أهل
الفن كلهم .

وبعد ظهر اليوم المحدّد ، شخصنا نحو الحى اللاتينى .
حيّاك الله أيها الحى العتيد . إنك مازلت منذ القرن الخامس مقصد
ومهبّط ومقبل أهل الفنون جميعاً من كل فجّ عميق ، فى شرق كان
أو فى غرب .

وكان هذا الحى يتبع من ناحية التقسيم الإدارى لباريس (البانشيون)
ثم (لوكسمبورج) فى القرن السادس ، إلى أن أصبح منذ القرن
الثانى عشر ، مركز الإشعاع الفنى والفكرى والجامعى فى باريس .
اجتمعنا من كل الجنسيات التى كانت تضمها الرحلة ، فى مدرج

متسع ، زوّده القائمون بالعمل في المعهد ، بمكبرات للصوت التي تعرض على شاشة خاصة ، كما أعدت منصة المحاضرات لتكون مرئية بوضوح من كل الجوانب .

كذلك كان الصوت يصل هادئاً عميقاً للمتحدث إلى كافة أنحاء المدرج .

دخل المؤرخ الكبير من أحد جوانب (الكواليس) وكان يرتدى الروب الجامعي ، وقد أطلق لحيته وشعر رأسه وأمسك في يده عصا رفيعة ، شبيهة بعصا قائد الأوركسترا ، لتساعده في الشرح كلما اقتضى الأمر ذلك .

ساد الصمت المدرج الكبير جداً . وشرأبت الأعناق وأطرقت الأسماع واتسعت الحلق لترى كل ما تريد رؤيته ، مهما ابتعد المنظور ، واللهفة تملك الجميع .

حيا الجمهور ، الأستاذ المؤرخ المحاضر ، وجلس على فوتيل كبير وراء طاولة عالية ، حملت أوراقاً ومراجع ومصباحاً خافت الضوء إن شاء ، قوية إن أراد .

بدأ الحديث بقوله :

ليس من المهم أن يتابع الرسم والنحت والحفر ، العارفون بهذه الفنون ، الذين هم في كل أمة قليلون .

ولكن من اليسير على كل مشاهد ، لأي معرض مما ذكرت من فنون ، أن يحكم على ما يرى ، دون أن يكون عارفاً بأصول هذه الفنون وحرفيتها . ولا يتحتم ألا يقدر الشعر ولا يجيد فهمه إلا العارف بأوزانه وأسرار

الصناعة فيه . أو يتحتم ألا يطرب للموسيقى إلا واضعوها ، والواقفون على ضرورها ، وهذا أمر يرفضه العقل ، وتنكره الغريزة والفطرة والبديهة . وأنا إذا سلّطت الأنوار الآن على صورة (الأمل) (لجورج فردريك) التي تعرض صورة فتاة تقف على كرة وعيناها معصوبتان ورأسها مائل إلى قيثارة في يسراها ، لم يبق من أوتارها سوى وتر واحد ، راحت تعالجه بأصابع يمينها في جو مكفهر جهم ، وساء ملبدة بغيوم كأنها حلك الليل ، فليس من المهم أن يستعين المشاهد بقواعد الفن في فهمها ، أو يكون عالماً بقواعد الرسم ، ليبدى فيها رأياً .

ذلك أن هذه القواعد إنما هي كالنحو في اللغة ، يعصم الكاتب من الخطأ .

أما مشاهد هذه الصورة ، فقد رأى الكفاية في الصورة وفي تعبيرها عن الشيء الغامض الذي تشبث به النفس في أعصب الساعات ، استمسكاً منها بالإيمان والأمل وحب البقاء .

وجدير بي أن أذكر لكم أن رسم الوجوه من أصعب ما يتعرض له الفنان فيما يرسم .

ذلك أن لكل إنسان صندوق أسرار ، يحرص على أن يبقيه مغلقاً ، حتى لا تنتهبه العيون ، وتروى ما لا يشاء أن تراه .

والمصور ذو منظرٍ فاحصٍ ، يغوص وراء السريرة ليتزج منها ما خفى . وهو في موقفه هذا كالمحقق الذي يجلس أمام صاحب الوجه ، كما لو كان متهماً ، ويروح يسأله ويحاوره ، لعله يعثر على خيط يعين على كشف أستار الجريمة ، أو يهتدى به إلى براءة المتهم .

فإذا استطاع الجالس إلى المصور ألا يرفع القناع عن شخصيته ،
غمض على المصور إظهار خصائصه من ملامح طلعتة ، وخرجت الصورة
فاترة ليس فيها من معالم التصوير سوى وجه أخرس ، فقد النطق والتعبير .
وفي يقيني وحكمي ورأيي ، أن المصور في هذه الحالة ، لم يكن هو
الذي قصر أو عجز ، ولكن الجالس إليه هو العاجز وهو المقصر .
ولقد راعتني مرة صورة لرأس إنسان ، لم أستطع أن أنقل النظر عنها ،
رغم بساطتها .

وقد اختار المصور لهذا الرأس ، صاحباً بسيطاً تافهاً ، يضرب في
أحشاء الأرض على غير هدى .

وكأنما أراد المصور أن يكشف عن تلافيف عقل هذا الرأس ،
فصورها على هيئة جمجمة فارغة ، لو نقرت عليها لسمعت صدى نقراتك
يرتد إليك ، حاملاً الدليل على فراغ ما نقرت عليه . والآن وجهوا إلى
ما تشاءون من أسئلة .

* * *

بعد صمت ساد دقيقة ، سأل أحد المستمعين ، عن رأى المؤرخ
في فن الكاريكاتير .

أجاب المؤرخ بقوله : إنه سيستعير من الكاريكاتير أسلوبه ،
في وصفه ، بقدرته البلاغية الموجزة المثيرة للضحك والابتهاج .

إنه قديم كالقارة الأفريقية ، وجديد كاليورانيوم .

لقد استخدمه قدماء المصريين بنحته على الجدران أو رسمه على
أوراق البردي . وهو يعيش بين ظهرانينا الآن موفور القدر والاحترام .

وأنا إن نسيت لأنسى صورة كاريكاتيرية لمسجون يتحدث إلى زميله في الزنزانة ، ويقول له ، إنه كلما رأى قضبان نافذة الزنزانة ، تذكر على الفور ، أيام أن كان صرّافاً في البنك ، ويجلس وراء نفس القضبان . . .

أو أنسى صورة سيدة في عيادة دكتور نفساني ، تقول له في قلق ظاهر ، إنها لا تخشى ولا يهمها إذا كان زوجها يتصور أنه نابوليون ، ولكن ما يهمها وتخشاه ، هو أن يتطور المرض مع زوجها فيظن أن الخادمة هي جوزفين . . .

والرسامون من كل المدارس ، أهل مرح ونكتة وانطلاق ، ويحيلون مجالسهم إلى ندوات بهيجة .

كان سالفادور دالي صاحب الأطوار الغريبة يقول ، إن الفارق الوحيد بينه وبين المجنون ، إنه ليس مجنوناً .

وكان يقول : الحب كالحرب ، نبدوّهما متى نشاء ، ونتوقف عنهما ساعة نستطيع . . .

ويقول عن شاربيه الطويلين المعقوصين إلى أعلى بطول يقدر بخمسة وعشرين سنتيمتراً ، إنهما يمثلان أنتين الراديو ؟ بالنسبة له ، ويستخدمهما أحياناً في تنظيف أصابعه بعد تناول حبات من العنب أو ثمرات من البلح . . .

وهو رجل أعمال ، همه من الدنيا جمع المال بلذة وشغف ، ويتقاضى مثل بيكاسو أضخم المبالغ ثمناً للوحاتهما .

وكان يقول إنني شبيه لبيكاسو في كل شيء . فيكاسو من أصل

إسباني وأنا كذلك ، وهو يحب جمع المال وأنا كذلك ، وهو عبقرى ،
وأنا كذلك ، وهو شيوعى وأنا لست شيوعياً كذلك . . .
وبيكاسو كان يحب المال ولكنه كان باراً بالفقراء . وكان يساعد
كل من يلجأ إليه .

كان يعتز بلوحة فنية تمثل مدينة (جيرنيكا) التى أزالها الطائرات
النازية من الوجود . وفى أثناء الاحتلال الألمانى لفرنسا ، زاره فى مرسومه
بعض الضباط النازيين .

ولما وقع نظرهم على تلك اللوحة ، سألوه ، أنت صنعت هذا ؟
فأجابهم : كلا ، أتم الذين صنعتم ذلك .

وإنى لأذكر بافتخار بعض الرسامين الذين تركوا للعالم ثروة من
الفن لا تقدر بمال . وهم إلى جانب ذلك أئمة فى عالم المجون .
إنهم رسل السماء إلى الأرض ، ليثبت الله على أيديهم ، قدرته
على خلق كل ما هو بديع ، لأنه هو فى النهاية صانعهم .

والأفذاذ فى كل علم أو فن ، قلة بين الناس ، توحى بأنهم رسل ،
أراد الله بهم أن يشبعوا بين خلقه المتعة واللذة والمعرفة وحب الحياة ،
وأن يروى بشمراتهم ما يجف من جوانب العيش ، وأن ينعش بهم ما ذوى
من حيوات أرهقها الكد والعناء

وقد أودع الله فى نفوسهم طاقات خالقة ، شاء الله لها أن تكون بارزة
متألقة ، ليست يسيرة على كل الناس ، إلا من اصطفى واختار . وتلك
حكمة الله التى نفذ إلى دخیلتها العقاد عندما قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس
والشاعر القُدُّ بين الناس رحمن
والراجع أن العقاد لا يقصد هنا بالشاعر ، ناظم الشعر ، وإنما يقصد
كل من عبر بشعوره عن لون من ألوان الفنون ، بآلته التي اختصه الله بها ،
شعراً كانت أو رسماً أو عزفاً يطرب السامعين .

* * *

والرسامون في كل العهود ، يشتهرون بخفة الروح وسرعة البديهة ،
وروعة الكلمة . فهم الذين يتوغلون داخل كل شيء وحول كل شيء .
من هؤلاء على سبيل المثال : كلود مونييه . كان يتعشى عند زوجين
اشتهرا بالبخل والشح ، وكان عدد المدعوين كبيراً جداً ولا يتناسب مع
دجاجة واحدة توسطت المائدة . فما كان من مونييه إلا أن هز رأسه
في شفقة وحسرة وهو يقول :

مسكينة هذه الدجاجة ، لعلها الآن تقول بصوت حجبتة الرهبة :

يا للوحشية ! كل هذا الحشد سوف يأكلني . . . ؟

وكان للرسامين منذ أقدم العصور ، مقام مرموق في بلاط أكبر الملوك ،
وكان قدرهم لا ينافيهم فيه منازع . ففي أيام مايكل أنجلو ودافنشي لم يكن
هناك من ينافيهما من شخصيات وكذلك الحال بالنسبة لجويا في
إسبانيا .

ولعل ما تركه دافنشي ومايكل أنجلو من شهرة ، لم تستطع أية قدرة
أخرى أن تنافسهما وتملأ الدنيا إعجاباً بإيطاليا مثلهما .
وما صنعه آل جريكو وجويا لإسبانيا لم تستطع أساطيلها أن تبلغ

ما بلغاه من مجد انعكس عليها حتى اليوم .

وقل المثل عن سيزان الرسام الفرنسى ورودان المثال الفرنسى ،
وما تركاه من شهرة ومجد يطاول الزمان .

وكذلك (ثيلا كيز) البرتغالى المنحدر من أصل يونانى .

أما هولندا فإن شهرة روبنز ورامبرانت وفان جوخ قد ملأت الآفاق
فى كل بقاع الأرض ، وقد أكسبوا هولندا من المجد ما لم تستطع كل
جيوشها وأساطيلها أن تبلغه .

ويطيب لى أن أذكر كمثال لما كان للرسامين من قدر لدى أعلى
الشخصيات ، حادثة كلود مونييه ١٨٤٠ - ١٩٢٣ الذى كان كما قال
عنه ساشا جينزى الكاتب المسرحى والممثل ، إنه لم يستطع أى إنسان
أن يكون نموذجياً ومثالاً يحتذى مثل مونييه .

وكان من أحب الأصدقاء ، إليه كليمنصو ، وقليل جداً من
أرقى الطبقات ، إذ لم يكن يميل إلى استقبال الكثيرين .

وكان وهو فى الثانية والثمانين من العمر يبدو نشيطاً محتفظاً بكل
قوته كما لو كان سنديانة هرمة تهزأ بأعنى العواصف .

وكأنما اختار الموت معه ، وكيف يصل إليه ، فلما أعيته الحيلة ،
رأى أن يخادع ويعدر فتسلل إليه وأصابه فى أعز ما يملك . . فى عينه .
وبروى ساشا جينزى أنه عندما زاره قالت له زوجة ابنه ، إنك تجيء
فى أنسب الأوقات ، فانظر إلى أى حد بلغ بمونييه اليأس والقنوط بعد
ما حلَّ بعينه .

ولما دخل عليه ، شد على يده وقال له يا عزيزى ساشا إننى لم أعد

رى اللون الأصفر .

وبعد قليل فقد بصره تماماً .

وراح فى نوم لم يشأ أن يقوم منه حزناً على بصره ، ولزم فراشه ، وكان قد طلب من زوجة ابنه أن يرى كليمنصو ، صديقه الأثير .

وقد عملت على ذلك ، ولم يضع النمر لحظة بل سارع إليه ليراه بأقصى سرعة ممكنة إلى (جيفرنى) سبعمائة كيلومتر لكى يودعه الوداع الأخير .

وكان وصوله فى الوقت المناسب . فقد أسلم مونييه الروح بين يدي صديقه الحميم كليمنصو رجل فرنسا الشهير بالنمر الذى انتصرت فرنسا بحسن قيادته فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وصار اسم النمر رمزاً له ، وعنواناً على قدرته وقدره .

وقد أشرف بصمت وتأثر على وضع جثمانه فى النعش .

وعندما أراد المشرفون على الدفن أن يغطى النعش بالغطاء الأسود التقليدى ، أمسك كليمنصو بيده ذلك الغطاء وقال للمسئول وهو يتزع الغطاء :

لا ، ثم تلفت حواليه ، وتقدم من إحدى النوافذ ، وانتزع إحدى الستائر المزهرة ، وغطى به نعش الرسام الكبير بنفسه وهو يردد :

اللون الأسود ليس لمونييه ! . . .

وأروى لكم عنه هذه الحادثة . عندما زاره فى مسقط رأسه (جيفرنى) وزير التربية عام ١٩٢٣ ليطلب إلى كلود مونييه لوحة من أعماله ليزين بها متحف اللوفر ، قال مونييه .

بكل سرور على أن أختار اللوحة بنفسى .

ووافق الوزير على الفور . وهنا اختار مونييه لوحة اشتهرت باسم « غذاء فوق العشب » .

فسأله الوزير :

هل لى أن أعلم يا سيدى البروفيسير ، لماذا اخترت هذه اللوحة ، لا سواها .

أجاب مونييه :

لقد اخترتها ، يا سيدى الوزير ، لأنهم رفضوا قبولها فى « المعرض » عام ١٨٨٧ . . . !

صَفَّقَ الجمهور المحتشد فى المدرجات ، للمؤرخ المحاضر تصنيفاً طويلاً تقديراً لما حوته كلمته الجامعة من شمول وتعريف بالرَّسْم والرسامين انحنى المؤرخ الكبير وانسحب داخل الكواليس ، فى تَوْدَةٍ ووقار .

تفرقنا شيعاً شيعاً ، ورحنا نتلمس طريقنا إلى خارج المعهد ، لنمضى بعض الوقت فى الحى اللاتينى وفى بعض المطارح التى كان لها عند أغلبنا ذكرى عزيزة فى صدر الشباب وأيام الدرس والتحصيل .

وعدت إلى باريس بعد أن أطفأت بعض الظمأ برؤية مآلف قديمة عزيزة ، أراها على النوى خيالات فى أحلام اليقظة .

وبعد أيام انتظرتها لحين حصولى على مقعد فى طائرة Caravelle ، كانت ستغادر مطار (أورلى) ، فى طريقى إلى مصر ، بعد فترة حرَّكت أشواقى وأثارت فى نفسى حنين المغرب لمن يحب ، ولهفتى على عودة

لظلال ألفتها وأحباب فارقتهم ، ومطارح للصبا هي في الشيخوخة الزاد
والمعاد ، ومبعث النجوى والعماد .

وبعد ساعات بلغنا مطار القاهرة الدولي ، الذي غادرته مسرعاً
إلى داري لأستكمل ما بقي أمامي من هذه الأوراق .



الفصل السابع

أدب الفكاهة في الكتابة وعند الكتاب والصحفيين

لن يستطيع كاتب مهما أوتي من الجلد وحب المتابعة ، أن يحصى
الظرفاء من الكتاب في مصر ، قديماً وحديثاً .

فالظرف صناعة أتقنها المصريون ، وأتقنها الكتاب منهم ، حتى
إنك لتحار في تعليل ذلك .

وقد كتب مرةً الأديب الشاعر أحمد فارس الشدياق عندما زار
مصر أول مرةً : « كلُّهم فصيح اللهجة ، بين الكلام ، سريع الجواب ،
حلو المفاكهة والمطارحة » .

وذكر البشري أنه « لا يعرف أمة من الأمم العربية ، أحسنت هذا
النوع من النكات ، أو برعت فيه ، براعة المصريين » .

ويعضى ليقول : « لست بالضرورة أعنى تلك النكت القائمة
على التلقيق بين صدر معنى من المعاني ، وبين ألفاظ ثانية لمعانٍ أخرى » .

ويسوق عن ذلك مثلاً بقوله : « ففي قافية الغناء ، يقول الرجل
لمناظره : إخوانك لما يشوفوك متعلق في حبل المشنقة يزعموا ويقولوا :
كده العدل . . .

فلا ذكاء في مثل هذا ، ولا مجال لسرعة الخاطر ، إنما أريد ذلك

النوع الذى تُلهمه دقة المتفطن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ،
والقدرة القادرة على لطف التصوير والتخيُّل .

وإذا كنت قد آثرت أن أروى نماذج من كتابات أهل الظرف
فى مطالع هذا القرن العشرين ، فإنما لأننى رأيت أن ألترم بحكمة صينية
قديمة تقول : (إن التبع القريب لا يروى ولا يرضى عنه أهله) .

إلى جانب أن من بيننا من ظرفاء الكتاب فى أيامنا هذه ، هم ملء القلب
والعين ، ومهوى النفس وال خاطر ، وكتاباتهم تسعد بها ونستزيدهم منها كل
يوم ، ونحسد أنفسنا على أن حباننا الله بهذا القدر من كتاب الفكاهة فى
جيل واحد .

فلدينا الأساتذة يحيى حقى وأحمد بهجت وأحمد رجب وكامل
الشناوى ومأمون الشناوى ومحمد عفيفى وعباس الأسوانى وعبد الله أحمد
عبد الله ، وعبد الحميد الديب على سبيل المثال لا الحصر .

وإننا لنباهى بهم كل الأقوام ، وندخرهم ليوم كريمة وسداد ثغر .
ولعلنى إذا اخترت من بين كتاب الجيل الذى أعنيه ، اثنين فى طليعة
كتاب مصر ومفكرىها ، هما الأستاذ عبد العزيز البشرى
والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، فذلك ليكون ما أرويه لهما ، وأكتبه
عنهما ، بمثابة نماذج لأمثال المويلحى وإمام العبد وعبد الله النديم
ويعقوب صنوع وحسين شفيق المصرى .

وقد جمع البشرى بين ثقافات متباينة درساً ونقلاً ، قديماً وحديثاً ،
وعاش الحياة طولا وعرضا ، يتناغم مع ما حوله وبإحساس لنبض كل
نأمة تطرق سمعه .

أما ثاني الفارسين ، إبراهيم عبد القادر المازني ، فهو المصور البارِع
بآلتي الشعر والنثر ، والمحلِّل المعلِّل الساهر الساخر ، القاص الضاحك ،
فقد امتلك ناصية التصوير والتحرير ، بخفَّة ظلِّه ولطف حسِّه ، ودقَّة
شعوره ، دون أن يشعر بك بأن ما يكتب هو قصده أو غايته ، من فرط
ما به من انطلاق سجيَّة ووضوح بيان .

* * *

لم تكن كتابات البشرى تغضب من يتناولهم في صوره القلمية من
عظماء عهده ، بل إن منهم من كان ينتظر صدور المجلة التي خصَّها بهذه
الصورة بصبرٍ فارغ .

فقد كان عفَّ اللسان ، حسن القصد ، دون التواء أو تمجيد .
وكان الجاحظ يقول : « لا يغضب من المزاح إلا كز الخلق ،
ولا يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن » .

وكنت لا تلقى البشرى إلا مشرقاً كديباجته ، مرحاً فرحاً كأسلوبه ،
فإذا ضحك استحال وجهه كله إلى ثغر ضاحك .

ولم يتأثر البشرى في كتابه « في المرأة » أو في صوره القلمية العديدة ،
بالأساليب الغربية التي قدَّمها واشتهر بها جون جوتتر ومارك توين لعظماء
وسياسيين ، أبدعاً في تصويرهم ، وإن كان تأثره بالجاحظ في كتاباته
وأسلوبه وتصوراتهِ واضحاً في كثير مما تناول .

والذي أعان البشرى على بلوغه ما بلغ ، سيطرة على اللغة ، ووضوح
في بيانه ، وخفَّة روحه فيما يصف ، ودقَّة حسِّه في المرثى وما وراء المرثى ،
إلى جانب طبيعة مرحة بغير حدود قبل أن يغافله المرض ويندس إليه

ن غدر لم يكن يتوقعه .

يروى الجاحظ عن الطفيليين ، أن المأمون أمر بأن يحمل إليه عشرة من الزنادقة ، قد سُموا له بالبصرة .

فجمعوا وأبصرهم طفيلي فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع .
فأنسل فدخل وسطهم . ومضى بهم الموكلون حتى انتهوا إلى زورق قد أعد لهم فركبوه ، فقال الطفيلي ، هي نزهة ، ودخل معهم فلم يكن بأسرع من أن فيدوا ، وقيد معهم الطفيلي ، ثم سير بهم إلى بغداد .

وأدخلوهم على المأمون ، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً فيأمر بضرب أعناقهم ، حتى وصل إلى الطفيلي وقد استوفى العدد ، فقال للموكلين ، من هذا ؟ فقالوا ، والله ما ندرى ، غير أننا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فقال له المأمون : ويلك ! ما قصتك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، امرأتى طالق إن كنت أعرف من أمرهم شيئاً . وإنما أنا طفيلي ، رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة . فضحك المأمون وأمر بتأديبه .

وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً فسأل المأمون أن يهبه ذنبه ، فوهبه ، فعفا عنه المهدي وأطلقه .

ويصف البشري بصورة قلمية ، بخيلا كان يقتر على أبنائه ويخص نفسه بما يحرمهم منه . وكان يأكل ما يستطيع خارج الدار حتى لا يشركونه مأكله وعددهم كبير ، ونفقتهم باهظة .

ويقول البشري : « فعندما مات ، لم ينتظر أولاده حتى يقسموا التركة ،

ويهندوا إلى اسم البنك الذى يكثر فيه المرحوم أمواله ، بل إنك كنت ترى أحدهم يهرول فى الطريق وعلى رأسه شباك ، والثانى على كتفه مصراع ، والثالث يحمل بين يديه طشتاً ، والرابع يحمل مقطفاً امتلاً (بحنفيات) . وللبنى صورة قلمية أخرى لأحد الوزراء فى عهده يقول فيها : « جاءه مرة أحد زملائه من الوزراء ، فسأله أن يرقى أحد صنائعه ، على أن يرقى هو أحد أقرباء هذا الوزير فى ديوانه . فأدار الوزير الأول ذهنه الرياضى الكبير فى الحسبة ، فأراها تفرق ٢٤٠ قرشاً فى كل شهر . وتعاضى الأمر ، وتعذر الحل . وأخيراً وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء الحاضرين فى الأمر ، على أن يزيد قريباً للوزير الأول ، فى وزارته هو ، مائتى قرش ، هى كل ما تسعه طاقته ويدخل فى جهده . وبعد لآى رضى الوزير الأول بهذا الحل ، محتسباً عند الله أربعين قرشاً كل شهر .

* * *

ومن أرق ما وصف به البنى صوت محمد عبد الوهاب ، فى مطلع حياته الغنائية ، قوله : ده صوته زى الخس . . . وقال فى موضع آخر : إن صوت عبد الوهاب فى يده ، وكل مغن آخر صوته فى فمه . . .

وللبنى قدرة على التوغل فى نفس الشخص الذى تتناوله كاميرا قلمه ، فترى ما لا تراه إلا بالمجهر ، أى عين خلا عينه .

يقول عن الجراح الكبير على إبراهيم : « إنك تستطيع أن تلاحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس سائر الناس ، فإنها تشير عليك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها . على أنه إذا تحدث رأته يستعين

دائماً بسببته ووسطاه ، فما تزالان كالمقص في انفراج والتشام إلى أن يفرغ من حديثه ، حتى إنك تعرفه من أصابعه ، كما تعرفه من وجهه . ولو قدر لمصور أن يرسم أصابعه وحدها ، لدلّت عليه إلى غاية الزمان .

وكتب بصور الراديو عند ظهوره ، على لسان أعرابي قادم من البادية ، لم يحدث أن رأى في باديته هذا الجهاز :

(دعاني صاحبك ذات عشية إلى أن أعود إليه . فلما استوينا في مجلسنا من إحدى الغرف ، أومأ إلى ركنها فحوّلت بصرى ، فإذا دمية من خشب ، بتر ساقاها ، فأقعدوها على منضدة لها أنف صغير ، ولها أذنان دقيقتان ، وقد توسط ما دون الجبين عين لها . واعجباه ! واحدة تمزقت حدقتها فتناثرت في بياضها تناثر أكارع النمل على صفحة الرمل . ولها فم ، يا حفيظ ! قد استهلك نصف وجهها . سجوه ديباجة من حرير ، وليتهم سدوا عليه مسامير من حديد . وما أحسب والله هذه الدمية إلا صنعت على صورة الجن . لم تصنع على صورة الإنسان) .

وعندما أدار صاحب الراديو جهازه ، مضى على لسان الأعرابي يصف ما حل به بعد سماعه همهمة ودمدمة من الجهاز « نخلت أن الأرض قد زلزلت على ، وأحسست قلبي يتمشى من الروح في صدرى حتى يصل حنجرتى . فجمعت ثوبى للهرب ، فجذب صاحبك فضل ردائى ، ولو قد أطلقنى ما أصبت المهرب . فلقد تخاذلت عنى ساقاى ، وأظلم ما بينى وبين وجه الطريق ، وجعلت ألتمس آية الكرسي أستعصم بها من هذا الشيطان ، فأذهب بها الرعب عنى ، وكأني لم أحفظ منها في دهري الطويل كلمة واحدة » .

وللبشرى كتب وأبحاث ومقالات عديدة بليغة . ومن كتبه المطبوعة :
في المرأة ، والمختار ، وقطوف .

وقد نشر الكتاب الأخير مشفوعاً بمقدمة للدكتور طه حسين جاء فيها :
« إن الشيخ عبد العزيز البشرى من القلة القليلة النادرة التي امتازت بخفة
الروح وعذوبة النفس ورقة الشائل ، والتي ظفرت من هذه الخصال
بحظ غريب في طبعه وفي جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث
لا يبلو الإنسان أقله ، إلا كلف له أشد الكلف ، وافتتن أشد الافتتان ،
وأصبح لا يستطيع له نسياناً ، ولا يجد فيه سلواً ، مهما يلم به من الخطوب ،
ومهما يختلف عليه من الظروف » .

ولقد كان الدكتور طه حسين على حق في وصفه هذا للبشرى ،
وعلى تركيزه على خفة روحه وعذوبة نفسه . فقد أعانته هذه الروح
الشفيفة على الوقوع بخفة امتلك ناصيتها بإقتدار ، على مواطن إثارة الضحك ،
بالكتابة التصويرية ، وبالصور القلمية وبالحديث المانع .

ولادة كاتب صاحب أسلوب فكاهى من هذا الفريق ، حدث كبير
في أى بلد ، لا يقل عن مولد مخترع أو طبيب عالمي أو مكتشف لفيروس
مثل باستير ، وكلُّ ميسر لما خلق له .

ولقد شاهدت إحدى صحف المليونير الأمريكى Hurst التي كانت
تصدر في سان فرانسيسكو باسم San Francisco Examiner ،
تنشر صباح كل أحد ، عموداً واحداً لكاتب فكاهى ، كانت ملايين
النسخ التي تنشرها الصحيفة تنفذ بسبب إقبال القراء على قراءة هذا
العدد .

وكان يتقاضى هذا المحرر أجراً يفوق ما يتناوله رئيس مجلس إدارة شركة أو مؤسسة كبرى ، وهو رقم خيالى أو فلكى ، كالأرقام الربحية من شهادات الاستثمار حرف ج . . لا الجائزة نفسها . . .

وانظر إلى هاتين الصورتين القلميتين الناطقتين .

أما الأولى فهي لشاعر النيل حافظ إبراهيم :

« إنه جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنه قد من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة أن يكون إنساناً فكان (والسلام) .

وأما ما يدعى فمه ، فكأنما شق بعد الخلق شقاً . وأما عيناه فكأنما دُقَّتَا بمسارين دقاً ، وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكأنما عهد به إلى نقّاش مبتدئ ، تشابهت عليه الأصباغ والألوان ، فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها ، فمزج مزجاً من هذا كله ، لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب » .

وأما الصورة الثانية ، فهي لدولة أحمد زيور باشا . وكان ضخيم الجثة ، يحب الهزر والمجون :

« أما شكله الخارجى وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته الساقطة الأفقية ، فذلك كله يحتاج وصفه وضبطه وضبط مساحاته إلى فن دقيق ، وهندسة بارعة .

وهو مؤلف من عدة مخلوقات ، لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض . . وإنك لترى بينها الثابت والمحتلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره .

ومنها اليابس ومنها المتحجر . وفيها المسترخى والمتزهل . وعلى كل حال ، فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعابها إلى الأمام ، شعبة طويلة ، أطلّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان ، طلّة من ترّقب السقوط إلى قرارة ذلك الهوى السحيق .

* * *

ونأتى إلى ذكر خصائص ثانى النموذجين اللذين اخترناهما من كتّاب المجون فى عصر يُباهى ويزدهى بما خلفاه من آثار ، وأعنى به الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

إن الذهب فى غير حاجة إلى طلاء . فهو لامع أبداً ، مشرق أبداً ، مُبتهج أبداً ، مفرح أبداً ، وإن كان الذهب نفسه - وأقصد المازنى - يفور داخله ويمور ، وتعبس فى وجهه الدنيا فيترضّأها ، وتعصف به الأزمات فيصمد لها ، ويلجأ مراراً إلى بيع مدّخراته من الكتب الثمينة ، للحصول على ما هو أثمن ، وهو البقاء على قيد الحياة .

وبالرغم من ذلك كنت لا تلقاه إلا مستبشراً متفائلاً مقبلاً على الحياة ، داعياً الآخرين إلى الاحتفال لها معه والاحتفاء بها على ما يحبه ويرضاه من دنيا استعلى أن ينهزم أمامها .

ولعل المازنى هو النسخة الوحيدة من كتاب جيله ومن جاء بعدهم من كتّاب ، الذى جمع إلى الكتابة ، مهنة الصحافة والشعر والترجمة والقصة والتحليل والتعليل لما يقرأ من نوادر الكتب ولما يدور حوله من أحداث بصورة يهضمها ، أى فكر ويتشّأها كل عقل ، لجاذبية خاصة فيما يكتب ويعرض ويناقش . وكان فى كل ما طرقه من هذه الأبواب ،

النابع المتألق ، البارع الذى لا يُبارى ، دون أن يعتد أو يتعاضم أو يتبه بما يحسن . وهذا هو موضع العجب منه والإعجاب به .

وكأنما كان يلتزم بدعاء صوفى تقول كلماته :

« اللهم جنبنا الإعجاب بما نُحسن ، والكلف بما لا نحسن » .

والمازنى من أقل الكتاب والأدباء حظاً من التقدير والتكريم ، ومن أبعدهم عن ذاكرة الجماهير ، برغم ثرائه فى الفكر واللغة والقصة والسخر المهدب البناء .

لم يكن يكتب إلا ما يحسُّه ولا يترجم إلا ما يرى نفعه للناس . وعندما أحس أن ما نظمه من شعر ليس بذى جدوى للناس ، أُلِف ما نظم وعكف على الكتابة ، برغم جزالة شعره .

وبرغم تبهم الحياة له فقد أحبَّ الناس ، وأحب الحياة ، ونفر من المتشائمين الذين لا يحسنون التناغم مع الحياة .

وكان ابن الرومى ، فى معرض الاعتذار عن دوام هجائه يقول :

لو كنت أكثر حظاً ، لكنت أقل هجاء .

وهذا هو الفارق بين الرجلين ، وبين المعدنين .

* * *

وللمازنى رأى فى النكتة وفى الفكاهة ، يجلو ما بينهما من فارق ، يتعين العلم به ، لمن يريد أن يتابع رحلة المجون ، على يد أساتذة المجون . يقول : « إن النكتة مظهر فطنة . والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك . ويندر أن يستطيع صاحبها أن يُخلِّق فوق الظاهر ، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة . وهى تُضحكننا بما فيها من مقارنة بين

أمرين أو حالين أو سلوكين .

أما الفكاهة فشئء مختلف جداً . لأنها تدور على المعاني والحقائق ، وتغوص في الجوهر ، ولا تتعرض للصورة الظاهرة .

وهكذا ترى الفرق واضحاً بين أمر عارض كالنكتة ، وبين فكاهة مدروسة في تعمق وأناة .

وليس أجدر بالحديث عن إبراهيم عبد القادر المازني ، من صفيه ، عباس محمود العقاد ، صديق عمره وخدين هواه في تحقيق ما عقدا عليه الآمال ، في تطوير الشعر والأدب على ما يحبان وما يبتغيان .

وقد أجرى العقاد هذا الحديث ، أمام أعضاء المجمع اللغوي عند اجتماعهم على أثر انتخاب المازني عضواً به ، وليقوم بتقديمه لأعضاء المجلس كما جرت العادة ، في كلمة جاء فيها :

« كان من حظي أن وكل إليّ إلقاء هذه الكلمة في استقبال صديقي القديم ، وزميلي الجديد في المجمع ، الأديب الشاعر الشاعر الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني .

ولكن ليس من حقي أن أسميها كلمة تقديم . فإن المازني مُقدم ، متقدم له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه ، رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد .

عرفت المازني منذ نيف وثلاثين سنة ، أي منذ جيل كامل في عصر النهضة الحديثة ، وقعت فيه حريان عالميتان ، وشجرت فيه حروب لا عِداد لها في ميادين الأدب أو الثقافة أو السياسة . ولم تكن في تلك الميادين على انتماء دائم إلى صف واحد ، ولكنني راضٍ ومغتبط بأن أقول : إنه كان

لسماحته وحسن تقدير الفوارق بين اختلاف الآراء واختلاف العقول والطباع ، فضل مشكور في بقاء هذه الصداقة التي أعزها وأعتز بها ، ويسرني أن تصبح من الصداقات النادرة في تاريخ الآداب العربية الحديثة .

وكان المازني طالباً بمدرسة المعلمين العليا ، يكتب في صحيفة الدستور التي كنت أشترك في تحريرها ، ثم عرفته فيما يصحح أن نسميه بمدرسة « البيان » . . وهو اسم المجلة التي كان يصدرها الأديب البليغ الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله . وكان يكتب فيها نخبة من ناشئة تلك الفترة ، شيوخ هذا الجيل ، أمثال : محمد السباعي ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الرحمن شكري . وكنا نراهم في كتابة فصول المجلة . فكنا نتلاقى على مائدة الأدب والمطالعة : نقرأ ابن الرومي ونعارضه . ونقرأ الجاحظ والشريف الرضي ونختلف فيهما . ونقرأ وليام هازليت ناقد الإنجليز الأكبر ، ونرفعه مكاناً علياً فوق زمرة النقاد العالمين ولا نسمع بشاعر أو كاتب من أعلام الأدب والفكر في اللغات الأجنبية إلا ذهبنا نلاحقه ونطارده في كل ما يصل إلينا من كتبه ، ثم نقسم نصيبنا منه بالمذاكرة والمشاورة ، كما نقسمه بالمنازعة والمشاجرة في أحيان .

ولست أحب أن أختم هذه الكلمة قبل أن أنصف المازني الذي لا يحتاج إلى الإنصاف . .

وهو لا يحتاج إلى الإنصاف إلا في موضع واحد : هو موضع الكلام عن نفسه . فلم أر أحداً يجور على المازني ، كما يجور المازني على فضله وقدره .

وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بمجدواه .
فأنكر على نفسه الشاعرية . وأنكر غناء ما يكتب وما ينظم وما عسى أن
يكتب وينظم . وقد تُغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد منها بما قاله في تصغير
فضله وقدره . ومن هذه الأسماء « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » !
وقد غالطته أحياناً فقلت له : إن هذه البدعة منه ضرب من المكر
الحسن الذى لا يستغرب ، كأنه أراد أن يتزل عن مكانه ليجلسه الناس
عليه ، وأن يحدد حقه ليشته له الناس .

ولو كان هذا قصده ، لكان فى كلامه ما هو أقوى جواب عليه .
وذلك حيث قال فى حصاد الهشيم ، « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون
منزلتها التى تستحقها ، لم يرفعك الناس إليها . بل أغلب الظن أنهم يدعونك
عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها ، لأن التواضع على
طبيات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف
مجالاً للعمل » .

والأرجح أننى غالطته حين استفزته بمثل تلك التهمة البريئة فى حقيقة
الأمر فى هذه الخصلة » .

* * *

ونختار للمازنى بعضاً من كتابته فى فصول منوعة ، لنقف على أسلوبه
فى معالجة ما يتناوله بروح يشيع فيها التبسط والمرح والمجون المهدب .

كتب فى بحث له عن القاهرة التى يعتبرها بلده ، يقول :

« كان ينبغى أن تكون بلدة - « كوم مازن » - مركز تلاً ، على ما أظن ،

من أعمال المنوفية - مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى . . . ولكن

المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقطت فى كوم مازن ، ولا كتب
لى قط أن أزورها أو ألم بها .

وشاءت إرادة الله - لحكمة ولا شك - أن أكون قاهرياً ، مولداً ،
نشأة ، وإقامة . وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة . ولا يخطر لى أن
أرى هذه البلدة - الطيبة على ما سمعت - التى نزل فيها أجدادى ونسبوا
إليهم .

وكنت أظن لفظ (كوم) ، مُحرفاً عن (قوم) . ولكن الدكتور
زكى مبارك - وهو أدرى - يقول إن الصواب (الكوم) بالكاف ،
وإنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا
يؤثرون الأرض المرتفعة ، حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان . .

والقاهرة التى عرقها - أو قل الرقعة التى عرقها منها - فى صدر حياتى ،
شئ مختلف جداً عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى . . والرقعة
التي أعنيها ، هى التى لا تزال معروفة بأسمائها ، وإن كانت معالمها القديمة
قد عفا عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية والأزهر ، والسكة الجديدة
وغيرها مما يتفرع عليها .

وكانت المحارات فى الأغلب ضيقة جداً ، والبيوت فيها متقاربة ،
فالطريق لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب .

وللبیوت « مشربيات » جميلة دقيقة الصنع ، من خشب ، تبرز
من المنازل المتقابلة ، وتكاد تتلاصق ، وفيها توضع القلل ليبرد الماء .
وما زلت أذكر كيف كنت أمد يدي إلى مشربية الجار ، فأشرب من قلله
إذا وجدت قللنا فارغة ، أو ماءها غير بارد ، أو لمجرد العبث والشيطنة ! . .

وكان الترام قد ظهر في قلب المدينة . ولكنى لم أره إلا بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائي ، ودخلت المدرسة التوفيقية الثانوية - أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلا بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوفوني منه - وقد حاولوا تخويني فعلا - بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل لى على ، « أبونيه » مجانى « لعربات سوارس » ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل ! ...

على أن حياة الصغار لم تكن كلها هواً . فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوراد ، ونذكر مع الذاكرين ، وفى الصيف - فى الإجازة المدرسية - يرسلنا أهلنا إلى « الكتاب » فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم . وكانت على بعضنا واجبات عجيبة . فكنت أنا مثلاً ، مكلفاً أن أعلف لجدى حماره ، وكان جدى - لا الحمار - ضعيف النظر . فكنا نجىء له بالحمار مسرجاً ملجماً ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان « التغيرة » أو الملزمة (صفحات من كتاب) ، ويدنيها من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب « المزينين » ، وهو أحد أبواب الأزهر ، فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ، فيترجل ، ويترك الحمار لمن يُعنى به ، ويلقى درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء ! .

فحدث ذات يوم أنى أهملت إطعام الحمار ، فجاع ، فلما ركه لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كر به راجعاً إلى الإسطبل ، فلما ترجل

جدي لم يجد ما ألف ، ولم يدرك أين هو ؟ فما دخل الإسطنبول قط . . . !
وقد ضربت في ذلك اليوم علقه - لا من جدي ، فقد كان أخني
على من أن يضربني - بل من أخني الأكبر رحمه الله ! . . .

* * *

وكتب مرة عن عجزه في وظيفته كصحفي ، لا في الكتابة ،
ولكن في الوسيلة لحصوله على الأنباء :

« دارت الأيام ، وقامت الثورة ، ونفى سعد ، ثم أطلق سراحه وذهب
إلى باريس ثم عاد إلى مصر ، فاوفدني جريدة (الأخبار) التي كان
يصدرها المرحوم أمين الرافعي بك ، إلى الإسكندرية ، لأكتب لها وصف
استقبال سعد . . .

وعدت في القطار الخاص معه ، واضطرت أن أحمل حقبتني
من محطة مصر إلى ميدان الفلكي ، لأنني لم أجد سيارة ولا مركبة خيل ،
ولا رجلاً يحمل عني ، لأن الدنيا كلها مضت وراء ركب سعد . . .

ومضى الليل ، وطلع النهار ، فحدثت معجزة !

ذلك أني كنت قبل ذلك بعام ، قد نزل بي مصاب رجئي رجّة
شديدة ، وأتلف أعصابي ، فأثرت أن أتخذ مسكناً لي بين المقابر ، وكان
موقعه موحشاً ، والقبور حوله تقبض الصدر . وكانت لي قرية كلما
زارتني تقول لي : « يا ابني ما هذا ؟ كلما نظرت من النافذة اضطرت أن
أقرأ الفاتحة ! ولكني كنت أجد في هذه الوحشة أنساً . وكنت لا أكاد
أطبق رؤية الناس . وبلغ من تلف أعصابي ، أني كنت إذا تناولت الصابون
لغسل يدي مثلاً ، أشعر أن فيه شعراً . فخفت على نفسي وطلبت الراحة

والسكون . وأى سكون أتم من سكون الموت ؟ .

وطببعي أنى كنت أعرف « الطُّربية » بضم الطاء ، وفى صبيحة اليوم التالى لعودة سعد ، خرجت من بيتى ، ووقفت أنتظر الترام ، وإذا بشيخ « الطُّربية » المرحوم الشيخ عبد الخالق الطحاوى يخرج فى سيارته مسرعاً ، فلما رآنى وأخبرنى أن سعد باشا آت لزيارة مقابر الشهداء ، وأنه ذاهب لاستقباله عند القلعة ، وأن هذا الخبر سر ، لا ينبغى أن يذاع ، وهذه رغبة سعد .

وتركت الترام وانتظرت ، وبعد قليل أقبلت سيارات ، فى الأولى سعد وواصف غالى باشا ، وفى الثانية أمين بك يوسف والمرحوم سينوت بك حنا ، فأشرت إليهما وركبت معهما . وزرنا مع سعد مقبرة الشهداء المسلمين ، وفيها ألقى سعد خطبة وجيزة ، كتبها على ركبتي ، فما كان ثم مقعد أو حائط . ثم انطلق الجمع إلى مقبرة الشهداء الأقباط فى شارع الملكة نازلى (رمسيس حالياً) ، وهناك خطب سعد أيضاً مترحماً على الشهداء ، حاضاً على الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الوطن ، وهناك أيضاً سلم على سعد ، وشكرنى ، ولم يزد . وعاد إلى سرادق مضروب بجوار بيت الأمة ، وخطب أيضاً ، ثم ذهبت إلى (الأخبار) ودخلت على المرحوم أمين بك الرافعى أعذر عن التأخر ، فضحك رحمه الله وقال « لقد أبلغنى سعد باشا أنك رافقه فى زيارته لمقابر الشهداء ، وهو يستغرب جداً أنك علمت بأمر هذه الزيارة مع أنه أخفاه حتى عمن رافقه . وهو يثنى عليك ويقول إنك أبرع صحفى ، وأن ما كان منك يشبه السحر . . !

وضحك أمين بك وقال : « طبعاً لم أفصح السر ، ولم أقل له ان بيتك في المقابر ! » .

وهكذا فزت بثناء لا أستحقه ، ولا فضل لي فيما استدعاه ، وإنما الفضل لمحاورتي يومئذ لأهل القبور . . . ! .

وكتب مرة فصلاً بعنوان : « من ذكريات عابر سبيل » جاء فيه : كان أحد الإخوان يصحح قول الشاعر ، « سافر فني الأسفار خمس فوائد » فيقول - بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها - أن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة . فأما البعد عن المرأة - أي الزوجة - فإني لم أعد أدري أهو مزية خير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذي أدريه أنني جادلته مرة بلا لف أو مداورة ، ثم عدلت عن التماسه ، ووطنت النفس على اليأس منه ، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة .

وتجاري في هذا الباب تخولني أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده ، أن يجازف ويلج على زوجته أن تكون معه ، فإذا أبت ، كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً ، أن المعول في هذا الأمر على أسلوب الحوار ، وطريقة الكلام ، والزواج ، - كما هو معروف - من مزاياه أن يكسب الإنسان مرونة في التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة في التحرز ، وسعة في الحيلة .

وإني لأذكر أنني كنت في سوريا مع أسرتي منذ نحو سنتين ، فذهبنا مرة إلى بيروت لنشتري أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا .

فأرت زوجى معطفاً من الفرو ثميناً جداً ، فأعجبها واشتتت أن يكون لها ، ولكنى نظرت إلى ثمنه فدار رأسى ، وأيقنت أننا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول . فأصابتنى فجأة نوبة عصبية حادة ، لم ترها زوجتى قط من قبل . ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع فى الأمراض العصبية . فقد خيل إليها أن هذا الذى أصابنى لابد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج ، أو لا أدرى ماذا غير هذا . فحملونى إلى طبيب فرنسى ، قالوا لها انه هو الإخصائى الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته فى طب الأمراض العصبية . فأدخلونى عليه ، فاتضح له من استجوابى ، ومما عرفه من تاريخ آبائى وأجدادى من قبل ، أن أهلى - فى حدائتى - خوفونى مرة بدب صناعى ، له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفرع الذى انتابنى فى صغرى شديدة جداً ، فأنا من ذلك الحين ، أضطرب جداً إذا وقعت عيني على الفرو . فسألته زوجتى التى لم تكن تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتى الحافل بالمفاجآت ، سأله عن العلاج فقال : « أوه . . لا شىء . . لا داعى للقلق . . ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً . . »

والحق يقال إنه كان طبيباً بارعاً جداً ، فإن مرضى العصبى لم يعاودنى بعدها أبداً . . والفضل بعد الطبيب ، هو بلا شك لزوجتى التى حرصت أعظم الحرص ، على ألا أرى الفرو أبداً . .

* * *

ولا أحسبني ارتددت بالقارئ أكثر من غمضة عين ، من غمضات عيون تاريخ مصر الأدبى فى حقة حافلة تقع بين العشرينات والأربعينات

من هذا القرن العشرين ، والعهد بهذه الفترة ما يزال عالقاً بالأذهان .
وما زلنا نرى القوم في الغرب يتجادلون في أخطاء معركة (ووترلو)
وثغرات معاهدة أوترلترز وأخطاء بسمارك الذي كان يقول عنه ، أعداؤه ،
أنه جعل ألمانيا كبيرة والألمان صغاراً . . .

وما يزال النقاش محتدماً حول ما كان يجب أن تكون عليه ختام
مأساة شيكسبير (روميو وجولييت) . وهل كان يجب من الأصواب أن يتزوج
روميو من جولييت وتنفض الحكاية . . . أو يتركها (شيكسبير) كما تركها ،
دمعة حائرة في أعين الرومانسيين في زمن عزت فيه الرومانسية ، وهرولت
تلتمس نجاة من تهديد المادية لها بخنقها وإخماد أنفاسها بحيث لا يشفع
لها إسعاف أو حجرة إنعاش . . .

حتى قطع في الأمر ناقد لمأخ بقوله : لو أن روميو تزوج من جولييت
لعاشا في (تبات ونبات) وخلفاً (صبيان وبنات) وسكت الناس عن
الحديث عن روعة مأساة (شيكسبير) الخالدة ، وتلاشت تهدياتهم على
العاشقين الصغيرين . والخيرة فيما اختاره الله . . .

ويجري ذلك أيضاً على مأساة المحبون وليلاه . فلو أن قيساً تزوج من
ليلى بدلا من ورد ، لعاشا في (تبات ونبات) وخلفاً قيساً صغيراً غير
مجنون ، وليلى صغيرة سمراء ، ولخدمت الحشرات التي دأب على ترديدها
الرومانسيون من العشاق ، كلما جرى على الخاطر ذكرى مأساة المجنون
الشديدة، أو أخطرها على بالهم شبيه لذلك العشق العقيم مع استحالة ذلك
في زمن أصبح القمر فيه في متناول رجل الإنسان . . .

رحم الله الكاتبين الكبيرين ، عبد العزيز البشري ، وإبراهيم
عبد القادر المازني ، وأحسن إليهما بأسخى مما فضّضَا من ظلام العيش ،
وأنارا من حلك الأيام ، لنفوس كلّت في طلب الرزق ، وقلوب جفّت
فيها معين الحياة ، بما كانا يفيثان به على الناس من حكمة ورشاد ،
في أفانين من حلو الحديث وبراعة الرواية .



الفصل الثامن

أعلام الفكاهة في الغرب

لكل أمة فكاهتها ، تبعاً للبيئة والميراث والتقاليد ، والجو وحالة الرخاء أو الفقر ، في كل صقع من الأصقاع .
والشعوب في كل أرض ، في إقبالها على الفكاهة ، تتباين في أذواقها وفي قدر فهم ما يستمعون إليه ، وإن التقوا جميعاً عند الإعجاب بما يثير الضحك ويبعث المرح .

وهم في هذه الحالة ، يتفاوتون في درجة الضحكة ، وتراوحها بين الابتسامة والقهقهة ، عندما ترسم على وجوههم .

والفكاهة في الغرب لها خصائص تتميز بعمق الثقافة ، وليس الوقائع لمسا يعتمد على الثقة في فهم المتلقى ، دون أن يغوص فيشرق فيغرق فيها لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

وليس من اليسير على الغربي أن يفهم فكاهات المجتمع العربي ، لغياب كثير من تقاليده عن أذهان كثير من أهل الغرب .

ونسوق في هذه المناسبة ، القصة التالية :

جلس أعرابي على مائدة بعض الخلفاء . وكان من بين ما قُدم جدى مشوى . وراح الأعرابي يلتهم التهاماً أجزاء كبيرة من الجدى ،

فقال له الخليفة :

إن من يراك على هذه الحالة من الالتهام ، يعتقد أنه لابد أن تكون أم هذا الجدى قد نطحتك .

وهنا أجاب الأعرابي على الفور ويديهة حاضرة :

وإن من يراك أنت يا أمير المؤمنين في عطفك على هذا الجدى ، يظن أن أمه أرضعتك . . .

والذى يغرب عن فهم الغربى لهذه القصة ، صعوبة تصور العيش فى البوادي النائية ، وارتفاع الكلفة بين البدوى البسيط ، والخليفة ذى الشأن والسلطان .

وعلى نفس هذا المستوى من الصعوبة فى فهم فكاهات المجتمع الغربى للمجتمع العربى ، نسوق قصتين ، تستلزمان فهماً لأوضاع وثقافات خاصة بالغرب :

وتتلخص القصة الأولى فى أن (Tiers تيرس) كان أول رئيس جمهورية فى فرنسا عام ١٨٧١ . وكان هو الأول كذلك فى إطلاق لقب President على رئيس الجمهورية ، بعد أن كان - Chef du Pouvoir Executif أى رئيس السلطة التنفيذية . وكان يقول فى معرض التثبث بالتسمية الجديدة : لماذا تريدوننى على أن أكون مشتركاً فى الوظيفة مع صاحب مهنة أخرى وهو الطباخ (إذ أن Chef بالفرنسية تعنى طباخ) ثم يردف قائلاً ، ومع احترامى لأصحاب هذه المهنة ، إلا أن تنازع الاختصاص يبرر تغيير الاسم . وهذا ما نادى به (مونتسكيو) وقد كان قصير القامة ، وجاء اسمه Tiers أى (الثلث)

مؤكداً لهذا القِصَر . إلا أن أصحاب المجون من الفرنسيين استكثروا عليه
الثلاث وأطلقوا عليه اسم Le Quart أى الربع

كما أن القصة الثانية تتلخص فى أن جان - بول سارتر فيلسوف
الوجودية ، روى مرة أنه كان فى زيارة لميناء طولون ، وقابل على رصيف
الميناء بحاراً يعرض سلعة فنيّة صنعها بنفسه ، تمثل زجاجة ويسكى فارغة ،
بداخلها مصغّر دقيق لبارجة حربية .

وقد بادره سارتر بالسؤال :

لا شك أن إدخال بارجة إلى داخل زجاجة ويسكى أمر فى غاية
الصعوبة . أليس كذلك ؟
فأجابه البحّار .

لا يا سيدى ، إنه لأسهل بكثير من إدخال زجاجة ويسكى إلى
البارجة

والخفى الذى لا يظهر فى هذه القصة ، أن طولون تعتبر قاعدة
للأسطول الفرنسى . ولهذا تحكم القاعدة قوانين عسكرية شديدة ، من
بينها تحريم إدخال الخمر إلى بوارج قطع الأسطول .

* * *

سوف أصحب القارئ معى فى رحلة نجوس فيها خلال ألوان من
الضحك ، تبعثه فكاهات من الغرب ، على مختلف المستويات .
ومجنباً للسير الطويل الذى قد يجهد القارئ ، ونأياً عن الدخول
فى متاهات ومسالك ، أن بدت لها بداية ، عزّت نهايتها على أى تحديد ،
لاتساع مجال القول فيها وتعدد طرق الشعوب فى رواية الفكاهة وقول

النكتة ، أقول ، تجنباً لكل ذلك ، رأيت أن أستعرض ثلاث شخصيات من أهل الظرف في كل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا .
ثم أستعرض فكاهات اشتهرت وذاعت على لسان أو نقلاً عن أصحاب الوظائف والمهن المختلفة ، دون التقيد بجنسية أصحابها .
وسوف أدخل مع القارئ إلى حياة ثلاثة من أهل الظرف من الإنجليز ، نبدوها بحياة برناردشو ، وما جذب الناس إليه ، إلى جانب نبوغه وعبقريته وتفردَه بفكاهة ذكية بارعة .

جورج برنارد شو :

لا يختلف اثنان في أن جورج برنارد شو ، كان أعظم أدباء هذا العصر الذي يفتش عهداً يبدأ بأيام الملكة فيكتوريا ، وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بالعصر الفيكتوري ، حتى عصر القنبلة الذرية الذي نعيشه وهو القرن العشرين .
وكثير من الناس الواقعيين ، يوقنون بأنه كان روائياً أعظم من شيكسبير ، وأخبر بالموسيقى من بيتهوفن ، وأبعد نظراً في الاشتراكية من كارل ماركس .
كما أن كثيراً أيضاً في العالم الأدبي ، يرفضون أن ينظروا إليه إلا على أساس أنه مهرج خفيف الظل ، وأغفلوا من حسابهم ذلك العمق الفلسفي في نظرياته وأفكاره التي كان يثر عليها طبقات رقيقة من مشور السكر ليجذب إليها قراءه .
وبرغم الأربعة والتسعين عاماً التي عاشها ، فإنه لم يحظ في أخريات حياته بتحقيق ما كان ينادى به من آراء وأفكار .

فلم يقدر أن يثنى الناس عن أكل اللحم ، اكتفاءً بالخضراوات والفاكهة ، ولا امتنعوا عن التردد على الكنائس بدلا من دور الأوبرا التي كان ينصح بالذهاب إليها ، ولا انقطعوا عن زيارة الأطباء ، بعد أن عصوه في المحافظة على حرارة القدمين وبرودة الرأس .

وكان يقول عن التراجم الشخصية ، إنك عندما تطالع ترجمة رجل ما ، اذكر دائماً أن الحقيقة غير صالحة للنشر .

استوقفه مرةً أحد الأشراف الإنجليز nobles ، وسأله : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك خياطاً ؟

فأجابه شو بقوله : نعم يا سيدى كان والدى خياطاً .

فسأله النبيل : ولم لم تأخذ مهنته .

وهنا راح شو يسأل النبيل : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك نبيلاً ؟

فأجاب النبيل : نعم يا سيدى كان والدى نبيلاً .

وفاجأه شو بقوله : ولم لم تأخذ عنه النبل ! . . .

وكثيراً ما كانت تتنابه حالات من التفاؤل تحمله على أن يدعو

الناس إلى التفاؤل مهما بلغت بهم الشدة وقسوة الحياة . وكان يقول :

إذا كنت أصم فاستمتع بالسينما وإذا لم تكن مبصراً ، فاستمتع بالراديو ،

أما إذا كنت قد فقدت سمعك وبصرك ، فعليك أن تحمد الله الذى

أنقذك من السينما ومن الإذاعة . . . والتليفزيون . . .

كانت إحدى الممثلات تعجب بشو وأرادت أن تدعوه إلى منزلها

بطريقة توهمت أنها مبتكرة ، فكتبت إليه رقعة حملها إليه رسولها ، وقد جاء

في الرقعة :

سأكون في منزلي في الساعة السادسة من يوم السبت القادم

فرد عليها شو بقوله :

وأنا كذلك . . .

وكان يقول إنه ليس هناك من فوارق بين الإنجليز والأمريكيين سوى اللغة ، أو بمعنى أوضح أن إنجلترا وأمريكا بلدان ، تفرقهما نفس اللغة . .

ولقد قام بتصنيف عجيب للرّسّامين في ردّه على سؤال في هذا الشأن :

يمكن تصنيف الرّسّامين على النحو التالي :

الرّسامون الذين يرسمون ما يرون

الرّسامون الذين يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرّسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يرون

الرّسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرّسامون الذين يظنون أنهم يرسمون . . .

كان شو يعتنى بحديقته على عادته المألوفة ، وحديباً منه على نباتاتها

وخضراواتها التي يعيش عليها . وإذا بسيدة صديقة لزوجته لم تكن تعرفه ،

جاءت للمنزل ورأته وهو منهمك في عمله ودار بينهما الحوار على الوجه

التالي :

هي : هل مضى عليك زمن طويل وأنت تعمل لحساب آل شو ؟

شو : بين العشرين والخمسة والعشرين عاماً يا سيدتي .

هي : وكم تتقاضى منهم ؟

شو : إنني أعمل في مقابل طعامي وكسوتي يا سيدتي .

هي : (بلهفة) ما رأيك في العمل عندي بنفس الشروط مع منحك

أجراً شهرياً ؟

شو : يؤسفنى يا سيدتى أن أعتذر ، لأنتى مرتبط مع السيدة شو مدى الحياة .

هى : (وهى تصبح) مدى الحياة ! إنها عبودية ؟ إنها سخرة ، شو : (يبرود) : كلا يا سيدتى ليس فى الأمر عبودية أو سخرة ، نحن ندعو ذلك زواجاً ..

* * *

أوسكار وايلد :

كان يحلو له أن يقول إنه من مواليد ١٨٥٦ برغم أن الثابت عن حقيقة عمره ، أنه من مواليد عام ١٨٥٤ .

وكان يقول إن السنوات التى تنقصها السيدات من أعمارهن لا تعتبر سنوات ضائعة بالنسبة للناس ، لأنهن يضيفنها إلى أعمار صديقاتهن العزيزات .

وكان شاعراً نابغاً بليغاً ، وقصصياً بارعاً ، وقد خلّدت ذكره روايته « صورة دوريان جراى » .

وكان مغرمّاً بتدخين السجائر ، وهو القائل عنها إنها الشئ الوحيد الذى يدعك دون أن تشبع رغبتك منه .

وكان يقول ، إن السجائر ذات الأطراف المذهبة مرتفعة الثمن ، بحيث إننى لا أستطيع الحصول عليها ، إلا عندما تتراكم على الديون . . .
وكان يروى القصة التالية : وصلت سفينة إلى جزيرة نائية مجهولة .

وقد شاهد ربّان السفينة التجارية التي رست على الشاطئ عجباً تبلى
لحيته الطويلة البيضاء قدميه الحافيتين ، فسأله قبطان السفينة :

- لماذا أتيت إلى هذا المكان ؟

- لأنسى

- لتنسى ماذا ؟

- نسيت ! ..

وقد قصده مرة شاعر مغمور وراح يشكو إليه ويسأله المشورة .

- ماذا أعمل ؟ هناك مؤامرة لإسكاتي تُحاك ضدى ، فلا كلمة

ولا إشارة ولا حديث عنى . ماذا تنصحنى أن أفعل ؟

فأجابه وايلد :

رأى أن تنضم إلى المتآمرين ! ..

وكان أوسكار وايلد صديقاً حميماً للرّسام المشهور جيمس هويسلر .

وذات يوم قرأ وايلد قصيدة جديدة له أمام هويسلر وسأله رأيه فى القصيدة

بعد أن ناولها له ليقرأها بنفسه . فأعادها هويسلر وهو يتسم ابتسامة

مبهمة ويقول لو ايلد إنها تساوى ثقلها ذهباً .

وقد سمع وايلد رنة الإخلاص فى صوت صديقه الرسام فارتاح

نفساً وغلبه السرور ، ثم فجأة انقلب ساخطاً على هويسلر عندما اكتشف

أن القصيدة كان قد كتبها على ورق رقيق خفيف لا يكاد يزن شيئاً . .

وعندما مات فى باريس ودفن فى مقابر الفقراء (بيير لاشيز)

أحضروا له قبل وفاته طبيباً كشف عليه وبعد الكشف قدّم فاتورة لم يكن

يملك أجرها وقال لمن حوله :

إني أموت ميتة فوق مستوى إمكانياتي . .
 ولم يستطع بالتالى أن يسدّد إيجار حجرته فى الفندق الذى مات
 فيه ، مما حمل صاحب الفندق على إرسال إكليل من الزهر وضع فوق
 نعشه وقد حمل العبارة التالية :
 « إلى المستأجر » ! . . .

* * *

سير ونستون تشرشل :

المنتصر فى الحرب العالمية الثانية عندما كان رئيساً لوزراء بريطانيا .
 سئل مرة عما إذا كان يعتقد أن حرباً ثالثة ستنشعب قريباً فأجاب
 بقول :
 الواقع أن مستر شنويل كان وزيراً للفحم ولم يكن لدينا فحم فى
 بريطانيا . . .

والآن مستر شنويل هو وزير الحربية . . . إذن
 وفى أثناء الحملات الانتخابية فى إنجلترا ، شاعت بين المجتمعات
 النادرة التالية :

استقل تشرشل هذا الأسبوع سيارة الميجور أتلى زعيم العمال الذى
 قال لتشرشل لدى إحدى المنحنيات المفاجئة الخطيرة :
 أود أن أطرده هذا السائق المتهور الذى يقود السيارة بسرعة جنونية .
 وقد كاد يقتلنى مرتين !
 فقال له تشرشل :

كن متسامحاً معه ، وأتخ له فرصة أخرى .
 استغل برنارد شو نفور تشرشل من الناس ، فبعث إليه يوماً ببطاقتي
 دعوة لحضور مسرحية له ليلة الافتتاح وذيلها بالعبارة التالية :
 وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقاً ، هذا إذا كان لك صديق
 فرد عليه تشرشل ببطاقة جاء فيها :
 آسف جداً ، إذ لا أستطيع لموانع طارئة الحضور الليلة . وسوف
 أشهد العرض الثاني إذا كان هناك عرض ثان

* * *

ذات يوم في مجلس العموم تحمست سيدة من حزب العمال ،
 هي عضو في المجلس ، بعد أن أثارها تشرشل ببروده ، في موضوع
 هام مطروح للبحث ، وكانت المناقشات صارخة صاخبة ، فقالت :
 لو كنت زوجي لوضعت لك السم في الشاي ! . . .
 ولم تكن السيدة على شيء من الجمال ، وجهها أوجسماً ، فرد عليها
 بابتسامة ساخرة خبيثة :

لو كنت زوجتي يا سيدتي ، لشربت السم عن طيب خاطر ! . . .
 ومن أقواله المأثورة :

يروج استعمال الكذب في الحالات الثلاث الآتية :

- قبل الانتخابات . . .

- أثناء الحرب . . .

- بعد رحلة صيد .

قال ذات يوم عن أحد خلفائه في الحكم :

- إن الوقت الذى لا يقضيه فى تأمل نفسه فى المرأة ، يكرسه لإهمال واجبات المهمة الملقاة على عاتقه ! . . .
 أنتقل بالقارئ إلى جولة ثانية ، نعيش فيها بين أعلام النكتة من
 الفرنسيين . وقد اخترت ثلاثة هم :
 فولتير - تريستان برنار - ساشا جيترى

فولتير :

أقام الفيلسوف فولتير والكاتب بيرون رهاناً حول أقصر رسالة يمكن
 أحدهما أن يكتبها للآخر . تاركين لنفسيهما حرية اختيار اللغة . (وبيرون
 كاتب فرنسى عاصر فولتير)
 وكان بيرون يستعد للذهاب إلى الريف ، فاستخدم اللغة اللاتينية
 وكتب رسالة إلى بيرون فحواها وكلماتها باللاتينية :
 سأذهب للريف . وكان واثقاً من كسب الرهان . إلا أنه فوجئ
 بفولتير يرد عليه برسالة أقصر مستعملاً كلمة لاتينية واحدة هي :
 اذهب . . . !

فى حديث بين فولتير وأحد أصدقائه ، قال الصديق :
 إنها لشهامة منك أن تمدح دائماً فلاناً فى حين أنه دائماً أيضاً ،
 يذمك . فقال فولتير :

لعل كلينا مخطئ . . . !

فاجأ فولتير عشيقته العجوز مع شاب صغير السن وهما يتناجيان .
 فنذت عن فولتير صيحة بالرغم عنه :

أوه . . . أيها الشاب المسكين . . . يالتعاستك ، إنك لم تكن مكرهاً
على ذلك . . .

ومن أقواله : إن كل بيت شعر ، وكل عبارة ، في حاجة إلى شرح
وتفسير ، لا يستحقان الشرح والتفسير .

* * *

تريستان برنار :

الروائي الساخر الأديب ١٨٦٦ - ١٩٤٧ ، كان يقول للكاتب
المسرحي الأديب ساشا جيتري :

هل لاحظت التقدم الذي يسجل الجهل هذه الأيام ؟

كان يروي تريستان في أحد الصالونات القصة التالية :

كان ذلك في ليلة كنت أشاهد فيها رواية تمثيلية في أحد المسارح
الباريسية . وكان النعاس يراود عيني وأحاول دفعه فأفشل . وعندما أضيئت
الأنوار للاستراحة ، قمت وقصدت مكان حفظ المعاطف وتناولت معطفي
عندما كان مدير المسرح يلاحقني بقوله

- أمنصرف أنت يا سيد برنار ؟

- أجل

- ولكن الرواية لم تنته بعد ؟

- . . . ومن أجل ذلك أنا منصرف

كان يستمع لإحدى العجائز تسدي نصائحها لحفيدها بقولها :

إنك لن تخسر شيئاً إذا كنت مهذباً في تصرفاتك .

فقاطعها برنار بقوله للصبي :

لا تصدق هذا ، إنك على الأقل ستخسر مقعدك في الترام . . .

لم تلق إحدى مسرحيات تريستيان برنار نجاحاً وبرغم ذلك تقدم

إليه أحد معارفه في طلب تذكرة لدخول التياترو فلبى الروائي الساخر

طلب الصديق وقال له وهو يناوله بطاقة الدعوة لحضور المسرحية :

يستحسن على سبيل الاحتياط أن تحمل معك مسدساً فالمكان

مقفر . . . والخدر واجب في مثل هذه الظروف

في إحدى مآدب العشاء كان الروائي الساخر برنار يجلس

إلى جانب شاعرة معروفة بالتعصب لبنات جنسها وبضرورة المساواة

المطلقة بين الرجل والمرأة دون أى تمييز للرجل .

وكان تريستيان برنار يستمع ويهز رأسه ويقول « نعم . نعم »

واحترار الناس كيف يسكت عن كل هذا الاعتداء على الرجال

دون أى تعليق منه على الشاعرة المتعصبة للمساواة ، حتى إذا انتهت ،

قام واقفاً وقال لها : سأذهب إلى . وأشار إلى التواليت المخصص للرجال -

فهل تأتين معي

* * *

ساشا جيتري :

الكاتب المسرحي والممثل والمخرج الفرنسي صاحب مسرحيات

ناجحة منها (الحارس الليلي وفضيحة مونت كارلو وباستور وزواج

طبيب) كان يمثل في جميع رواياته التي بلغت المائة والثلاثين .

وقد ولد في سان بطرسبرج من والدين ممثلين وترعرع بين الكواليس . .
 وكان على أكبر جانب من الظرف وخفة الروح في مسرحياته وحديثه .
 كان البعض يتحدث عن كاتب تافه سخييف أمام ساشا جيتري
 فقال أحدهم ، متأثراً لأن رجله سوف تبتر :

رحمة بالمسكين . إن إحدى قدميه أصبحت على حافة القبر فقال
 ساشا معلقاً : نرجو أن تكون القدم التي يكتب بها . . .
 وهذه القصة تذكرني بقول لحسين التريزي إمام النكتة في مصر
 بلا منازع .

كنا جلوساً معه وجاء صديق ينشأ بأن أحد معارفنا - وكان جاحداً
 بالنعمة كافراً بكل خير - ومضى الصديق ليقول إن هذا الجاحد قد
 كسرت رجله في حادث :

فقال حسين على الفور : إنشا الله تكون رجله اللي يرفض بها النعمة . .
 تزوج ساشا خلال حياته بخمس زوجات ، واحدة تلو الأخرى بعد
 الانفصال والطلاق طبعاً . . وكانت أولى زوجاته تروى هذه النادرة :
 في يوم جرى بيني وبين ساشا الحوار التالي :

إني أحبك ! وأنت ؟

فأجابها ضاحكاً :

إننا متفقان في حب شخص واحد

بعد أن أنهى أحد المنتجين السينائيين زيارته لساشا جيتري في داره ،
 اتجه نحو علبة السجائر الكبيرة في الصالون ، وتناول منها ملء قبضة يده
 وقال بلا تخرج :

هذه مؤونة الطريق .

فقال له ساشا :

لم أكن أعرف أن منزلك بعيد إلى هذا الحد

ومن أقواله في النساء :

من الجنون المطبق منح المرأة نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل .
يمكن منحها حقوقاً أخرى . . يمكن منحها - إذا لزم الأمر - أكثر

من حقوق الرجل ، لا بأس في ذلك ، ولكن لا حقوق الرجل نفسها

وكان زوجاً لجاكولين دولوباك الممثلة ، فلما انتقلت بعد الطلاق

لتقيم في شارع (إيليزيه - روكلو) ، وكان المنزل الذي اختارته لإقامتها

يقع قبالة مسكنه ، علق على ذلك بقوله :

عشنا جنباً إلى جنب ، ثم ظهراً إلى ظهر ، وها نحن الآن نعيش

وجهاً لوجه

* * *

بعد هذه الرحلة الفرنسية ، سوف أصبح القارئ إلى رحلة أبعد ،

إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لنطلع معاً على روح الفكاهة عند

الأمريكان ، من خلال أعلام الفكاهة عندهم . وقد اخترت ثلاثة منهم ،

هم على الترتيب التالي : مارك توين ، بوب هوب ، إخوان ماركس .

مارك توين ، ١٨٣٥ - ١٩١٠ :

إنه من أكبر الأدباء الساخرين في العالم ، حتى إن كثيراً من النقاد

يقدمونه على (أرسطوفاليس ورايلي وسرفانتس وسويفت وأمثالهم)

وفكاهاته ذات طابع عام ، بحيث يتفهمها أى شعب وهذا سر نجاحها .

وقد قال عنه الروائي الأمريكى (أرنست همنجواى) ، إن مارك توين بقدره أسلوبه وذكائه لخص الأدب الأمريكى كله فى روايته (هكليرى فن) .

سئل مارك توين عن رأيه فى الفيلسوف الألمانى Nietzsche نيتشه - هكذا يكتب اسمه - فقال توين لسائله :

تسألنى عن رأيى فيه ؟ هناك حروف كثيرة فى اسمه لا فائدة منها . وصل مارك توين ذات مرة إلى فندق للمبيت ، فقدم إليه المستخدم ، السجل الخاص بأسماء النزلاء ليكتب اسمه ، فلاحظ أن آخر سطر فى السجل اشتمل على اسم « البارون أونثيل وخادمه » فكتب هو فى السطر التالى له : (مارك توين وحقييته)

ذهبت إحدى السيدات إلى مارك توين ، وقالت له إنها متعلقة بالأدب وتود أن تشتغل به ولذلك فقد جاءت إليه لتسأله عن أفضل طريقة للكتابة ، فقال لها على الفور :

من اليسار إلى اليمين يا سيدتى
أرسل مارك توين مرة اثنتى عشرة برقية إلى اثنتى عشرة من أكبر الشخصيات فى مدينة هانيبال الأمريكية ، وكانت جميعاً بنص واحد ، هو :
« اهرب ! لقد اكتشف كل شيء »

وفى أقل من ساعة كان الاثنا عشر المعنيون قد غادروا المدينة
فى حفلة عشاء كبرى ، التفت مارك توين إلى السيدة التى تجلس

إلى جواره وقال لها وهو يشير إلى أحد المدعوين :
 إنني أكره هذا الرجل الذى يجلس أمامك .
 فدهشت السيدة وسألته إن كان يعرف أنه زوجها !
 فلم يرتبك ، ولكن ساعفته سرعة خاطره فأجابها على الفور :
 طبعاً أعرف ذلك . . . وأنا أكرهه لأنه سبقنى وتزوجك ! . . .
 كان على مارك توين أن يتحدث فى نهاية إحدى المآدب الرسمية
 بإلقاء كلمة ولم يكن راغباً فى الكلام ، فقام ، وقال :
 سيداتى سادتى . . شيكسبير مات ، وسويفت مات ، وموليير مات . . .
 وأنا لا أشعر بأنتى على ما يرام ! . . .
 ثم جلس
 ومن أقواله اللاذعة :
 لاحظت أنه فى باريس ، يتكلم خدام المقاهى الإنجليزية بإتقان ،
 ولكنهم لا يفهمونها .
 كن طيباً ، تعيش وحيداً .
 إذا كانت الموسيقى بلا كلام لا تطرب الكثيرين ، فإن الموسيقى بلا
 موسيقى ، توغر الصدر .
 جلس مع صديق يستمع إلى عازف كمان ، كان أقل من المتوسط
 فقال لصديقه ، إن هذا العازف ، يعزف كما كان يعزف شيكسبير ،
 فقال الصديق :
 إن شيكسبير لم يكن يعرف العزف !
 فقال توين ، ولا هذا أيضاً . . . ! . . .

بوب هوب :

لقد بلغ من مكانة هذا الممثل الفكاهي الكبير في قلوب مواطنيه ، أن الكونجرس الأمريكي - أيام أزمة كوبا - وجد لديه من الوقت ما يسمح بأن يناقش ضرورة منح وسام ذهبي لبوب هوب واعتباره كما لو كان معلماً من معالم أمريكا ، تفيض فكاهاته على المجتمع بالسعادة والاستبشار.

لم يجد ما يعبر به عن إعجابه بالتمثلة الأسرجية الفاتنة ، أبلغ من أن يقول : « إن والدي أنيتا يستحقان جائزة نوبل للهندسة »

وكان يقول عن زوجته الحسنة (دولوريس ريد) التي مضى على زواجه منها ثلاثون سنة ، إن ثلثها أيرلندي ، والثلث الثاني إيطالي ، والثلث الأخير جهاز لكشف الكذب !

ولم يصل في تعليمه إلى أبعد من السنة الأولى الثانوية . وبرغم ذلك فقد منحته جامعة جورجيتاون درجة علمية فخرية تقديراً لعمله المستمر . ولما قدموا له براءة الدرجة العلمية المكتوبة باللغة اللاتينية ، قال : إني شديد الלהفة على العودة إلى المنزل لكي يقوم ابني المتخرج من الجامعة نفسها ، بترجمة مضمون البراءة .

وابني هذا ، بوسعه أن يكتب إلينا ، من أي مكان هو فيه بخمس لغات مختلفة ، ليطلب نقوداً

ومن أقواله : لقد قلقت جداً لكثرة ما قرأت من المقالات والأبحاث عن ضرر التدخين وما يعقبه من ويلات بصحة الإنسان ، مما جعلني

أتوقف تماماً عن قراءة الصحف

في أثناء مرور بوب هوب بميكسيكو عرفوه بمصارع الثيران المحلي الشهير في المنطقة ، وقد قال لبوب هوب بكل ثقة واعتزاز واعتداد :
إنك تصافح من قابل أكثر من أربعمئة ثور . . فرد عليه بوب
يقوله : إنك ولا شك تثير غيرة كل البقر في مكسيكو . . .

وهو يروى عن الممثل الفرنسي الشهير جان - بول - بلموندو ،
أنه عندما كان ضيفاً على صديقه الممثل جان - كلود ، صادف عند
دخوله المنزل كلباً ضخماً استقبله بنباح متواصل ، فتردد بلموندو في
الدخول ، فصاح مضيفه كلود :

تقدم ولا تخف ! ألا تعرف المثل القائل ، إن الكلب الذي ينبع
لا يعض !

فأجابه بلموندو : أنا أعرف هذا المثل ، ولكن هل كلبك يعرفه ؟ . . .

* * *

إخوان ماركس :

لقد ظل الإخوة الثلاثة : تشيكو وهاريو وغروتشو يسيطون ظلهم
على السينما الضاحكة في أمريكا طوال عشرين عاماً .
في أحد أفلامهم قدّم غروتشو قلم الحبر إلى تشيكو ليوقع به على عقد
عمل . فيجيبه أخوه تشيكو

ولكني لا أعرف الكتابة !

فيقول له أخوه : لا بأس ولا أهمية لذلك ، فليس في القلم حبر .

عندما كان الإخوة ماركس في المكسيك لحضور مهرجان سينمائي ،
وكانوا ضمن وفد هوليورد ، جاء رئيس تشريفات القصر الجمهوري
وأبلغهم الرسالة التالية :

يشرفني كثيراً أيها السادة ، أن أنقل إليكم أن رئيس الجمهورية
سيستقبلكم غداً في الساعة الخامسة .
فما كان من غروتشو إلا أن قال :
ونحن كذلك . . .

وعندما رأى الممثلة مانسفيلد ذات الصدر الرائع قال :
إن حياة الممثلة تبدأ عندما تجد صعوبة في إدخال ثديها داخل
البلوزة . . وتنتهي حياة الممثلة عندما لا يعود في استطاعتها أن تحشر
نفسها في جونيلتها . . .

وكان غروتشو دائم الشكوى من الأميريزاريو (وهو المتكفل بتقديم
ممثليه للفيلم والتعاقد معهم مقابل نسبة له) .
وقد قال مرة إنه أوصى في وصيته بأن تحرق جثته ، على أن يُعطى عشر
كمية الرماد إلى (الأميريزاريو) طبقاً للعقد الموقع فيما بيننا

* * *

والآن ، سوف نتجول في رحلة أخرى ، نجوس خلالها بين مختلف
المهن والوظائف ، لنلتقط الفكاهات الذائعة من أهل كل مهنة ، والتي
تم عن خفة روح قائلها ، مهما كانت مراكزهم ، فالقافية كما يقولون ،
تحكم .

سأل السائح الأمريكي الذي يريد أن يعبر بحيرة طبرية صاحب

زورق عن أجرة العبور بالزورق .

- مائة دولار !

- إنه مبلغ مرتفع

- يمكن يا سيدى أن يكون المبلغ مرتفعاً ، ولكن تذكر يا سيدى أن البحيرة تاريخية وأن السيد المسيح سار على الماء ههنا . . .

فقال السائح الأمريكى :

لا عجب . . . فهو عندما رأى أسعاركم الفاحشة ، فضل أن يلجأ إلى وسائله الخاصة . . .

الفكاهة بين الموسيقيين :

يروى ملك الجاز (لويس أرمسترونج) أنه كان فى مطلع حياته فى حال من الفقر لم تسمح له بأن يمتلك ساعة من أى نوع . فكان إذا أراد أن يعرف الساعة فى الليل يلجأ إلى آلة الكورنيت ليعزف عليها بالنفخ العالى الذى يوقظ من غير شك أحد الجيران ليقول له :

« ألا تنجلى من العزف فى الساعة الثالثة صباحاً » .

كان أحد الموسيقيين الأمريكيين (جورج آلتنى) ابتكر عرضاً للباليه يتفق مع المعيشة الآلية المعاصرة ، فاستخدم فى الأوركسترا عشرة بيانوات أفقية الأوتار وستة من آلات تحدث الصوت بمطارق تطرق على قضبان من الخشب وصفارة إنذار وجرس من أجراس رجال الإطفاء ومروحة طائرة وبضعة أبواق سيارات نفخية . فلما تزايد العزف عنفاً ، أخذ الحاضرون يتململون ويتذمرون ، وقد شاع بينهم الهياج ، واستمر الحال

ثماني دقائق على هذا الحال وإذا برجل من المشاهدين يجلس في المقاعد الأمامية يرفع منديله الأبيض على رأس عصا ، فانفجر المشاهدون في الضحك وسكت العزف

كان أحد مديري المسارح الاستعراضية الموسيقية في مارسيليا ، خفيف الروح حاضر البديهة . وكان مسرحه يعرض استعراضاً فاشلاً وكان المشاهدون في الصالة يعدون على الأصابع ولكنهم أخذوا يصيحون ويهتفون ويحدثون جلبة عالية ، فما كان من مدير المسرح إلا أن دخل في المكان المخصص للملقن ورفع صوته موجهاً القول للجمهور قائلاً :
ليعلم الجمهور أننا نحن عمال المسرح أكثر منكم عدداً ، فاحذروا عاقبة ما تصنعون . . .

الهكاهة بين السياسيين :

كان تاليران رجل الدولة الفرنسي ومن أدهى رجال السياسة والدبلوماسية في فرنسا وشغل منصب وزير الخارجية أكثر من مرة ، من أكثر الناس ظرفاً ، ولقد تعرض كثيراً للسخرية من أجل عرجه .
لقد أحسنت وصفه مدام ده ستال ، وكانت معجبة لحسناته وسيئاته على السواء ، عندما قالت في وصفه :
موريس هذا الطيب ، يشبه كثيراً الدُّمى الصغيرة التي تمثل الجنود ويلهوها الأطفال . . . رموسها من فلين وسيقانها من رصاص ، مهما قلبتها ، فإنها دائماً تقف على أقدامها
وهي تقصد أنه بالرغم من تاريخه الثوري استطاع أن يحظى بتقدير الملكية ...

سألته ذات يوم سيّدة في عينيها حوّل ، وهي تُعرّض بعرجه لإيلامه :
كيف تسير الأمور ؟

فأجابها على الفور : كما قرّين !

عندما اشتدت العلة على تاليران ، ولم يكن على تفاهم مع رجال
الأكليروس ، قال أحد رجال البلاط في حضور الملك لويس الثامن عشر :
لا أدري ماذا يستطيع تاليران أن يصنعه مع الكهنة لتنظيم المآتم :
فقال الملك : لا نخوف عليه ، فإن تاليران قد عرف كيف يعيش ،
ولا بد أنه سيعرف كيف يموت !

عندما أعلن الملك لويس الثامن عشر عن صدور دستور جديد
كان على المتخصصين أن يسرعوا في وضعه ، وعند عرضه على الملك
استشار تاليران رئيس الحكومة المؤقت آنذاك ، فقال تاليران :
إني ألاحظ ثغرة في مواد الدستور .

فسأله الملك عن أي ثغرة تكون ، التي لاحظها .

فأجاب تاليران بأن النص الخاص برواتب أعضاء المجلس النيابي
جاء مخلوّاً من تحديد أي مرتب لهم

فقال الملك : ذلك لأنني أريد أن أدفع مقامهم في نظر كل الجهات
والجميع فقال تاليران : هذا صحيح بامولاي . . . ولكن المجانية دائماً
تكلف كثيراً

* * *

عندما انتهت مدة رئاسة أرمان فالير (١٩٠٦) للجمهورية الفرنسية ،
سلم مقاليد الحكم لخلفه في الرئاسة ريمون بوانكاريه .

وقد قال له وهو يصافحه :

المنصب لا بأس به ، ولكن ليس به مجال للتقدم والترقى !
من أقوال جاستون دويرج :

نحن نحسب وعودنا مجاملات ، في حين يعتبر المرشحون الذين
انتخبونا أن مجاملاتنا وعوداً .

كان ميلران رئيساً للجمهورية في ظل الجمهورية الثالثة . وكان
سيئ الحظ فقد هاجمته جميع الأحزاب وانتقدت الحكم في عهده .
وعندما كان يمر يوماً في حي من الأحياء سمع هتاف الجمهور في الشارع :
(يحيا ميلران !) . فتمتم لنفسه :

هذا أمر غريب ومثير للعجب أما يزال في باريس أناس لا
يطالعون الصحف !

حدث في مارسيليا عندما كان جنرال دييجول يستعرض قادة قوات
فرنسا الحرة ، أن قدموا له عشرة بين كولونيل وقومندان من المحليين
وكانت الأشرطة الجديدة تلمع على أذرعهم وأكتافهم بيريقها .
وعندما بلغ آخر الصف ، رأى جندياً برتبة سرجان ، فتقدم منه
دييجول قائلاً ، ألم تزل جاويشاً ؟

لماذا يا بني ! ألا تحسن الخياطة . . . !

في آخر عام ١٩٥٩ طلب أحد نواب الجمعية الوطنية مقابلته ليقول
له : إن أصدقائي لا يوافقونك على سياستك في الجزائر .

فأجابه دييجول بكل ازدراء : استبدلهم . . !

كان دييجول يحادث أحد السفراء الأجانب عن صعوبة إيجاد



متضامن فرنسا ، واحتد في حديثه ثم صاح قائلاً :
 كيف السبيل إلى حكم بلاد فيها ٢٥٨ نوعاً من الجبن . . . !
 تولى رئاسة الجمهورية في فرنسا عام (١٨٧٩) جول جريش وكان
 طيب القلب مرحاً ولكن كانوا يعيرون عليه شدة بخله .
 وقد روى عنه الصحفي هنرى روشفور في (الأنترانزيجان) القصة
 التالية :

« ألقى القبض على شاب في ملابس السهرة الرسمية ، حوالي
 الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، متلبساً بسرقة رغيف خبز من فرن
 كان ساعتها يفتح أبوابه ، فلما استجوبه رجال الشرطة ، أجاب :
 « إنها حالة الضرورة القصوى Force Majeur فقد كنت أتناول العشاء
 على مائدة رئيس الجمهورية !
 فأطلق البوليس سراح المسكين على الفور !
 وقيل إن من كان في المخفر قاموا بجمع مبلغ قدموه إليه ليسد
 به رمقه ، بعد جوع شديد »

الفصل التاسع

أعلام الفكاهة عند العرب

العرب أمة غنية بأفانين القول ، حتى لقد تضمنت علومهم علماً ،
أطلقوا عليه اسم (علم الكلام)

وهم في جميع أطوار حياتهم ، كانت الفكاهة على ألسنتهم تجري
وتفيض كأنها النهر الثرى .

فلقد رزقهم الله بسطة في سرعة الخاطر ، وحضور البديهة . وكانوا
كلما ارتقوا في حياتهم ، ارتقت فكاهاتهم ، ثراً وشعراً ورجزاً ، وانتشرت
وذاعت وملأت قصور الخلفاء والأمراء ، وتناقلها المولعون بحفظ هذا اللون
من الآداب في كتب ومصنفات عديدة .

وكلما فاضت الرفاهية في القصور العامرة بكل غالٍ وثمين ، ملأت
الفكاهة والمجون تلك القصور بما كان يتطلبه العصر من فنون القول الجميل
المختار المفرح الباعث على الاستبشار .

وكثر في بلاط كل خليفة أو أمير ، المشتغلون بوظيفة ابتعاث الضحك
وبمهمة الإضحاك ، إلى جانب ما كان يزخر به البلاط من فائتات شاعرات
عازفات راقصات ، كن هن دوافع الفكاهة والضحك وبواعث المرح
والحبور .

وكان يطلب من الشعراء القول المرتجل في عازفه أو جارية ، ويجزى الشاعر إن أحسن .

قال أبو العتاهية في مجلس من هذه المجالس شعراً في جارية :
 لم يُبق مني حبيها ما خلا حشاشة في بدنٍ ناحل
 يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
 والعرب ، وأهل الفكاهة والظرف منهم بصورة خاصة ، أكثر الناس اختصاراً في القول ، وأدقهم في إحصاء المهدف وأوضحهم في عرض الشئون ، وألمسهم بموقع الداء .

حلت فاقة قاصمة بالشاعر أبي الشمقم وهو الظريف الفطن . وقد لزم داره بعد أن رثت ثيابه وبلبت وأشفق من أن يقابل بها في الطريق أحد معارفه . وقد زاره صديق وراح يخفف عليه بقوله : إن العارين في الدنيا ، هم الكاسون في الآخرة .

فقال : إن صبح ذلك فسوف أكون صاحب محل قماش يوم القيامة . . واختصار القول في النكتة أعظم من أي باب آخر . لأنها تقال لإصلاح حالة أو علاج أمر ينقده والتهكم عليه والسخر منه سخيرية للذع ولا تجذع ، وبإيجاز كأجزاء الرواء ، محسوبة مقاديره وموازينه ، حتى لا تزيد على العليل علته ، ولا تثقل عن وزن (البرشامة) حتى لا يصدعها المريض ، أو يحسن مرارتها بعد أن طواها غلاف رقيق .

* * *

وكان (كارليل) يقول في كتابه (الأبطال والبطولة) إن الأقدمين كانوا أسرع إلى إدراك الحقائق منا نحن . . وكانوا بدلاً من اللغو واللغظ في

شأن الكائنات ، ينظرون إليها وجهاً لوجه .

أولئك كانوا أفهم لآيات الله في كونه ، وأدرك لسره في خلقه . .
وربما صح هذا القول في العرب عن غيرهم من الأمم . وقد يرجع إيجازهم
في القول إلى انشغالهم بشئون الحياة العسيرة التي كانوا يحيونها في بداوتهم
الأولى ، فهم في شغل بمطالب العيش ومطالب الحياة ، والعمل الدائب
على رد عدوان الطبيعة وبنى البشر عنهم على وجه الدوام .

مرّ أعرابي ضرير على حى من الأحياء وكان يردد قوله :
آه لو أدركتم مصيبة العمى
وسمعه أعور فقال له .

إني أدركت نصف المصيبة . .

ومنعاً من أن ينفرد بين أيدينا عقد الحديث عن أعلام الفكاهة عند
العرب . وخوفاً من أن نضل بين مسالك القول ، نبدأ في هذه الجولة مع
القارئ ، بذكر نماذج لأعلام الفكاهة والظرف والإمتاع عند العرب ،
ثم نأتي على الأبواب التي كانت هدفاً لسخرياتهم ولواذع كلامهم
ونواديرهم ، مع كثير من أهل الحرف . ونختم جولتنا بمتفرقات لا تخضع
لباب معين أو يشملها تحديد موصوف

* * *

كان الجاحظ أطولهم باعاً ، وأغزرهم علماً ، وأعمقهم رأياً وفكرة .
وقد أتينا على ذكر كثير من أقواله فيما مرّ بنا .

ونعرض فيما يلي إلى أبي دلالة وأشعب وأبي العبر ، دون أن نطيل القول
عملاً بحب العرب للاختصار ، كلما وجب الاختصار .

وزعموا أن الحجاج خطب فأطال ، فقام رجل من الحضور فقال :
 الصلاة ! ، فإن الوقت لا ينتظرك ، والله لا يعذرک . فأمر الحجاج بحبسه .
 فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون ، وسألوه أن يُخلى سبيله . فقال الحجاج لهم ،
 إن أقرّ بالجنون خلّيته . فقال الرجل لأهله : معاذ الله . لا أزعّم أن الله ابتلاني
 وقد عافاني . وبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .

أبو دلامة :

دخل الشاعر أبو دلامة ذات يوم على المهدي في مجلسه وعنده جماعة
 من بني هاشم ، فبادره الخليفة بقوله :

إن لم تهج أحداً ممن في هذا المجلس يا دلامة ، لأقطعن لسانك .
 فجال أبو دلامة ببصره في القوم ، وحرّ في أمره ، فصار كلما نظر
 إلى واحد غمزه وأفهمه أن عليه رضاه . . فما كان إلا ليزيد في حيرته ،
 حتى رأى أن أسلم ما يفعله هو أن يهجو نفسه فقال في ذلك :

ألا بلغ لديك أبا دلامة	فلست من الكرام ولا الكرامة
جمعت دمامةً وجمعت بؤساً	كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت قرداً	ونختريراً إذا نزع العمامة

* * *

وعندما هبط المهدي العراق ، كان أبو دلامة بين من امتدحوه من
 الشعراء . فقد قال :

إني نذرت لئن رأيتك قادماً	أرض العراق وأنت ذو وفر
لتُصلِّين على النبي محمد	ولتمسلان دراهماً حجري

فقال المهدي : صلى الله عليه وسلم

فقال أبو دلالة :

ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية . . فأمر له ببذرة صُبت في حجره .

كان أبو دلالة يكره عليّ بن سليمان . واتفق أن خرج المهدي في رحلة إلى الصيد وكان أبو دلالة وابن سليمان يرافقانه . وقد اصطاد المهدي ظيأً واصطاد عليّ كلباً من كلاب الصيد التي كانت تصاحبهم . وكانت فرصة مواتية سرعان ما انتهزها أبو دلالة ليقول :

قد رمى المهديّ ظيأً شك بالسهم فـؤاده
وعلى بن سليمان رمى كلباً فصابه
فهنيئاً لهمـا كلّ فتى يأكل زاده

ولد لأبي دلالة ابنة ليلا ، فأوقد السراج وجعل يخط رقعة على هيئة وعاء من جلد رقيق ، فلما أصبح طواها بين أصابعه واستأذن في الدخول على المهدي فأذنوا له فأنشده شعراً يمتدح فيه آل عباس وأقعدهم فوق شعاع الشمس .

فاستحسن المهدي ما أنشد ثم سأله :

ما الذي غدا بك إلينا ؟ قال : ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين . فسأله إن كان قال فيها شعراً ؟ فأجاب منشداً ؟

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء إلى أولادهـا وأبّ لثيم
فسأله المهدي وهو يضحك مما قال : بماذا أعينك على تربيتها ؟

فقال أبو دلامة : أن تأمر بملء هذه الرقعة مالا . فاستصغر المهدي الرقعة فقال أبو دلامة : إن من لا يقنع بالقليل لا يقنع بالكثير ، ثم فرد الرقعة المطوية وإذا بها تملأ صحن الدار فضحك المهدي وأمر بأن تملأ مالا كما وعد . .

* * * *

أشعب :

كان - كما قال مؤرخوه - أحلى الناس مفاكهة . وكان أهل المدينة يقولون : تغير كل شيء على وجه البسيطة إلا مِلَحَ أشعب .

قيل لأشعب : كم كان أصحاب النبي عليه السلام يوم بدر قال : ثلثمائة وثلاثة عشر رطلاً . .

فقد أحصاهم بما كانوا يحملون من مؤونة الجيش . للأكل . .

وسأله إحدى صديقاته أن يشتري لها خاتماً لتذكره به .

فقال لها : اذكرى أنك سألتني خاتماً فمنعتك . .

كان يساوم بائع سهام على سهم اختاره فقال البائع : أبيعك بدينار .

فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت به طائراً وقع مشوياً بين رغيفين

ما اشتريته بدينار . .

قيل لأشعب : لو أنك حفظت الحديث حفظك النوادر لكان أولى

بك . فقال ، لقد فعلت .

فسألوه : فماذا حفظت من الحديث ؟

قال : حدثني نافع عن ابن عمر ، وفي رواية أخرى عكرمة عن ابن

عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : من كان فيه خصلتان
كُتِبَ عند الله خالصاً مخلصاً .

قالوا : إن هذا حديث حسن . فما هما الخصلتان ؟

قال : نسي نافع واحدة ، ونسيت أنا الأخرى . .

سئل أشعب ، إن كان رأى من هو أطمع منه فأجاب :

أجل . كلبة قوم شاهدتها تتبع شخصاً يمزغ علكاً وابتعدت ما يزيد
من الفرسخ في أمل أن يرمى لها بشيء مما يأكل . .

أهدى رجل من بني لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجاً (بالوظة)
وكان أشعب عنده ، فدعاه إلى الأكل منها ففعل . فسأله إسماعيل
كيف وجدها ، فقال :

امرأتى طالق إن لم تكن قد عملت قبل أن يوحى ربك إلى النحل
(لخلوها من السكر) .

كان أشعب يختلف إلى جارية في المدينة ويظهر لها العشق . إلى أن
سأله يوماً سلفة نصف درهم فانقطع عنها . . وكان إذا لقيها في الطريق
سلك طريقاً آخر . فصنعت له نشوقاً وأقبلت عليه ، فسأها : ما هذا ؟
قالت : نشوق عملته لك لعله يذهب عنك هذا الفزع الذي ألم بك فقال
أشريبه . إنه للطمع ، فلو انقطع طمعك انقطع فزعي وأنشد :

اخلفني ما شئت وعدى	وامنحيني كل صد
قد سلا بعدك قلبي	فاعشقي من شئت بعدى
إنني آليت لا أعشق	من يعشق نقدى

أبو العبر :

كان أبو العبر ظريفاً ، بارع الحيلة ، مولعاً بقلب المعاني والألفاظ شعراً ونثراً . . . وقد كتب ذات يوم إلى أحد أصدقائه :
أما بعد ، فأحكم بنيانك على الرمل ، واحبس الماء في الهواء ، حتى يفرق الناس من العطش ، فإنك إن فعلت ذلك أمرت لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ، بعد خصم سبعة دوايق من كل درهم (أى أنه لا ينال من ذلك دانقاً واحداً)

وكان أبو العبر هذا يتردد وهو حدث مع أترابه على رجل يعلمهم الهزل ، فيقول لهم : إن أول ما تريدون ، قلب الأشياء . فكانوا يسألونه إذا أصبح : كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وكان إذا دعاهم إليه بقوله : تعالوا ، تأخروا إلى خلف . .

وكان لهذا الرجل أرزاق تتطلب كتابات لها في كل سنة . فكتب مرة كتاباً وأبو العبر معه . فلما فرغ منه ، ووقعه ولم يبق غير الختم ، قال لأبي العبر ، اجعل عليه التراب ليجف ، وناولته إياه . فمضى هذا فصب عليه الماء فأتلفه . فغضب الرجل وسأله : لماذا فعل ما فعل ؟ فأجاب أبو العبر ما نحن فيه طول النهار من قلب الأشياء . .

فكان رد الأستاذ المعلم المسكين :

والله لا تصحبنى بعد اليوم فقد أصبحت أستاذ الأساتيد

نواذر لظرفاء العرب عن البخلاء :

قال الرسول الكريم : (إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم . والبخل جامع لمساوي القلوب ، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء) .
وقيل : بخلاء العرب أربعة هم : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي ، وخالد بن صفوان .

فأما الحطيئة ، فقد مر به رجل وهو على باب داره ، ويده عصا ، فقال الرجل : أنا ضيف .

فأشار الحطيئة إلى العصا قائلاً : لكعاب الضيفان أعددتها . .
وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان كثير الفحش عليهم . نزل به مرة ضيوف فأطعمهم تمرأ وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه . .
وأما أبو الأسود الدؤلي ، فتصدق على سائل بتمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها . . فقال أبو الأسود لو أطعنا المساكين في أموالنا ، كنا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان فقد أجاب على من سأله : لم لا تنفق ومالك عريض . فأجاب : لأن الدهر أعرض

* * *

استأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل إنه محموم ، فقال :
كلوا بين يديه من طعامه ، حتى يعرق . .

قال الهيثم بن عدي : نزل على أبي حفصة الشاعر ، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ، ثم هرب مخافة أن يلزمه إطعامه في تلك الليلة .

فخرج الضيف ، واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :
 يأبها الخارج من بيته وهارباً من شدة الخوف
 ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفاً على الضيف
 غلب الجوع على امرئ ذات يوم فمضى إلى دار أحدهم ليتغدى عنده .
 فلما وصل إلى باب الدار ، أبصر غلامه ، فسأله عن سيده ، فقال
 الغلام : والله لن أدلك عليه إلا إذا أعطيتني كسرة خبز . . فولى الرجل
 هارباً من فوره . .

رُوى عن بخیل أن ضيفاً استأذن عليه ، وكان بين يديه خبز ، وإناء
 فيه عسل . فسارع إلى رفع الخبز ، وبينما هو يرفع العسل دخل الضيف ،
 فظن البخیل وقد أخذ على غرة ، أن الضيف لن يأكل العسل بلا خبز .
 فسأله إن كان يأكل العسل بلا خبز فأجابه بالإيجاب ، وراح يلحق
 العسل لعقاً . فذعر البخیل وصاح ، مهلاً يا أخى ، والله إنه ليمحرق القلب .
 فقال الضيف :

نعم . صدقت . ولكنه يحرق قلبك أنت . .
 قال بخیل لخدمه : هات الطعام وأغلق الباب فقال العبد الرقيق :
 هذا خطأ يا مولاي . . وإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام .
 فسر منه سيده وقال :
 أنت حر لوجه الله ، لوفرة معرفتك . . .

نواذر ظرفاء العرب عن المغفلين :

اختصمت بنو طفاوة وبنو راسب في رجل ، ادعى كل فريق أنه منهم . فقال هنبقة (وقد تكون (هنبكة) المسموعة هذه الأيام ، مشتقة من اسمه) . . قال ، نلتى به في الماء ، فإن طفا فهو من طفاوة ، وإن راسب فهو من راسب . . فقال الرجل : إن كان ذلك حكمكم فليست من الطائفتين . .

ومن لطائف المنقول عن المغفلين ، أن أعرابياً صلى خلف الإمام في الصف الأول ، وكان اسم الأعرابي مجرمًا . فقرأ الإمام : « والمرسلات عُرفاً » فلما بلغ إلى قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » تأخر الأعرابي إلى الصف الأخير . ثم قال الإمام « ثم تتبعهم الآخريين » فرجع إلى الصف الأوسط ، ووصل الإمام إلى قوله : « كذلك نفعل بالمجرمين » . فولى صاحبنا هارباً وهو يردد . والله ما المطلوب غيرى ! . .

سأل حمزة بن بيغى يوماً غلامه وكان أحمق : أى يوم صلينا الجمعة بالرصافة . ففكر الغلام طويلاً ثم أجاب : كان في الأغلب يوم الثلاثاء ! . .
خرج جماعة من بنى غفار في البحر ومعهم رجل مغفل . ففاجأتهم عاصفة هوجاء يشسوا معها من الحياة ، فأعتق كل واحد منهم مملوكاً أو مملوكة . أما ذلك المغفل فقال : اللهم أنت تعلم أنه ليس لى مملوك ولا مملوكة ، ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم . . .
ضرب واحد من شريكين في عمل ، عبداً لهما . فلما أنكر عليه شريكه ضربه للعبد ولامه في ذلك ، كان رده :

كنت أضرب في حصتي . .

روى الجاحظ قال : مررت بمعلم كُتاب من الحمقى وهو يقرئ صبيّاً : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . . » فقلت له : ويحك قد أدخلت سورة في سورة ! . فقال إذا كان أبوه يدخل شهراً في شهر (يُغالط) فأنا أيضاً أدخل سورة في سورة . ومادمت لا آخذ شيئاً ، فلن يتعلم ابنه شيئاً ! . . قال حيّان بن غصبان العجلي ، وقد ورت نصف دار أبيه : أريد أن أبيع نصف حصتي من الدار ، وأشتري الباقي ، فتصير الدار كلها لي . . ومن ظريف ما يروى عن الحمقى والمغفلين ، أن أحدهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة ، وكان قد نما خبر بأن المهدي قد مات ، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك . فقال الرجل رافعاً صوته بين الحضور : « مات الخليفة أيها الثقلان . . » فقالوا هذا أشعر الناس ، فإنه نعى الخليفة إلى الإنس والجن في نصف بيت (سورة الرحمن : سنفزع لكم أيها الثقلان)

ومدّ القوم أبصارهم وأسماعهم إليه فقال :

« فكأنني أفطرت في رمضان »

فضحك الناس واشتهر بينهم بالحمق . .

وصلّى أعرابي خلف إمام صلاة الصبح ، فقرأ الإمام سورة البقرة .

وكان الأعرابي مستعجلاً ففاته مقصوده . فلما كان من الغد بكر إلى

المسجد فأخذ الإمام يقرأ سورة الفيل .

فقطع الأعرابي الصلاة وولىّ هارباً ، وهو يقول :

« بالأمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف نهار . واليوم
تقرأ سورة الفيل ، فما أظنك تفرغ منها إلى الليل » . . .
سمع أحد الحمقى أن صوم يوم عرفة يعدل صيام سنة ، فصام إلى
الظهر وقال : يكفيني ستة أشهر . . .

* * *

قال رجل لحكيم : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل
الثقيل . فأجاب الحكيم : لأن الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد في
حملة ، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله

دعت فتاة حبيبها أبا الحارث وتحدثت إليه ساعة من الزمن ، فأحسَّ
بالجوع فطلب طعاماً . فعجبت لطلبه قائلة : أليس في وجهي ما يُلْهِيك عن
الأكل ؟ فأجابها : جعلت فداءك ، لو أن جميلاً وبشينة لبثا معاً زمناً
لا يتناولان فيه طعاماً لأنشب كل منهما أظافره في وجه صاحبه . . .

بنى بعض أكابر البصرة داراً ، وكان في جواره بيت لعجوز لا يساوي
أكثر من عشرين ديناراً . وكان محتاجاً إليه في توسيع الدار . فبذل لها
فيه مائتي دينار فلم تبعه . فقيل لها إن القاضي سوف يحجر عليك بسفهلك ،
حيث ضيعت مائتي دينار ، لما يساوي عشرين ديناراً .

قالت : لم لا يحجر على من يشتري بمائتين ما يساوي عشرين ديناراً ؟
فأفحمت القاضي ومن معه ، وتركوا البيت لها حتى ماتت .

حمل إلى المأمون رجل ادَّعى النبوة ، فقال له :

ألك علامة على تنبؤك ؟

قال : إني أعلم ما في نفسك .

فقال له المأمون : وماذا فى نفسى ؟

فقال فى نفسك أنى كاذب .

فأمر المأمون بسجنه بعد أن قال له إنه صدق فى قوله . وأقام بضعة أيام فى السجن ، أخرج بعدها وجاعوا به إلى الخليفة الذى سأله :
هل أوحى إليك بشيء وأنت مسجون ؟

- لا

- ولم لا ؟

- لأن الملائكة لا تدخل السجن . فعفا عنه الخليفة . . .

قيل لأحد البدو من الأعراب ، بعد أن قدموا إليه مرقاً : ما اسم المرق
عندكم ؟ قال : السخين . فقيل له ، فإذا برد . فأجاب : وكيف ندعه
يبرد ؟

قُدِّمَ لأعرابى باذنجان وكان يكرهه ، فلم يرقه طعمه ، واضطر لأكله
مرغماً . ولما قامت الصلاة سمع الإمام يقرأ ، « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ
وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَتِيرِ » فقال الأعرابى ، والباذنجان . . لا تنسه أصلح
الله شأنك . . وقالوا له إنه يحلو إذا كان محشواً لحماً وأرزاً فقال سيقى
كما هو ، حتى لو حشوه توبة ومغفرة . .

روى الجاحظ أن سائلاً وقف بقوم وقال لهم إنه جائع ، فكذبوه ،

فقال لهم :

- جربونى فى رطلين من اللحم مع رطلين من الخبز . .

اشتهر لص باسم (البازى الأشهب) على عهد المعتمد بن عباد
ملك إشبيلية . وكانت له فى السرقة كل غريبة . وكان مسلطاً على أهل

البادية ، وبلغ من براعته أنه سرق وهو مصلوب ، ذلك أن ابن عبّاد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا إليه . فبينما هو على خشبته على تلك الحال ، إذ جاءت إليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقلن : « لمن تركنا نضيع بعدك » .

وإذا بيدوى على بغل ، وتحت حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدى ، أنظر فى أى حالة أنا . ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك . فسأله الرجل : وما هى ؟

قال : أنظر إلى تلك البشر ، لما أرهقتنى الشرطة ، رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال فى إخراجها . . وهذه زوجتى وبناتى بمسكن بفلك فى أثناء ما تخرجها .

فعمد البدوى إلى حبل ، ودلّ نفسه فى البشر ، بعد ما اتفق على أن يأخذ النصف منها ، فلما وصل أسفل البشر قطعت زوجة السارق الحبل ، وبقى البدوى حائراً يصيح ، وأخذت الزوجة البغل وفرت مع بناتها . ولما سبّب الله له شخصاً أنقذه : سأله عن حاله ، قال : « هذا هو الفاعل ، احتال علىّ حتى مضت زوجته بأثوابى وأسبابى »

ورفعت القصة للمعتمد فأحضر البازى الأشهب وسأله : كيف فعلت هذا وأنت فى قبضة التهلكة .

فقال له ، يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة ، خلّيت ملكك واشتغلت بها . ومازال به حتى أصلحه وضمه إلى حرسه .

مما مر بنا من نوادر ظرفاء العرب ، فى عيوب ألت بمن حولهم ، فسلبوا عليهم أنماطاً من القول المنشور ، أو الشعر المنظوم ، نلمس مبلغ ما

نوفر للعرب من قدرة على جس موضع الداء ، وتحليل مآتاه والتندر بما وعاه ،
في اقتدار تقصر عنه الكاميرا والكاريكاتير .

أما الكاميرا فلأنهم يرسمون صورة واضحة مطابقة لأصل صاحبها
ويرسمون معها ما حولها ، في حين تعجز الكاميرا الحقيقية عن رسم
أكبر من الشخص .

وأما الكاريكاتير فلأنهم أتقنوا إتقاناً فطرياً فن المبالغة ، الذي هو
قوام الكاريكاتير ، كما أتقنوا فن المفارقة ، الذي هو قوام الضحك ،
فجمعوا بذلك عناصر فن المفاكهة التي تطير من خفتها بجناحين من
مفارقة ومبالغة ، لتشيع الفرحة في قلب من يستمع إلى رفيف هذه الأجنحة
الطائرة ، المحلقة في جو المجون .

ولعل من يتمعن في هذه النوادر جميعاً ، سوف يعثر على سلك
رفيع يتخللها كلها ، ما كان منها رواية واقع ، أو رواية خيال ، وسوف
يشهد من خلال تحليله أو تعليله ، بدائع من سرعة الخاطر ، وروائع
من ذكي البدائه ، التي تنقذ صاحبها إن حل به ضيق أو وقع في حيرة .



الفضل العاشر

أعلام الفكاهة في مصر

كانت مصر ولم تزال ، منبع النكتة ومقيل الفكاهة . ومثلما يجري النيل ويشق أرض الوادي ، ويفيض على جانبيه بالخير والبركات ، كذلك كانت النكتة المصرية ولم تزال ، ثرية ذكية ، تروى البعيد والقريب ، وتتناقلها بلدان عربية قريبة وبعيدة .

كنت أصطاف في العشرينات (١٩٢٧) في لبنان وسوريا . وكان المصريون الذين يصطافون في هذين القطرين الشقيقتين ، يعدون على الأصابع ، ومن القلة إلى حد أن الصحف في مصر كانت تكتب في أظهر مكان منها عن سفرهم وعودتهم وعن تنقلاتهم في البلدين ، كما تكتب الصحف اليوم عن الأقمار الصناعية واتجاهاتها والتحامات سفن الفضاء ، إلى آخر هذا الفتح العجيب .

وكنت ألاحظ أننا حللت في الفندق أو المقهى أو المتاجر ، أنهم يرددون على مسمى جملة ، (إحكى يا مصرى) . ولما استعلمت عن ذلك قيل لى (ولم تكن السينما المصرية قد ولدت ، وإلا لا تقطع عيشى .) قيل لى إن أهل سوريا ولبنان يتعشقون اللهجة القاهرية ، ويستمتعون بها كما لو كانوا يستمتعون إلى سيمفونية .

ولقد قال مؤرخ قديم ، لعله هيرودوت ، (إن من يهبط مجرى النيل فقد هبط مجرى التاريخ) . فقد كان المصريون يعتقدون أنهم بداية الوجود وأنهم نهايته ، فاحتالوا على أن يخلدوا أرواحهم ويحتفظوا بأجسادهم محنطة إلى حين رحلة العودة على متن مراكب الشمس . فإذا كانت قد قامت على هذه الدنيا فكاهة فهم أول من قالوها وأول من ابتدعوها في العالم . وكان سنوحى الكاتب المصرى القديم الذى هرب من مصر خوفاً من فرعون جديد ، لم يكن سنوحى من المقربين إليه ، مثلما كان مع من سبقه ، كان سنوحى هذا عندما عاد إلى مصر مطمئناً إلى الفرعون الجديد الذى منحه الأمان ، كان يكتب فى مذكراته كل طريف وقعت عليه عيناه وهو بعيد عن مصر ، ويعلق على ما يرى بأرشق أسلوب وأظرف عبارة .

وما تزال الصور الكاريكاتيرية التى رسمها القدماء من المصريين على الجدران شاهدة على هذه الروح المرحية بين المصريين منذ القدم . وكانت للفكاهة فى مصر منذ عهد المماليك والأتراك والخديويين ، قدم راسخة وباع طويل .

وكانت تقام منذ أكثر من مائة عام ، ندوات كثيرة فى المنابر (التى تمثل صالونات العصر الحديث) وفى قصور آل البكرى وآل راتب وآل عبد الرازق وآل المويلحى ودار إسماعيل صبرى باشا وفى مقاهى اشتهرت بمن كان يؤمها (مثل قهوة متاتيا وقهوة البورصة وقهوة المعلم ومقاهى باب المخلق وسيدنا الحسين) من شعراء وأدباء وكتاب وصحفيين وسياسيين ، كانت بمثابة حلقات للدرس والمعرفة ،

حيث كان الحديث فيها يحفل بالنادرة الجميلة وبالفائدة الجليلة .
وربما كان للكبت في عهود الاستعمار والاستبداد ، فضل كبير
كفضل الكحل على العين في براعة المصريين في إخراج النكتة وإطلاقها
في حجم مناسب ووقت مناسب وإصابة لا تخيب .

ومنذ قديم كان أصحاب النكتة في مصر يتشعبون إلى فريقين :
فريق من المحترفين طلاب القوت والرزق مثل أحمد الفار وكامل الأصلي
ومحررى الصحف الفكاهية كالسيف والمسامير والصاعقة والشباب ،
وحديثاً مثل حسين الفار وسلطان وغيرهم ، وفريق من الهواة من مشاهير
الأدباء والشعراء والوجهاء أمثال الشيخ على الليثى ، ومحمد الدرويش ،
والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم ونعمان الأعسر باشا والدكتور بكير
ومحمود رشاد باشا والدكتور محمد رأفت وحسن بك رضا المحامى ومحمد
بك المويلحى ومحمد بك البابلي وحفنى ناصف وعثمان جلال ، وعبد الله
النديم وإمام العبد ، والمستشار سليم زكى بك .

وكان شوقى وإسماعيل صبرى ينظمان فكاهاتهما شعراً .

ثم ظهرت طبقة أحمد رامى وإبراهيم ناجى وأم كلثوم وحسين الترسى
ومحمد دبشة .

ثم ظهر فى عصرنا الحالى رجيل ضخم أذكروهم بلا ترتيب أو تقديم
منهم أحمد بهجت وأحمد رجب ومحمد عفيفى وفكرى أباطة وعباس
الأسوانى وزكريا الحجاوى ومأمون الشناوى ومن هؤلاء من يرتجل النكتة
ومنهم من اختار الكتابة الفكاهية ذات الصور القلمية البارعة النابضة
بالحركة والحياة ، طريقاً له .

ومن شعراء الفكاهة امتاز بيرم التونسي (مولير مصر) وحسين شفيق المصري (صاحب المشعلقات في شعره الحلمتيشي) ورمزي نظيم وسعيد عبده وحسين الطنطاوي وإمام الصفطاوي .

وهؤلاء الشعراء تأثروا بمن سبقهم أمثال الشاعر الكاتب الصحفي الساخر يعقوب صنوع صاحب مجلة (أبو نضارة) وغيرها ، وأمثال إمام العبد وعبد الله النديم .

وعندما نفت السلطات في مصر على عهد الخديو إسماعيل ، يعقوب صنوع ، لجأ إلى فرنسا وأصدر مجلة (أبو نضارة) من باريس . ومن أبرع وأخف ما نشره فيها من الصور الكاريكاتيرية ، صورة للخديو إسماعيل وهو في زي بائع صحف ويبيع صحيفة الأهرام ، كناية عن أنه لم يبق في مصر ما يبيعه إسماعيل سوى الأهرامات .

وعلى يد حسين شفيق المصري شاع الشعر الحلمتيشي الذي كان من فرسانه عبد السلام شهاب وحسين الطنطاوي والصحفي الأديب اللماح عبد الله أحمد عبد الله الذي كان آخر من حرر مجلة البعكوكة قبل اعتكافها . . أو احتضارها . .

وظهرت من الصحف والمجلات الفكاهية في مصر بعد صنوع وإمام العبد وعبد الله النديم ، الكشكول لسليمان فوزي وخیال الظل لأحمد حافظ عوض والسيف والمسامير والصاعقة . وغيرها كثير .

ورُب سائل يسأل : ما الذي يمنع الفكاهة المتناثرة في مختلف الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية في عصرنا الحاضر من أن تتجمع في مجلة فكاهية راقية ، تقدم صورة حديثة للفكاهة في ثوب عصرنا

الحاضر . ولعل هذا الذى يتمناه السائل ، يتحقق فى عهد خلت فيه موانع الحديث فيما يشاؤه الكتاب ، طالما لم يكن فى ما يكتبون مجافاة للقانون .

وإن كان تحقيق ذلك يبدو مستحيلا بعد أن تغيرت الصورة ، وأصبحت للصحيفة أو للمجلة قراء يقرءونها ويتابعون فيها كاتباً بالذات له مَرَبَّعٌ منيف لطيف ، أو صورة كاريكاتورية ، من غيرها لا يعتدل المزاج .

ولعله أن يكون كذلك من المستحيل تحقيقه ، الإحاطة الوافية بأكثر أنباء ظرفاء مصر . وحتى لو استحال ماء البحر مداداً ، وجبال الأرض حبراً جافاً ، وأوراق أشجار العالم ملازم وأغلفة ، لما أمكن تحقيق أنملة من هذه المحاولة .

وفى استطاعتك أن تقول إن تعداد السكان فى مصر يبلغ أربعة وثلاثين مليوناً من الظرفاء وبضعة من الأهالى ، مثلما قال (جيتيه) عندما كان مستشاراً فى بلاط الأمير فردريك ، أحد أمراء المقاطعات الألمانية قبل الوحدة ، الذى كان محباً للشعر والشعراء حتى امتلأت العاصمة (فايمار) بهم . فقد سئل (جيتيه) عن عدد سكان العاصمة ، فأجاب (جيتيه) ، الغريب السائل ، إن تعداد (فايمار) يبلغ عشرين ألفاً من الشعراء وبضعة آلاف من الأهالى .

ولهذا فسوف أكتفى فيما يلى بذكر أنباء وفكاهات من أجمعت الأقلام على التنويه بظرفهم ، على أن أخص بالذكر منهم حسين الترنزى الذى لازمته عشرات السنين وهو - وأقولها بكل ثقة واطمئنان - فارس لا يبارى

فى عالم المجون ، وإمام الفكاهة فى مصر ، فى قديم كان ذلك أوفى حديث
من الزمان .

* * *

حافظ إبراهيم :

من العجيب أن الصبي الذى هرب من بيت خاله ، تاركاً له
هذين البيتين :

ثقلت عليك مؤوتى إني أراها واهية

فأفرح فإني ذاهب متوجه في داهية

والكادح الشقى فى شتى دروب الحياة ، الذى أحاطته الشدة منذ
مولده ، وطوقه البؤس طفلاً وصبياً ورجلاً ، حتى قال عندما لم ينشق
أمامه باب من بين كل ما طرق من أبواب :
سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقت إلا التندما

والذى انطوى على الطوى حتى هتف فى حياء وأسى :

نحن نرضى بالقوت فى هذه الدنيا وإن بات دون قوت النعمان
من العجيب أن قائل هذا الشعر الرصين الحزين ، هو نفسه ، زينة
المجالس ، وبهجة المنتديات ، الذى يفيض على النفوس من أنسه ويمتلئ
المكان الذى يؤمه بالراغبين فى الإفادة من فيض أدبه ورائق سحره
ومؤانسته ، الذى لا تراه إلا ضاحكاً مهما تجهّم وجهه وبدالك عبوساً صارماً .
هو شاعر النيل ، وبلبله الصّداح وكروانه الذى يرسل شعره جاداً

سخياً ندياً ، مُندراً ومحدراً وداعياً إلى أقوم السبل ، وممخضاً أصدق النصيح
لبنى وطنه وللعرب أجمعين .

إنه حافظ إبراهيم الذى نُريك شخصيته الأخرى الباسمة الضاحكة
التي يضحك لها حتى من يتناوله بالمفاكهة . ولا عجب فقد أسبغ الله على
الممتازين من أهل الفنون نعمة التمتع بأكثر من شخصية .

كان وهو فى لبنان ، يلزمه شاعر القطرين ، خليل مطران .
وزارهما فى الفندق الذى يتزلان به ، المطران قطّان . فتقدّم خليل مطران
ولثم يد المطران ، ففعل حافظ مثله ، فتفضل المطران ونخص حافظ
بقبلة فوق جبينه ، الأمر الذى أحسّ أن خليل مطران يحسده عليها ،
فما كان من حافظ إلا أن أمسك بكلتا يديه رأس خليل مطران وقبله
وقال له : مطران باس حافظ ، حافظ باس مطران ، نبى خالصين . .

قال أحد وجهاء لبنان لحافظ : ما السر فى أن خليل مطران ، يحبه
كل الناس .

فأجابه حافظ على الفور : لأنه كالمعصية . . . !

لاحظ خليل مطران على حافظ أنه كان خلال ترجمته لرواية
البؤساء ، تمسكه بيدلة قديمة لم يكن ليبدّلها بغيرها . ولما سأله عن السر
فى ذلك أجاب :

لأن فيها صفتين من صفات الله : الوجدانية والقِدَم .

روى حافظ أنه كان يصحب صديقاً ضعيف بصره واحتاج لرفقة
حافظ إلى وزارة الأوقاف التى كانت تجرى عليه راتباً لسبق عمله بها ،
ولما أصاب بصره من علة تستوجب العطاء .

وعند مغادرتها الوزارة ، تقدم أحد المتسولين وهو يقول لصديقه :
إدبنى شيء لله ربنا ينور لك عينك .

فما كان من حافظ إلا أن صاح في الرجل :

إنت عابزهم يقطعوا عيشه . . . !

التقى به مرة وهو في طريقه إلى مقهاه سائل ملحاح كان يطارده

وهو يقول له : قرش صدقة يا بيه

فأجابه حافظ : عمرك أطول من عمري . . .

ذهب حافظ وخليل مطران إلى حديقة الحيوان بالجيزة .

وعند دخولهما أشار حافظ إلى خليل وهو يقول للحارس :

خلّى بالك أحسن وأنا خارج به تفتكرنى لطشت حاجة من الجنية . . .

وقف حافظ يوماً يلتقى قصيدته في رثاء عبد الخالق ثروت باشا وكان

الجمع حاشداً والشعراء يتتابعون . وكان من بينهم المرحوم الشيخ محمد

عبد المطلب شاعر البادية . وكان من عادة الشيخ أن يحضر إلى الأماكن

التي يرتادها ركاباً حماراً . ثم يتركه أمام الباب في رعاية البواب أو الحارس .

وعندما وصل حافظ في إلقائه الأخاذ ، إلى أحد المقاطع المؤثرة ،

سأله الحاضرون الإعادة ، وصادف أن ارتفع نهيق حمار الشيخ في الخارج ،

فقال لهم حافظ :

دقيقة من فضلكم حتى ينتهى حمار الزميل من إنشاده . . . فانقلب

المأثم إلى ضحك متصل . . .

كان حافظ يسير مسرعاً في طريقه إلى دار الكتب عندما كان

مديراً لها . وكان يسرع خطاه ، وإذا بأحد المارة يستوقفه ليسأله قائلاً :

والنبي يا عم ، الشارع ده رايح على فين !
فأجابه حافظ : يا أخى لا رايح حتّه ولا جاى من حتّه أهو طول عمره
هنا

قصد حافظ مرّة إلى قصر عابدين لمقابلة الخديو عباس لأمر هام .
وتأخر عنده ، وعند خروجه دعاه الخديو عباس (وكان شحيحاً)
للبقاء ليتغذى مع المعية في المكان المخصص لهم .
واستقبل حافظ الدعوة بابتهاج . ولكنه فوجئ بطعام عادى نمطى
روتينى . . وبعد الغداء عاد إلى الخديو كما طلب منه لاستكمال
الحديث ، فسأله الخديو : لعلك انبسطت يا حافظ بك فقال حافظ
على الفور : الحقيقة يا فندينا كأنى كنت باتغذى فى بيتنا

إمام العبد :

ولعل إمام العبد يمثل فى خفته وظرفه وسرعة خاطره ورقيق شعره ،
شعراء الدولة العباسية ، لولا ما كانوا فيه من عزوماً كان هو فيه من عوز ،
كان يحيله أنساً وسُحراً .

سأل خليل مطران الشاعر إمام العبد - (وكان أسمر سماراً داكناً)
- ما الذى يمنعك من الزواج !

فأجاب العبد :

وأما الملاح فيأبينى وأما القبحاق فأأبى أنا
ثم أجاب على سائل آخر فى الموضوع نفسه بقوله :
أنا ليلٌ وكل حسناء شمس فاجتماعى بها من المستحيل

عاد ، خليل نظير الشاعر ، صديقه إمام العبد وهو يحتضر ،
 في غرفة تضيق حتى كأنها ثوبه ويتبارى فيها الليل والنهار في الظلام ،
 واستأذنه في أن يستدعى طبيباً لإسعافه وعلاجه ، فقال إمام :
 أجر الطبيب عشرون قرشاً . لو كانت معي لكنت اشتريت ربع
 كونيالك مارتيل وصندوق بسكوت ماري وأموت من السكر
 سمع إمام العبد أن داود بركات و خليل مطران وأنطون الجميل
 وسليم سركيس يتأهبون جميعاً للذهاب معاً إلى حفل زفاف نجل الشاعر
 اللغوي القاضي حفي ناصف بك . فذهب إليهم وطلب منهم أن يصحبوه
 معهم فقال له واحد منهم ، أنت ترانا جميعاً نلبس الفراك الرسمية
 فكيف تحضر معنا بيدلتك العادية فقال لهم ، ليس هذا بمانع من الحضور ،
 فأنا إذا خلعت كل ملابسي وعقدت بايون أبيض حول رقبتي ، أصبحت
 في الزى المطلوب وفي نفس أناقتكم

كان إمام العبد مدعواً إلى فرح في شبرا ، وكان المطرب عبد الحى
 حلمى الكبير مغنى الحفل ، وعز عليه أن يترك أى فترة تمر من الحفل
 دون الاستمتاع به ، وسرقه الوقت وخرج قرب الفجر ليجد المطر يهطل
 بغزارة . ولح عربجيا يقبع داخل العربة المغطاة وقد أرسل صوته بالغناء
 وهو يمر به ، فقال إمام ياسلام . . يا عيني يا أسطى . . إيه الطرب
 ده كله . . ثم أردف قائلاً : إلى أين أنت ذاهب ! فقال السائق : إلى
 السيدة زينب . فقال إمام ، أأست في حاجة إلى (سميع) فأنا أيضاً
 ساكن في السيدة ، فركب إلى جانب السائق ، فقال له إمام لا تظن
 أنى سأركب مجاناً ، فعند الوصول بمشيئة الله سأعطيك بدلة قديمة عندي

(وعندما يستغنى إمام ، على خصائصه ، عن بدلة قديمة ، فمعنى هذا أنها هي التي استغنت عنه) ووصلا أمام منزل إمام وصعد إلى الدور الثاني حيث يسكن ، وألقى بالبدلة إلى الأسطى ، فأخذها وراح يقلب فيها - وعلى عادة العريجية في طلب المزيد - قال له ، دى شوية أوى . . . وإذا بإمام ، وكأنه كان متوقعا ذلك ، يلقي له بالصدى . . .

عبد العزيز البشرى :

اجتمعت للشيخ عبد العزيز البشرى ميزة الفكاهة المكتوبة والفكاهة المنطوقة ، وتبرأ من النكتة المباشرة التي قال عنها مثلما قال المازنى ، إنها لا تدل على إعمال فكر أو ذكاء قلب ، أو عمق نظرة ، ولكنها تعتمد على سرعة الخاطر و(القفش والقافية) .

وللبشرى أسلوب جمع بين لغة الجاحظ الذى افتن به ، وتأثر بتصويراته البارة وتحقيقه الذكى ، وبين البليغ من لغة أهل زمنه وعصره ، وقد كان بينهم ، يتسّم الذروة .

وأنت إذا طلبت فكاهته المكتوبة وجدتها منبثة في كتبه : (فى المرأة - المختار - قطوف) . وقد اخترنا بعضاً منها فى هذا الفصل .

أما فكاهته المنطوقة فهي موضوع ومهمة هذا الفصل من الكتاب ولم يكن يستقر بالبشرى مكان . فهو سريع التنقل ، كثير التغير والتبديل ، واسع الصدر ، يحادث من يعارضه بنفس سباحته فى الحديث مع من هم من رأيه .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى مقدمة كتاب (قطوف)

« كان أقل الناس حباً للاستقرار ، وميلاً إلى الإمعان في طريق واحد .
فُطِر على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً » .

وقد أفاد من هذه النقلة التي تتيح له حسن الاستماع ، والإحاطة ،
والتعليق على ما يرى وما يسمع بما فطر عليه من روح مازحة ساخرة ،
وذوق سليم قوي ، ونظر عميق ثاقب .

وقد كان يخص بار (الأنجلسو) حيث روى فيه أغلب فكاهاته -
بالتردد عليه وإيثاره على غيره من المنتديات . فقد كان هذا المنتدى ،
مرتاداً لكل الاتجاهات الفكرية ، كما لو كان مقراً للأمم المتحدة .
وكنت ترى فيه هيكل الدستوري ، وحافظ عوض الوفدى وفكرى أباطة
الوطنى ، وعلى إبراهيم المستقل ، يسمرون ويتناقشون في كل الشئون ،
على بساط ممدود ، من الود ورعاية الحدود .
وبرغم تربيته الأزهرية فقد كان محباً ، مع الاعتدال ، لكل ما هو
عصرى ذى فائدة وجدوى .

أسرَّ إليه أحد جيرانه من حى السيدة زينب حيث كان يسكن في فترة
من حياته ، بأن أهل الحى أخذوا يتحدثون بأشياء لا يريدونها أن تحدث .
فسأله البشرى : وماذا والعباذ بالله قد حدث منى وأزعجهم . فقال الصديق :
إن المحروسات ، بناتك الصغار يلبسن البرانيط في ذهابهن للمدرسة
الفرنسية . . .

فقال له البشرى على الفور : أمَّال عايزينى ألْبْسهم عمم . . .
ومما كان يرويه في التدليل على سرعة الخاطر ، أن حافظ إبراهيم
كان مع أحمد حشمت باشا وزير المعارف في حفل رسمى في سباق

الخيـل ، وكان حافظ إبراهيم يحفظ لحشمت باشا جميله فى اختياره له ، لإدارة دار الكتب .

وكان حشمت باشا يسأل حافظ إبراهيم : أما كان الأولى أن يسمى الحصان الرابع الأول (المصلى) والثانى (المجلى) على عكس ما هو متبع ! فأجاب حافظ إبراهيم بكاءً لمّا ح :

عمرك يا باشا ما كنت المصلى . . . (أى الثانى فى أى أمر) . . . وذات مساء اضطرتة حسرة فى البول أن يتحنى نحو زقاق غير مطروق والليل سئار ، وأزال الحسرة ، وقبل أن يتقدم خطوة ، وجد أمامه أحد جنود البوليس يطلب منه الذهاب إلى القسم ، فقال له إنه قاضى شرعى ولا داعى لكل هذه الشكليات . وما دامت الغرامة معروفة ، فتولّى عنى توريدها ، ولا داعى لاسم المخالف ، واكتب أمام اسمى ، فاعل خير . . . وكان الشيخ البشرى يروى فكاهات من سبقوه ويخص بالذكر فكاهات حافظ إبراهيم ، كما قدّمنا .

روى مرّة أن حافظ إبراهيم والدكتور محجوب ثابت كانا بين ضيوف الزعيم سعد زغلول فى مسجد وصيف وصباح أحد الأيام افتقد سعد الدكتور محجوب فبعث من أيقظه من نومه الساعة الحادية عشرة وذهب لمقابلة سعد . ولما سأله عن السبب فى إبطائه فى الاستيقاظ من النوم ، أجابه بأنه كان يحلم حلماً طويلاً . وسأل محجوب سعد باشا إن كان يعرف شيئاً فى تفسير الأحلام أجابه سعد إنه لا يعرف وربما كان حافظ إبراهيم أدرى .

وأرسل فاستدعى حافظاً ، وقص محجوب ما رأى بقوله : حلمت

أني ركبت ثوراً قوياً ، وأني كنت أمسك بكلتا يدي قرنيه ، وأن الثور جمع بي جموحاً مزعجاً ، وكان يجري ورائي نحو مائتي حمار . واستمر الثور في جموحه حتى استطعت أن أوقف ثورته وهنا أفقت من النوم .

وهنا قال حافظ إبراهيم :

إن الثور في المنام يا دكتور يرمز إلى القوة . ولقد رشحت نفسك في الانتخاب لمجلس النواب وقد انتصرت على حكم القوة ، وهذا يقابل تمكّنك من إيقاف الثور .

فقال الدكتور محجوب :

عظيم . وما معنى المائتي حمار !

فقال حافظ : ما هم دول اللي انتخبوك يا دكتور ! . . . وكان البشرى معجباً كل الإعجاب بالشاعر إمام العبد الذي قال عنه إنه كان عفاً في مزاحه ، لا يفحش ولا يقذع ، وكان سريعاً في خلق الأحاديث الفكاهية من العدم .

وكان البشرى يروى عنه ، أنه لما ضاقت به الحال ذات يوم ، لجأ إلى صديق يرجوه أن يقرضه عشرين قرشاً ، إلا أن صديقه لم يجد معه سوى عشرة قروش . فتناولها إمام وهو يقول له : معلّش! يبقى لسه لي عندك عشرة قروش وأنت لك عندى عشرة قروش وعلى ذلك نبى خالصين . . . ومن فكاهات البشرى مع أصدقائه أنه خلع جيبه ذات يوم ، وكان مدعواً على الغذاء ، وذهب إلى مكان غسل الأيدي ولما عاد وجد رسماً لحمار على الجبة ، فتلفت حوالبه ثم قال مستعلماً : مين اللي نشف

وجهه في الجبة . . .

و ذات يوم رأيناه يسرع الخطى ويهدر كأنه السيل الجارف وهو قادم نحونا ونحن جلوس في بار (الأنجلو) . وقد سألنا إن كنا رأينا بائعاً (سريحا) يبيع (ترامس) ، فلما أجبتاه بالنفي تأفف ، فرحنا نسأله عن أصل الحكاية ، فقال وهو يضع على المائدة (الترموس) ، جسم الجريمة ، وأخذ يصف كيف أنه بالأمس كان وحده وإذا بالشقي اللص بائع (الترامس) يصف له قدرة هذا الترموس على حفظ برودة الماء فيه ، لمدة ثمان وأربعين ساعة .

وعندما عاد للمنزل ، أخذ يضع في الترموس قطعاً من الثلج صغيرة حتى أصبح محتواه كله ثلجاً لا ماء .

وعندما أصبح الصباح منى نفسه بشرب كوب بارد من الترموس ، ولكنه وجدده ، كما راح يقول :

ماءاً غالباً وضعت بعضاً منه في كنكة القهوة ولقمته بُناً وشربتها قهوة وشربت مقلب اللص . . .

* * *

ومن صور البشرى القلمية الرائعة في بساطتها وفي عمقها وفي حلاوتها وفي ظرفها وهو يتحدث عن عبد الخالق ثروت باشا بقوله :

« لقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يحدثك ، فلا يرتفع بك إلى نفسه ، وإنما يتدلى بكل حديثه إلى نفسك ، قتراه يدارجك في قولك ، ويكلمك من جنس كلامك ، ويباريك على قدر فهمك ، حتى تنصرف عنه وقد هيا لك وهمك أنه مثلك . هذا إذا لطف الله بعقلك فلم يهينك لك أنه دونك .

ولقد يَحْتَلُّ إليك لطف ثروت وتبسطة في حديثه معك أنك تستطيع أن تدسه في جيبك ، إذ هو قد دسك من أول المجلس تحت ثابه ، فاحذره أطلق ما يكون وجهاً ، وأنعم ما يكون حديثاً .
كان حافظ والبشرى يزوران حديقة الحيوان . وعند خروجهما قال له حافظ :

- حاسب أحسن حد يحوشك على الباب .
فأجاب البشرى : أما بالنسبة لك فلا خوف ولا حذر لأن منك في الجنة كثير وبناقص واحد .
وكان يعتز بفكاهات محمد البابلي ويروى منها وهو يضحك :
كان البابلي في زيارة عزبة لصديق له في ضواحي القاهرة وراح الصديق يصف للبابلي محتويات الحديقة حتى وصل إلى أشجار (الكازورينا) وقال إنها تصد الرياح وتمنع دخول الحيوانات :
فسأله البابلي متوسلاً :
ما عند كش شجر يمنع دخول أصحاب الديون . .

حفنى ناصف بك :

لم يكن بحكم وظيفته الرسمية في القضاء أو في التعليم أو الجامع اللغوية يتردد على النوادي والمقاهى برغم حبه لمرئاديه وميل نفسه إلى مجاراتهم فيما يأخذون فيه من الضحك والمجون وفي حديث الشعر والأدب .
ولحفنى ناصف نوادر ما تزال يحكيها الخلف عن السلف .
وكان نحفى بك يرأس جلسة في إحدى المحاكم . . وبعد قليل من

افتتاح الجلسة راود النوم عيون العضو اليمين ورأه حفى بك وسكت .
ثم لم يلبث بعد قليل أن سمع غطيظاً فالتفت إلى مصدره فوجده العضو
الشمال قد أخذته سنة من النوم ، فوكزه وهو يغط فصحا مذعوراً
فقال له حفى بك :

إذا كان من حقك أن تنام ، فليس من حقك أن توقظ النائمين . .
ويروى عن حفى بك أنه مرض مرضاً خطيراً فأمره طبيبه بالإقلاع
عن أى عمل فكرى ولا سيما المطالعة . ثم عاد إليه بعد يومين فرآه يطالع
فى كتاب (روح الاجتماع) الذى عرّبه المرحوم فتحى زغلول ، فغضب
الطبيب وقال لحفى بك :
ألم أنك عن المطالعة ؟

فابتسم حفى ناصف برغم مرضه الخطير وغلبت عليه طبيعته
المرجة الفكهة وقال للطبيب :

- يا أخى لا تغضب فقد كنت أطلع فى الروح .
ودعى مرة حفى ناصف مع نفر من أصدقائه لزيارة حديقة برتقال
لأحد أصدقائهم من الأعيان .

وعندما وزع البستانى البرتقال المعروف باسم (برتقال بدمه) وجد
حفى بك أن برتقالته من النوع العادى ولا أثر لأى حمرة بها ، فقال
لصاحب البستان :

يظهر أن برتقالى طلع عندها أنيميا حادة . . .
والعجيب أن أبناء حفى بك قد ورثوا عنه خفة روحه وحلو مزاجه
وسرعة خاطره ورقيق أدبه لفظاً ومعنى .

كان ابنه الأكبر قاضياً . وكان لفيف من أصدقائه يذهبون أمسيات كثيرة إلى دار نبيل سابق حيث يتبارون في الشراب والضحك والمزاح والتشكيت والمرح الراقى .
وكانت لا تمر ليلة دون أن يذكر واحد من الأصدقاء نادرة لجلال بك ناصف القاضي .

وما كان من النبيل إلا أن قال لهم : إذا حضرتم المرة القادمة بدون جلال ، فسوف لا أستقبلكم .
وذهب الأصدقاء إلى جلال ناصف وطلبوا منه أن يصحبهم وأبلغوه أن النبيل لطيف وصاحب مجال ومرح . وكان جلال متعباً قليلاً . ولكنه لم يجد ما يدعو لهية أو احترام عندما رأى ابتذال النبيل . وبعد قليل اقترب منه النبيل وقال له : إننى جلال ! ضحكنى . . . !
وعلى الفور قال جلال : ده أنا اللي جاى أضحك عليك يا أفندينا ! .
وضحك النبيل ضحكاً لم يضحكه من قبل . وربما كان خلل القياس ووقع المفارقة من أسباب هذا الضحك ، حيث لم يكن ينتظر أن أحداً يخاطبه بهذه اللهجة .

مختارات العقاد من حكايات جحا :

للعقاد روائع من نوادر الفكاهية ، منظومة ومنظومة ، وقد أتينا على بعض منها .

وفيمايلي مختارات للعقاد من حكايات جحا :

سئل جحا : أيهما أفضل ، المسير خلف الجنازة أم أمامها ؟

فأجاب : لا تكن في النعش وسر حيث تشاء
ولقيه بعض معارفه في الطريق فقال له : إني رأيت الساعة ،
رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر . .
قال جحا : « وماذا يعني أنا ؟ »

قال صاحبه : إنهم يحملون الطعام إلى بيتك !
فقال ، جحا : وماذا يُعنيك أنت ! . . .
اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه
فقال له : إنك محق في شكواك أيها الصديق وجاءه الصديق
الثاني في اليوم التالي فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه :
« أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :
« يا لك من منافق . خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شكواه ؟
فقال لها جحا : ولماذا تغضبين ! أنت أيضاً محقة فيما تقولين ؟
سأله سائل : ما طالع نجمك ؟

قال : ولدت والشمس في برج التيس .
فقال سائله : لا يوجد في السماء برج التيس ولعلك تقصد الجدى
فأجاب جحا : أفمن مولدى إلى اليوم ، لا يصبح الجدى تيساً ؟ . . .
سكن جحا في دار ، وراح يشكو إلى صاحبها أنه يسمع قرعة
سقفها .

قال صاحب الدار : (لا تخف ، إنه يسبح الله) .
فقال جحا : « وهذا ما أخشاه ، فقد تدركه رقة فيسجد علينا » .

وَادَّعَى جحاً الولاية فسأله السامعون عن كراماته فقال : أتريدون مني كرامة أكبر من علمي بما في قلوبكم جميعاً ؟

قالوا : « وما في قلوبنا » .

قال : « كلكم تقولون في قلوبكم إنني كذاب » .

وسأله ذات يوم : « أيهما أنفع للناس ، الشمس أم القمر ؟ »

فلم يتمهل وأجابهم بيقين :

« إنه القمر ولا مرء » .

فسأله : « ولم ؟ » .

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغنى الناس عنها . وأما

القمر فلا يطلع إلا في الظلام حين الحاجة إليه » .

سأله حاكم المدينة ، وقد أخذه معه إلى الحمام . ونخلع ملابسه

إلا مئزرأ يديره على وسطه : « بكم تشتريني الآن لو عرضت عليك في السوق

يا جحاً ؟ » .

قال « بخمسين ديناراً » .

فقال الحاكم : « ويحك . إن ثمن هذا المئزرز وحده خمسون

ديناراً » .

قال جحاً : « وهذا هو الثمن الذي حسبته ! » .

سأله عن معنى كلمة حيزبون . فتمهل قليلاً ثم قال :

هي الكلمة التي يكتبها الكاتب بدلا من كلمة أخرى خطرت على

باله ، ولكنه نسي حروفها ، فهو يخشى إذ يستعملها أن يخطئ في حروفها . . .

شاعر الشباب أحمد رامى :

شاعر الشباب كما يحب الناس أن يلقبوه ، و (لا مارتين) كما أحب أنا أن ألقبه ، هو إمام الغزليين والغنائين ، وفضله عليهم فضل الكحل على العين . وهو فى خفة الظل ، نعمة تطيب وتسعد النفوس .

وهو يمثل جيلا بأسره (بهناه وشقاه) على حد قوله .

شعره الفكاهى قليل وهو معروف بمناسباته عند المتأدين . أما فكاهاته المنطوقة فهى كثيرة وقد عاصرت أكثر مناسباتها معه .

برغم رقة حاشيته وحرصه على ألا يؤلم أحداً ، فقد اختلف معه شاب غرير فى دار الكتب وضايقه ، وأخرج رامى عن حده ، فتوسط الشاعر أحمد محفوظ من زملاء رامى فى الدار وراح يقول له ، ده شاب أحمر وغير متعلم وجاهل بل تقدر تقول إنه (أمى) فقال رامى على الفور : (أمى) دى شوية عليه ، ده لازم (سنى) . . . !

وذات مساء سهر مع أصدقاء له فى صدر الشباب فى فرح امتد سهرهم به حتى ساعة متأخرة . وكان معهم صديق من سلالة أسرة ثرية ، ولكنه كان متلافاً فأضاع كل ما ورث وبقى من أملاك العائلة بيت كبير فى الحلمية من بيوت الوقف ، فعرض على إخوانه أن يناموا عنده فلا مواصلات الآن ، ولا قدرة لهم على السير الطويل . فوافقوه ودبر لهم أماكن للمبيت وكانوا خمسة . وكانوا يحسون البرد ، لأن صاحب الدار أو ساكنها ، كان كلما احتاج ، عمد إلى ضلفة باب أو شباك أو زجاج نافذة أو أكرة أو مسند سلم وخلعها وراح يبيعها ، بعد أن كاد البيت يخلو من الأثاث . .

وراح صاحب الدار يفكر قبل النوم في كيفية إفطارهم بعد أن
دبر أمر نومهم . ثم نام واعتمد على الله في حل ما هو فيه من حرج .
ونامت جفونه ولكن عقله بقي صاحبياً يفكر ويدبر

وعندما أصبح الصباح ، شم النائمون روائح بيض مقلّ وبسطرمة
وفول وزبد ، ولم يصدقوا ، حتى إن أحدهم ظن أنهم يحلمون ، لعلمهم
برقة حال الداعي ، وراح يقرص جاره في النوم ليشارك معه في شم هذه
الروائح الفاتحة للشهية

وقاموا جميعاً ليفاجأوا بسباط ممدود حوى كل ما كانوا يتسّمون
رائحته .

وبعد شرب الشاي والقهوة ، أرادوا أن ينصرفوا ، وبحثوا عن
أحذيتهم فلم يجدوها ، فسألوا صاحب الدار عنها ، فراح يضحك ضحكاً
متواصلاً وهو يقول : ما أكلتها وكان اللي كان

كان يسكن بجوار رامى أحد المحيين للشعر ولكنه لم يكن يهتم بالعروض
والبحور والقوافي والأوزان . وكان في كل مرة يعود فيها رامى مرهقاً
من عمله ، يحل به هذا الجار ليقرأ عليه ما يكون نظمه . فيقول له رامى :
مكسور يا أستاذ . وثاني مرة يقول : مدشدش يا حبيبي . وثالثة يقول له :
مدغدغ يا أخ . وفي آخر المطاف صرخ المتشاعر وهو يقول لرامى :
انته متقصدني ! ده ظلم ! دي مشي معاملة ! . . . مش طريقة دي ! . .
فقال له رامى وهو محتد أيضاً : شوف يا أخ . إحنا عندنا هنا بنوزن
كده ، وإن ما كانش عاجبك ، روح إوزن برّه . . .

وكان لنا صديق يحضر مجلسنا ويسمعنا ونحن نتطارح ما يكون كل منا

قد نظمه . فيقول : يا جماعة دى حاجة عجيبة أوى . كل اللى أتم بتقولوه خطرت على بالى معانيه وكثير من ألفاظه وإشاراتة .

يبقى إيه ده يا رامى ، توارد خواطر والا مناجاة أرواح ؟
فأجابه رامى : لا أبدا . تقدر تقول إن إحنا شعراء بقافية ، وأنت شاعر بلا قافية

كان المجتمع الانفصالى الذى عاش رامى جزءاً كبيراً منه ، هو المسئول عن تعلقه هو ومن عاصره من شعراء زمانه بأى قشة يجدون فيها سيلاً للغزل والتشبيب والرومانسية

روى لى هذه القصة : كنت فى صدر الشباب ، أغادر دارى بعد الغروب ، وأعود إليها قبل الشروق . وكنت ألاحظ كلما همت بالانعطاف من الحارة التى أسكن أحد منازلها ، أن رأساً صغيراً يُطل وهو يلتفُ بغلالة بيضاء ناصعة من وراء مشرّبة من مشربيات بيوتنا القديمة . وظننت - والشباب كثير الظنون والخيلاء - أنها تنتظرنى لترانى ، والليل ستّار يلف العشاق بحجب ، ويحميهم من أنظار دخيلة . وقد أكبرت فى هذه العاشقة دأبها على انتظارى فى نفس موعد خروجى ، وعند عودتى لتطمئن علىّ فى رجوعى

ولم تكن نفسى ، ولا التقاليد ، يسمحان لى حتى برفع النظر إلى أبعد مما يحمينى من مزلق الطريق ، ولا ينبغى لى ، وهى من أهل حيّ أن أرجوها حتى فى منامى . وكأني كنت أقول مع من قال :

وإني لأستحييك حتى كأنما علىّ بظهر الغيب منك رقيبٌ
ورحت أنظم فيها شعراً يحوى ويضم المعانى التى تثيرها مشقة النوى

وحنين الواجد وإكبار الوفاء . وأنطوى على وجدى وسهدى . . .
 وذات يوم خرجت من دارى قبل الغروب ، وإذا بعينى تفلت منى
 وترمق حبيبة خيالى ومهوى حنينى العفّ ، وحنانى المشفق ، لاكتشفت
 أنها (قُلَّة) تلتف فى شاش أبيض رقيق مُبتل ، ليبرد الماء بهذه الوسيلة
 أوالحيلة

وفقدت ليلالى ، وأفقت من حلم جميل . . .

أم كلثوم :

ذكاؤها يمهد لها سبيل التفوّق فى كل عمل تقدم عليه . وذوقها
 الرفيع يُسبغ على هذا الذكاء رداءً من لمّاحة برّاقة ورونق باهر وحديث
 مزغرد النبرات ، فيّاض الندى .

وهى مثلما تفوقت وتفرّدت فى الغناء ، بفضل نعمة السماء عليها
 بحنجره لم يجُد بها الزمان على أحد ، حتى أصبحت كاللماس الكريم
 (سوليتير) ، إلى جانب فن متمكن لا يجارى ، تفوّت كذلك فى عالم
 الفكاهة والممازحة حتى غدت فى الصّدّارة من أهله .

وقد سئلت مرّة عما يمنعها من التلحين ، فأجابت بأنها لم تُخلق له ،
 وأنها لا تحب أن تعمل عملاً لا تتقنه إلى حد التفرد فيه .

ذكر لها مرّة أحد معارفها ، اسم صديق له ، وكان اسمه مثلاً ،
 محمد أحمد محمد فقالت ، وليه يسبب اسمه كده ، ده عامل زى
 ما تقول : لوبيا يافجل لوبيا . . .

وكانت ترى وجهاً أمامها فى كل حفلاتها ، لا يغيب أبداً . وحدث

لحسن حظه - في حفلة خاصة - أن قدمه إليها أحد معارفها ، ثم أردف قائلاً ، إلى جانب أنه سميع دائم ، فإنه مهندس كهرباء مستشفى قصر العيني وبقى له فيه مع الكهرباء والسلوك ، عشرين عاماً ، فقالت أم كلثوم على الفور يا ابن الكابل

كان المرحوم الأستاذ عبد الغني السيد المطرب القديم ، قوى البنية ، مفتول العضلات . ولاحظت أم كلثوم غيابه فترة طويلة . فسألت عنه صديقاً له ، فقال لها ، إن عبد الغني عاتب عليها لأنها لم تسأل عنه عندما عمل عملية في عينيه فقالت نكمل : في عينيه ولا في عافيته عندما عادت من رحلة لها من إنجلترا عام ١٩٥٠ بعد أن أطمأنت على صحتها واطمأن جمهورها عليها ، أقيمت لها في الإسكندرية حفلة تكريم ضمت لفيفاً كبيراً من أهل الأدب والفن والصحافة وخاصة الشعر .

وراح الشعراء يتعاقبون في إظهار فرحهم بعودتها حتى جاء دور الشاعر الكبير المرحوم فضل إسماعيل . فكان قد أعد قصيدة يعارض فيها برودة البوصيري ، مطلعها .

إن سجّل النيل لحناً رائع النغم أو حنّ طائرهُ شوقاً إلى الهرم
فالبحر يعرف ما للفن من أثر وما له في حياة الناس من قيم
وكان رحمة الله قد أفرط في الشراب ، وانعكس ذلك على إلقائه ، وتعثر لسانه ، وكثرة حركات يديه ، وحماسه والإشادة بعبقريته في اختيار قصيدته معارضاً نهج البردة للبوصيري نزيل الإسكندرية ومواطنه .
وأشاعت هذه المفارقات روح الدعابة في أم كلثوم وراحت تصغي

باهتمام ، وإذا بالتيار الكهربائي ينقطع بعد المقطع الأول من القصيدة .
وساد صمت قطعه صوت أم كلثوم وهي تسأل الشاعر : جرى إيه
يا أستاذ ، هي قصيدة ولأ غارة

وسرعان ما أتوا بشمع لإضاءة ورقة الشاعر وظهر للهبب الشمعة
دخان ، فقالت أم كلثوم على الفور : ودي قصيدة إيه المهيبة دي . . .

محمد البابلي :

سليل عائلة قاهرة عريقة . وكانت لها عقارات اشتهرت باسم
عمارات البابلي في حي السيدة زينب .

أم كلثوم، عندما حلت بالقاهرة مع عائلتها في فندق جوردون هاوس .
كان البابلي من نزلاء الفندق فترة من الزمان ، قبل أن تنتقل أم كلثوم
منه إلى شقة في شارع (قولة) كانت مرتاداً لأهل الفن والأدب والظرف .
وكان يجلس معها ومع معلمها الأول الشيخ أبو العلا محمد يسمر
ويستمعون لنوادر البابلي وحلو حديثه وبديع مفارقاته ، وهي تُصغي كأنها
في درس .

وقد شربت من البابلي وارتوت من هذا النبع الصافي والتقطت منه
بذكاء وللاخية ، صناعة الحديث وروايته ، وأصول ترتيبه بمفاجآته
ومفارقاته ، واختيار المناسبة الصالحة للمقال والمجال .

وكان متلاًفاً لا يبقى على مال لديه ، بل ما يزال به حتى يزول .
وانتهى به المطاف إلى بيع ورهن معظم ما يملك ، وكان يستمع ذات

مساء إلى صالِح عن الحى وهو يغنى دور : أهل السماح الملاح ، دول
فين أراضهم . . .

فما كان من البابلى إلا أن بهتف بحسرة : فى البنك العقارى يا بو
صلاح

وكان يسير فى جنازة وراء النعش ، وإذا برفيقه فى تشيع جنازة
المتوفى الثرى ، يسأل البابلى عن عظمة الخشبة وقماش الخشبة الحرير
الشاهى وراح يستعلم من البابلى عما تتكلفه هذه الخشبة ، وإذا بالبابلى
يقول له على الفور : بالميت . . ثلاثين أربعين جنيها . . .

وكان والده قد أعد حوشاً وطربة للآخرة . وأخذ ذات يوم ليشاهد
المدفن . وسأله بعد الزيارة عن رأيه فى الحوش فقال له الحقيقة بى ،
حاجة ترد الروح

وكان قد أصيب بالسُّكَّر الذى كان يشتد حيناً ويقل أحياناً .
وذات صباح كان فى بار الأنجلو ، وحضر إليه خريستوليبى طلبه ،
وسأل البابلى عن حالة السكر عنده فقال له البابلى بلهجة الجرسونات
اليونانيين ، ميولييجى يا خريستو وهى تعنى فى عرف الجرسونات :
سكر شويه بلغة الإغريق .

وفى ظهر أحد الأيام كان يخرق بعربة حنطور (تجرها الخيل)
ميدان الأوبرا والحركة على أشدها . وإذا به يسمع صوتاً متلهفاً يناديه . .
يا محمد بك . . . يا محمد بك . . فطلب من السائق التوقف وحضر
المنادى وإذا به معرفة ، وليس بصديق . وراح يسأل البابلى عن صحته
والأنجال ومن تزوج منهم ومن لم يتزوج بعد . وطال الحديث التافه ، وكان

يظن أن الأمر هام وأراد أن يلتفت نظر هذا الصديق المتطفل - بطريقته الخاصة - إلى ما يجب ولا يجب ، فربت على ظهر السائق وقال له : القعدة احلّوت يا أسطى ، اعمل لنا فنجالين قهوة على ذوقك وكانت القفشات بينه وبين حافظ إبراهيم لا تنقطع وذات يوم قصد حلوان لزيارة حافظ بك .

وعندما قدم حافظ بك إلى الصالون حيث كان البابلى يجلس ، لاحظ أن حافظ بك - وكان الوقت شتاء - يلبس للوقاية ، جلابة قماشها ورسومها مخططة على طريقة الكلیم الصوف الذى كانوا يفرشونه فى صالة المنزل على البلاط ويضعون تحته ما يقيه من حدة البلاط ، كقماش أوما شاية ، فقال البابلى لحافظ على الفور : أنت لازم لابس حصيرة تحت الكلیم ده يا حافظ بك

وكان فى زيارة لبستان أحد الأصدقاء وقد رأى البستانى يزرع حول نبات شوکى Seizilbinia .

ولما سأله عن السر فى ذلك قال له علشان نمنع دخول التعاين ، فقال له مفیش زرع يمنع دخول المحضرين وكان وهو يجلس مع أنخصائه فى بار اللواء ، يطلق اسم أى دخيل ثقيل عليهم ، اسم حنى وحضر ذات يوم متأخراً قليلاً وإذا بدخيل ، بين الجماعة ، أى (حنى) على حد اصطلاحه . فلما قدّمه أحد الأصدقاء إليه وقال له الأخ حنى أفندى ؟

فقال البابلى : طبعاً ، أنا عارف ، فرجع الصديق يقول ، لا ده اسمه الحقيقى حنى فقال البابلى يبقى اسمه بقى ، حنى أفندى حنى

وبينما كانوا جلوساً في بار اللواء إذا بحتفي جديد يهبط عليهم .
وبعد قليل أخرج علبة سجائره وراح يوزع على كل الجالسين سيجارة
لكل منهم .

ونسى سهواً أن يقدم للبابلي .
وقد تدارك الأمر أحد الأصدقاء الجالسين ، وأخرج علبته وراح
يقدم منها للبابلي بك .

ولكن البابلي شكره وهو يشير بيده إلى من أغفل تقديم السيجارة
له ثم يقول : دخانك يا محمد بك حامى أنا عايز من البارد ده
وكانت فكاهة البابلي تقوم على المقابلة والتلاعب باللفظ من وحي
المناسبة .

حسين الترنزى :

اسمه الحقيقى ، حسين فهمى الكريتلى . فقد كان جدّه الأعلى
من أهالى جزيرة كريت ، عندما كانت ضمن أملاك الإمبراطورية
العثمانية فى سالف من العصر .

وحضر الجد إلى مصر وتزوج مصرية وأنجب أحد أبنائه ، حسين
فهمى الكريتلى .

أما صفة الترنزى هذه فقد لحقته على أثر مساهمته بنصيب فى محل
ل ، لم يكن هو يعرف فى هذه الصناعة شيئاً ، ولكنه كان يشرف
ال ثم يترك المحل إلى جولاته وسهراته حتى أفلس المحل وارتاح

وكان وجهاء القوم وأدباء وشعراء البلد يتشوقون إلى مجالسه ويتحرون مكانه ليصحبهم في سهراتهم .

وفكاهاته ومداعباته كانت تقوم على دعامين عرفهما بحسه الفطري ، فقد كان لا يعرف الكتابة أو القراءة .

كانت الدعامتان هما : خلل القياس ومباغطة المفارقة ، إلى جانب اضطياد المناسبة وتخريج الصور العديدة من لفظ أو جملة ، مع عفة في القول ورعاية للأدب واحترام للتقاليد المرعية ، فقد كانت مجالسه زاخرة بأرقى الطبقات وصفوة أهل الأدب .

وكان ذكياً ذكاء مفراطاً ، حتى لقد اخترع اختراعات منها جهاز حاسب يوضع عند مدخل المخابي أو المناجم ليعد الأعداد الداخلة والخارجة . واستطاع أن يقسم المليمتر إلى أجزاء .

كنا نسهر معه ذات مساء في كازينو راق في الإسكندرية . واحتك به أحد السكارى . وراح يضايق حسين وحسين يلاطفه دون جدوى وأخيراً قال له : يا أخى ابعد عني الله يخرّب بيتك . . . وفضضنا الاشتباك ، ثم رحنا نثير خوف حسين من ناحية من كان مشتبكاً معه ، فقلنا إنه ابن أكبر محام في الإسكندرية وسيرفع ضده دعوى قذف وفي مكان عام والشهود كثير . . . فاغتم قليلاً وبعد تفكير خاطف قال : أنا رايح أترافع عن نفسي . أنا لم أتفوه بما يهين هذا السكير . ودعوت الله أن يخرّب بيته . ومنذ متى يستجيب الله لدعائي ! . . الأمر معلّق على استجابة الله لدعائي ، وهذا أمر أنا واثق من عدم تحقيقه وبهذا يا حضرات ولكن الواقع أنه ارتبك وأفلحنا في إثارتة . . فانقطع

عن تكملة مرافعته أو مشروع مرافعته . . . وضحك معنا
 وكان عفيف النفس لا يطلب مالاً من أى أحد مهما بلغت به الفاقة .
 بل لقد كان بعض الأثرياء ممن كان يؤم بيوتهم ويسعدهم بأحاديثه ،
 يجرون على مدّه بمبلغ شهرى دون أن يشعروه بأنه مساعدة ، ودون أن
 يلزموه بالحضور إليهم .

وفى مطلع حياته كان حسين من مرتادى صالون ومترل المرحوم
 على فهمى الثرى الشهير . وكان قد أبلغه يوماً ، بأنه عينه سكرتيراً خاصاً
 للمشتريات . ولو أن حسين اعتدل فى إنفاقه لترك أملاكاً وعقاراً من مبالغ
 كان يأخذها من المحلات - بعلم على فهمى - عندما يشتري سيارة أو
 يوثث مترلاً أو يشتري حاجيات للبيت من كل الأنواع بما فى ذلك الأرض
 والعقار والأثاث .

وقد سافر مع هذا الثرى إلى أوربا ، فى معيته مع صديق آخر ليستكمل
 المجلس مداعباته ، ويصباحان كموسيقى الحجرات . . .
 وكان هذا الصديق ، يكتب لحسين ملاحظاته فى أوربا وكان يبعث
 إلى بخطابات كلها دعايات وفكاهة ، ضاعت مع كثرة انتقالاتى .
 كان عندما ينام يحب أن يتحدث مع من معه فى البيت أو فى الحجرة
 حتى ينام . وكان هو وصديقه عبد الرحمن هذا يقمان فى حجرة واحدة
 فى الفندق الذى يتزلان به .

وذات ليلة أرق حسين وراح يحادث عبد الرحمن ، فإذا به قد
 استسلم لنوم هنيء .

وكان محباً لحسين ويطيعه فيما يأمر . وأراد حسين أن يظل مستيقظاً

معه فعمد إلى حيلة ، مفادها أن يطلب منه غلق النافذة ثم يطلب فتحها ثم سأله فتح النور ثم يسأله قفله ثم يسأله مزيداً من الغطاء ثم يطلب رفعه . . . وبعد أن وجد أن شيئاً في الحجرة لم يبق دون أن يسأل زميله عبد الرحمن رفعه أو فعله أو فتحه وبرغم ذلك لم يكن النوم قد حل به مثل زميله المطيع

وأخيراً سمع استغراق عبد الرحمن في النوم ، فراح يوقظه بلهفة وهو يقول له : عبد الرحمن . . عبد الرحمن . . قوم غطى القصرية أحسن ناموسة تقع فيها بلاش ونخم

وعندما كان شريكاً في محل تفصيل الملابس ، حضر إليه دعى يجالس العظماء وهو ليس منهم . وكان إلى جانب ذلك لا يعنى بنظافة بدلته ، ويترك عليها بقايا مما يأكل أو يشرب .

وعندما رأى حسين في المحل ، بادره بلهجة حادة :

أنتم مادام مش قد المحل ده فاتحينه ليه !

فين البدلة اللي جبت قماشها واتعمل لها بروتين ، وكل مرة تقولوا لي بعد يومين ، بعد يومين ، فقاطعه حسين وهو يقول له ، وقد غاظه هذا التأنيب الغليظ :

البدلة جاهزة يا أستاذ بس تلقاهم بيركبوا لها البقع

وكان يصحب أحد الأصدقاء في أوتوبيس الجيزة . .

وقد دفع الصديق للكمارى ثمن تذكرتين . نسأله حسين ، التذكرة

بكام ؟

فقال له الصديق : بقرش صاغ .

فقال حسين : يا سلام دى حاجة رخيصة أوى ما تشتري كمان مرة

وكنا نجلس آخر الليل فى قهوة المثلث بميدان الجيزة فى الصيف . وكان صاحبها يضع فى الأشجار ، لمبات حمراء وخضراء وزرقاء . وجلسنا على مائدة كانت تظللها إحدى هذه الأشجار . وإذا به يقول متوسلاً : يا جماعة اعملوا معروف نتقل على مائدة ما يكونش فوقها شجرة من دول ، أحسن لمبة تكون استوت تقع علينا وكان يزورنى فى مكتبى وكان واسعاً .

ولم يكن النيون قد اخترع . فكانوا يضيئون الحجرة بأربع كlobات من ذات اللون الأبيض الناصع . وكانت كروية الشكل مما يلتبس على ضعاف النظر أمرها .

وكان فى إحدى هذه الزيارات ، عندما كان نظره قد أخذ يضعف ضعفاً شديداً ، نظر إلى السقف ورأى هذه الكlobات الناصعة ، وإذا به يسألنى فى شيء من الاستهجان : أنتم معلقين توم ؟ وموضع الفكاهة أنه استعمل خلل القياس ، لأن مكتبى كان فى وزارة الخارجية فى قصر التحرير .

وكان يقول لى ونحن وحدنا : إنكم تستطيعون كتاباً كنتم أوشعراء أن تعدلوا فيما تعدون من كتابات أو تنظموا من شعر ، أما أنا فإنى إذا قلت قولاً ، أصبحت مشولاً عنه ولا أستطيع أى تعديل فيه وحدث أن اقتحمته عين أحد أصدقائنا ، لأن حسين كان دقيق الجسم ذو صلعة ناصعة ويجلس صامتاً . وراح هذا الصديق يدخل معه

قافية دون أن يعلم أنه حسين التريزى ، وكانت قفشاته من قبيل قافية
اشمعى .

فسألنى وكنت أجاوره ، عن اسم هذا الظريف
وعندما علم أن اسمه حسنين ، وكان جلدأ على عظم ولا يزيد أكثر
من ثلاثين إلى أربعين كيلو ، وفى هزال دائم .
فراح يسأله : وليه يا أخى حسنين ؟ ما حسن واحد كفاية بالنسبة
لوزنك ؟ وليه تشيل حسنين لوحده
وكان يقول عنه بعد أن قام هارباً ، إن الحانوتى يدق على باب منزلهم
ويقول لأهل البيت : مش سى حسنين خلاص . . . يقصد أنه مات
من ضعفه

فيقولون له : فى الحقيقة لسه شوية . . . فوت بكره
فيقول لهم : هاتوه بقى أهو كويس كده
وكان أحد الأثرياء الذين كان يتردد عليهم ، قد نصحه طبيبه
المعالج أن ينشغل بهواية من الهوايات فإنها تصرفه قليلاً عن مواصلة شرب
الخمير . ولم يكن هذا الثرى ، برغم نعومة الحياة التى كان يحياها ،
ورعاية أهله وجميع إخوانه ، يفيق من الخمر واستمع بالفعل لنصح
الطبيب وأحضر لوازم التصوير بالزيت وخصص حجرة من حجرات
القصر الوسيع لهذه الهواية . وذات يوم قصده حسين التريزى وكان قد فرغ
من رسم صورة Portrait نصفية تمثل شخصاً ما فسأل حسين عما يكون
هذا الشخص فقال له حسين : أنا لا أعرف هذا الشخص ولا عمرى
شفته فقال الثرى : دقق نظرك . ففعل وفشل فى معرفة الشخص فقال له

الثرى : يا أخى دى صورتى فقال له حسين : أنت عايزنى أعرفك إزاي من الصورة دى . لا فى إيدك كاس ولا عينك حمرا ولا بتطوّح ولا بتتخاتق أعرفها إزاي

كنا نجلس فى أحد النوادى وحضر أحد الوجهاء الذين يهتمون كثيراً بهندامهم وزينتهم وراح يحمل على الحلاق الذى قص شعره وأصبح لا حديث لنا غير هذا الوجيه وهو مهتاج ومندفع فى عصبيته فقال له حسين : المسألة بسيطة يا أخى ، روح للحلاق ورجع له الحلقة ما دام مش عاجباك

ذكر له أحد أصدقائه أن الحارة التى يقع فيها منزله يسكنها عفريت . فقال له حسين : ما كبر دلوقتى العفريت وتبقى عجوز وغلبان وبيقعد على الأرض ويسند ظهره للحيط ، وإمبراح بس وأنا فايت عليه لقيته بيقول لى ، والنبي يا ابنى أنت يا إالى ماشى . تعالى خد بأيدي علشان أخضّك

كنا نستمع إلى أم كلثوم وكلنا آذان . وإذا بالجالس إلى جوار حسين يسأله أن يدلّه على القصبجى ، ومن يكون هو من بين أعضاء التخت ، فقال له حسين ، ووجدها فرصة ليسرح به ، شوف بقى ، سيب أول قصابجى وثانى قصبجى وثالث قصبجى ، ويبقى هو الرابع . . . على إيدك الشمال .

كنا نتردد على مطعم الباريزيانا أيام عز شارع الألفى وكان (بانايوت) كبير جارسونات المشرب يتولى مدّنا بجميع خيرات المشهيات . بل لقد كان فى ختام الجلسة يحضر لنا سلطانيات مشمش وقاراصيا . وفى إحدى

هذه الليالى ، وبعد أكل المشمش والزبيب والقاراصيا ، نادى حسين على بانايوت وقال له : هات لنا طشت الغسيل وصابونة تغسل أيدينا .
علشان مروحين . . .

ومن تعليقاته اللطيفة ، كان يقول : إن العادة جرت فى مصر على فرش الرمل فى ثلاث مناسبات :

عند ذهاب الملك لافتتاح البرلمان . وعند ذهاب سفير لتقديم أوراق اعتماداه . وعند مرور وابور الزلط عند تبليط الشارع

كان يجلس معنا من راح يبشر بزوال الصلع بفضل دواء اخترعه وعرض على حسين استعماله (وكانت صلته ناصعة)

فقال له حسين : أنا عندي منشة تساقط شعرها نجرب فيها . . .

ومن مفارقاته المضحكة المبكية ، قوله لى : يا أخى الناس جاكثاتها تذوب من الكوع أو الياقة أو الجيوب ، وأنا لا يذوب معنى إلا كم الجاكتة من كثرة من كان يأخذ بيدي بعد ضعف نظري

عندما أعدى الشارع ، أو أنزل سلام ، أو أطلعها .

وأصحاب الفكاهة فى مصر كانوا ينقسمون إلى : أصحاب فكاهة

منظومة مثل محمود غنيم ومحمود يريم التونسى وحسين شفيق المصرى (أبونواس مصر) . وأصحاب فكاهة منظومة .

هم أمثال من سلف ذكرهم فى هذا الفصل .

ولا يمنع هذا التقسيم من خروج فريق من هؤلاء إلى صنعة هؤلاء

والعكس صحيح .

فقد كان حسين شفيق المصرى عندما كلَّ بصره لا يسير إلا وفي رفقته مرافق ليساعده في الطريق .

و ذات يوم قابله صديق في الطريق ورأى هذا المرافق فسأل شفيق عن من يكون . فأجابه : ده واحد ساحبنا

وكان المرحوم عثمان جلال ينظم فكاهاته شعراً أو زجلاً وهو الذى ترجم لموليير (تارتوف) وأسماءها الشيخ متلوف ونظم كثيراً من الأزجال المرحه على السنة الحيوانات .

ولكن كان إلى جانب ذلك سريع النكتة وصاحب بديهه حاضرة . وقد حدث له عندما كان قاضياً أن ذهب إلى المحكمة متأخراً فأسرع الخطى وراح يصعد سلم المحكمة فى عجلة وإذ بأحد معارفه من الوجهاء يعدو وراءه ليرجوه فى قضية لديه وكان يقول له يا عثمان بك أنا ليه دعوة فأجاب عثمان بك وهو مسرع : وأنا ما ليش دعوة وتخلص بهذا الرد المفعم الظريف .

* * *

وكان من بين سَمَّار الليالى ومرتادى مجالس الأُنس والمرح والطرب ، صديق يتمتع بقول الفكاهة المنطوقة والفكاهة المنظومة ويعدل بينهما عدلاً سلبانياً

وأبى علينا الصديق المذكور أن نذكر اسمه فى هذه الأوراق ولكننا كنا نحفظ له الكثير مما قال ، نذكر بعضه فى هذا الفصل على سبيل المثال ، وقد حملنا هذا على أن نطلق عليه (الصديق المجهول) نزولاً على طلبه

كان ذات يوم ينتظر في بهو العمارة التي يسكن إحدى شققها ، نزول « الأسانسير » . وكانت هناك قبله ، أمام المصعد سيدتان ، في زيارة لإحدى الشقق . وكان السهم الدال على نزول الأسانسير يشير بقرب الفرج ولكنه طال ، فقالت إحدى السيدتين لزميلتها : تعالى نصعد السلم يظهر أن الأسانسير متوقف . فقال لها الصديق المجهول : يا أفندم الأسانسير نازل وعلامة النزول دليل ، ولكنه أحياناً يتزل على السلم وفي ظهر أحد أيام شهر أغسطس في القاهرة ، كان الصديق المجهول يلبس قبعة تقيه وهج شمس أغسطس وطيها ، وإذا به يفاجأ بمن يعدو وراءه وعندما استدار وجده أحد أصدقائه القدماء ولكنه كان مشغول البال ، فلم يلحظ مرور الصديق في مواجهته ، وراح الصديق يعتب عليه نسيانه أو تجاهله ، فوجم الصديق المجهول ، وقد سدَّت في وجهه منافذ الاعتذار ، ثم استدرك أخيراً وقال له : الحقيقة بقی ، أنا ما عرفتكش (وأنا) لابس البرنيطة

وكان يسير في الطريق وإذا بصديق يستوقفه ويمضي معه في حديث استغرق أربعين دقيقة ، وعلى المقيمين خارج القاهرة ، تُصبح اثنين وأربعين ، وعندما جاء الفرج وأراد الصديق أن يذهب لحال سييله ، قال للصديق المجهول ، ابقى خلينا نشوفك ، فقال له الصديق المجهول : بس قول لي أنت بتقف فين وأنا أجيلك

اشترى الصديق المجهول لباً أبيض عندما كان ثمن (الكيلو) ، (١٦٠) وعندما عاد لداره وجد أن أغلبه قلبه فارغ (أفرغ من قواد أم موسى) . ولم يشأ أن يترك ثأره وذهب في اليوم التالي لمحل التسالي الذي

اشترى منه ، فظن الرجل أنه أصبح زبوناً ، فسأله ، يظهر أن اللب عجبك ، فقال له الصديق المجهول ، عجنى جداً يا أخ ، بس كنت تقول لى إنه لب بناتى

و ذات يوم دعى الصديق إلى الغداء بمنزل أحد أصدقائه ، وكان من عادته أن يتناول شيئاً من المشروبات لفتح شهيته العنيدة . ولكنه فوجئ بأن جميع المدعوين ممن لا يجرؤ على فعل ذلك أمامهم . ولاحظت السيدة اللماحة ما هو فيه من ضجر وضيق ، فأدخلته إلى حجرة داخلية ، وقالت له إنها ستحضر إليه كأساً يشربها بسرعة قبل الغداء ولكنه اعتذر فقالت له : ده كأس واحدة

فقال لها : ما هو عشان واحدة ما اقدرش

وكان للصديق المجهول صديق يمتلك رخصة مجلة أدبية منذ زمن بعيد ، وطلب من الصديق المجهول أن يسهم بقدر من شعره فى صحيفة الشعر ، فلم يعارض الصديق المجهول .
وإذا به بفاجأ من صديقه بضرورة تفسير كل كلمة له ، من القصيدة التى ينشرها قبل ظهور العدد بمدة ، لأن مدير التحرير عامل سيوبه
فرضخ له لما بينهما من صداقة . وعندما نفذ له هذا الشرط فى أول عدد ، إذا بالصديق يقول للصديق المجهول ، يا أخى ده أنته بتعرف عربى كويس أوى ، فقال الصديق المجهول ، أبداً يا أخى ده انته اللى يظهر ما تعرفش عربى .

وسافر مرة إلى الإسكندرية للمصيف وكان قد حجز حجرة ، وبسبب زحام المصيف قبل أن يقيم بها برغم أنها مخصصة لاثنتين وصودم

بأنها تكاد لا تتسع لحركته بها، إلا بعد حركات أكروباتيه حتى لا يتعرض لانزلاق غضروفي أو كرامب . . . وكان مثلاً يلبس ملابس على الطريقة السويدية . . .

وعندما نزل إلى المكتب لتسليم المفتاح سألوه إذا كانت الحجرة أعجبه فقال للمسئول : لا بأس . . . أبداً . . . ففرح المسئول فرحة لم تطل لأن الصديق المجهول راح يقول له : إن الحجرة لا بأس بها ، ولكن لشخص واحد ، على شرط ألا ينام في الحجرة ولكن يكون له خالة أو عمّة يتزل عندها ولا يحضر للأوتيل إلا للسؤال عن البوستة أو التليفونات

وعندما كان الصديق المجهول يعمل في اليونان في موقع من مواقع عمله ، سأله عندما عاد ، مسئول كبير عما لفت نظره أكثر من أى شيء في اليونان ،

فقال له : كثرة القهاوى ، لدرجة أنك يمكن تقدر تعد بين القهوة وقهوة عشرين قهوة

وعندما أتم الصديق المجهول دراسته القانونية ، وكان يسكن مع عائلته بالقرب من مقياس النيل في الروضة ، قال له والده ، إن البيت متسع وأنت الآن لك مدخل مستقل وحجرتان ، حجرة لنومك والحجرة الأخرى لاستقبال أصحاب الدعاوى . فقال له الصديق المجهول : أصحاب الدعاوى يحضرون هنا ؟

ده أنا عمري ما شفت سائل أو محروم وصل لغاية هنا . . .

وبعد ، فإذا كان كل فن ينطوى على إطار ومحتوى ، وعلى شكل ومضمون ، وعلى مظهر وجوهر ، يستوى في ذلك الرسم والشعر والتمثيل والنحت ، وما شاكل ، فإن الفكاهة هي الأخرى ، ينطبق عليها هذا القانون ، لأنها فن من فنون القول الجميل .

فالرسم إذا خلا من محتوى الجمال الفني ، الذي يثبه الرسام من ذات نفسه وروحه ومشاعره ، وينقله إلى لوحته لينفذ به إلى قلب وإحساس ومشاعر المشاهد ، فإنه لن يبقى من الرسم إلا قطعة من قماش ومزيجاً من الألوان .

والتمثيل إذا خلا من مضمونه وهدفه من البناء والتوجيه والترشيد ، أصبح شيئاً لا يزيد على مشاهد تتوالى وأفراد يذهبون ويبحثون على المسرح ويتحدثون حديثاً أكثره ثثرة لا تطرق إلا السمع ولا تنفذ إلى الحس والعقل والخاطر .

وقل المثل في الشعر الذي سما به العقاد حتى بلغ به أعلى سماك حين قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ والشاعر الفذُّ بين الناس رحمن
وهو إذا خلا من هذه القدسية ، ومن معانيه العميقة الدقيقة ، ومن مشاعره النبيلة الجميلة ، فإنما هو تفاعيل وقوافي لا روح فيها ولا حس .
والدين في أوامره ونواهيهِ وفي أركانه ودواعيه ، لا بد فيه من روح ومحتوى ومضمون .

فالصلاة إذا خلت مما تحضُّ عليه من عدم إتيان المعصية والمنكر ، ومن الوقوف بين يدي الله خاشعين لتقديم الشكر له على ما أولانا من

نعم الوجود ، فإنها تصبح حركات رياضية .
والصيام يصبح جوعاً لا حصاً على الشعور بحاجة المحروم وتقوية
الإرادة والسمو على الشهوات الدنيا .

والحج إذا خلا من التبرك بأرض الوحي والرسالات ، والطواف حول
أول بيت شيد للناس ليعبدوا الله فيه ، وخلا من زيارة مثنى النبي الكريم
محمد عليه الصلاة والسلام ، حامل آخر الرسالات السماوية ، وخاتم
الرسل والنبين ، وتحقيق منافع من التعارف واللقاء ، فإنه يصبح تجارة
وسياحة .

والفكاهة التي تعتبر كالمسرح (أبي الفنون) ، هي الأخرى تتضمن
إطاراً ومضموناً .

في الفكاهة تمثيل . وفي الفكاهة إخراج . وفي الفكاهة تصور
ونخيل . وفيها من الشعر روية وحسن وقعه وترتيبه . وفيها من الرسم نقله
الأمين للأصل المرسوم .

وفي الفكاهة نقد وتوجيه وترشيد . وفيها ترفيه وتمريض وعلاج .
وهي إذا خلت من المضمون والجوهر والمحتوى ، غدت شكلاً لا غناء
فيه ولا جدوى منه ، وأصبحت عبثاً لا طائل من ورائه ، وانحدرت إلى
مستوى (القفش والقافية) .

وقد اشتق العرب اسمها من الفكاهة ، وما أظن أن لغة أخرى حملت
هذا المعنى الجميل . فالفكاهة ضرورة وشفاء ولذة . وفيها تنوع في الطعم
والشميم والغذاء .

وكذلك شأن الفكاهة في حياتنا ، فإنها تساعد على هضم مصاعب

الحياة وعلى تفريج نجهم العيش وتيسير العسير المرير .
 ولا أزعـم أنى أحطت إلا بالقليل مما تحتوى عليه الفكاهة ، من
 معان وأهداف ، ولكنى أزعـم أنى فى ذكرت ، نوهت بمزايا للفكاهة على
 أساس أنها قاعدة التوازن ، كما سلف وأوضحنا فى التمهيد لهذا الكتاب .
 فعندما يعترى النفس اضطراب ، تخف هى لتمسح بسحرها كربة
 المكروب ، ولا تترك النفس حتى يعود إليها الأمن والاطمئنان ، لتمضى
 فى سيرها إلى هدفها المنشود ، ومصيرها المحتوم .



الفصل الحادى عشر

مجالس الظرفاء

كانت مجالس الظرفاء تنتشر فى أنحاء عديدة فى القاهرة القديمة والحديثة . فكانت قبل العشرينات تنعقد فى مقاهى متعددة حول المقام الحسينى وفى دار المهدي بباب الخلق وفى قهوة المعلم بباب الخلق أيضاً وفى قهوة متاتيا بالعتبة الخضراء وفى بار أستراليا بشارع عماد الدين ، وفى منادر وصالونات لا حصر لها ولا عد .

ونحن نذكر ما سوف نرويه عن هذه المجالس على سبيل المثال فإن حصرها يحتاج إلى هيئة إحصاء وتعداد ومراقبة ومراجعة ومتابعة . .

وكان الشيخ الشربتلى ، نجم قهوة المعلم بباب الخلق . ويتخذ منها مكتباً يدير منه أعماله الصحفية . ففى استطاعته تقليد أى أسلوب أو قلم فى البلد . وعندما يحى إليه أصحاب الصحف - وكان أغلبهم من الأميين - كان يتفق معهم على تسعيرة تنوع فئاتها تبعاً لنوع الكتابة والأسلوب . فإن كان المطلوب مقالة على نمط كتابات اللواء وأسلوب المؤيد ، فثمان الصفحة خمسة قروش .

وإذا كانت الكتابة المطلوبة تسلك مسلك أسلوب الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى ، فالصفحة بعشرة قروش .

أما النوع الممتاز من كتابات ابن المقفع والجاحظ وديع الزمان
الهمداني فالشيخ لا يسمح بأقل من خمسة عشر قرشاً ، لأنها كتابة مخدمة
ومنتقة .

وكان إذا اشتكى أحد أصحاب الصحف من أن المنضدين للحروف
ضجوا من صعوبة قراءة الحروف الصغيرة التي يكتب بها الشيخ الشربتلي ،
صرخ الرجل : « هي الخمسة قروش تشتري ورق والأحبر والا أجز
كتابة . احمدا ربنا ! » .

وكان عثمان جلال بك المستشار الشاعر الزجال المسرحي ، قد ألف
مع شلة من أقرانه ، جماعة أطلق عليها اسم (جماعة الأنس) تجتمع في
مندرة دار تقع على ناصية حارة البرقوقية .

وكان يروى ذات يوم لرواد المندرة ، قصته مع ناظر مدرسة الطب
في أيامه .

فقد ذهب لمقابلة الناظر وكان يعرفه . ورحب به الناظر وسأله إذا
كان يرغب في إدخال (حافظ جلال) - الدكتور فيما بعد - المدرسة ،
فقال له عثمان بك : لا فسأله الناظر إذا كانت هناك خدمة أخرى
أؤديها فأنا كلي استعداد . فقال عثمان بك : عايزك تدخل حافظ ابني
مستشفى المدرسة . فأجابه الناظر بأن حافظ في صحة طيبة . فقال له
عثمان بك أنا أعلم ذلك . ولكني أريد أن يتمرن أولاً على المرضى ثم يرتقى
إلى ممرض ثم رئيس ممرضين ثم يدخل مدرسة الطب ويسير متدرجاً من
أول خطوة حتى يتخرج دون أن يفوته شيء فأنبرى أحد أعضاء
الجماعة ليقول لهم إن قريساً له من أهل الريف جاء لزيارته في

القاهرة . ولما استقر به المقام راح يسأله عن أهل بيته وفي طليعتهم ، ابنه الوحيد ، فقال له صاحب الدار ، الحمد لله دخل مدرسة الطب ودلوقت يشتغل طبيب أطفال ، فقال له قريبه الطيب القلب : ليه يا شيخ ما كنت تخليه يكمل

وكان بار الأنجلو وبار اللواء وقهوة ماتاتيا وحلوانى صولت وقهوة ولبانى التى كانت تقوم بجوار سميراميس وكان يرتادها شوقى بك صنيعاً ، كلها كانت منتديات عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الراقية .

وكان الشيخ عبد العزيز البشرى نجم الأنجلو . كما كان حافظ إبراهيم نجم بار اللواء . ومحجوب ثابت نجم حلوانى صولت . وفي قهوة ماتاتيا كان يجلس بها إمام العبد مع رهط من ألمع أصحاب النكتة . وهذه القهوة شهدت جلسات جمال الدين الأفغانى وعبد الله النديم وسامى البارودى فى شبابهم .

وكان الشيخ البشرى يعجب كل الإعجاب بإمام العبد وبسرعة خاطره ونكتته الحاضرة دون فحش أو تجريح . ولكنه ابتلى ذات يوم بمتأدب كان اسمه محمود راح يقول لإمام العبد إنه أجمل قصيدة للمتنبى هى قصيدة :

عيد بأية حال عدت يا عيد .

وضحك ضحكة فهم منها أن المتأدب المذكور يقصد بيت القصيدة .

لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

فقال له إمام على الفور . بل لعل بيت القصيدة هو :

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن يسبني فيه كلب وهو محمود

* * *

وكان يؤم دار حافظ إبراهيم في حلوان رجل اسمه سليمان شوقي يزعم أنه توصل إلى اختراع مُرَشِّح للماء بوضع تركيبات فخارية في زير يخرج منها الماء رائفاً صافياً .

و ذات يوم كان يجلس مع الندوة دكتور بكير ، وكان يستمع في غيظ لشرح الرجل الذي علم أنه كل يوم على هذه الحال ، فقال له : يا أخى ذنب الناس إيه لما تروِّق الميِّه وتعكِّر دمههم

و ذات يوم كان البابلى يجلس في ندوته الخاصة بالسيدة زينب عندما يصعب عليه نزول البلد للجلوس في الأنجلو بسبب إضرابات جارية . فقد كانت المدارس مضرية وكذلك الترام والعربات والمحال العامة احتجاجاً على تصريحات كانت تصدر عن زعماء بريطانيين ، تمس أمانى مصر في الاستقلال ،

ومر بهم شخَّات ألح كثيراً في طلب السؤال فقال له البابلى : يا أخى اضرب لك يوم ، أنت ما عندكش وطنية ؟

وكنا نجلس في مقهى رويال أمام شيكوريل ومعنا أحد أفراد عائلة ترك أصحاب المخازن الشهيرة باسمهم . ومر سائل وألح على الأخ ترك في طلب حسنة فصرفه بحجة عدم وجود فكة ، ولكن السائل لم ينصرف ، فقال حسين الترنزى لإبراهيم ترك :

يا أخى اكتب له شيك برغيفين بصرفهم من المخبز وقمنا ذات مساء من قهوة رويال لسماع الأستاذ محمد عبد الوهاب في تياترو برينتانيا وكانت وقتها تجرى في عهد إسماعيل صدقي انتخابات نيابية على

درجتين أى لا بد من انتخاب ثلاثين مندوباً ويتتخب من هؤلاء نائب الدائرة

وفى التياترو كان عبد الوهاب يغنى لأول مرة موال : مسكين وحالى
عدم من كتر هجرانك . وإذا بحسين الترزى يصرخ : كمان والنبي
يابنى محمد ده أنا مسكين ثلاثينى

وفى قهوة نيس بميدان الإسماعيلية (التحرير حالياً) ومكان عمارة
بحرى كنت أجلس فى انتظار حسين الترزى ومعى صديق دكتور .
وعندما حضر حسين قدمته للدكتور وراح حسين يشتكى من بعض
أوجاع يحس بها ، فقال له الدكتور أحسن شىء أنك تحلل البول علشان
الدكتور المعالج يعرف بالضبط مرضك . وهات لى تقرير التحليل وأنا
أكشف عليك .

وراح حسين يسأله : وكم يكلفنى تحليل البول ؟

فقال له الدكتور : أظن جنيهاً أو اثنين !

فقال له حسين : طيب والبول من عندى ولا من عند الدكتور . .
وفى أحد الأيام حضر المعلم دبشة الجزار وجلس على مائدة قريبة منا .
وكنا نعرف أنه لا يقرأ ولا يكتب . وأردنا مداعبته . فكتبنا ورقة صغيرة
ونادينا الجرسون وطلبنا منه تسليمها للمعلم دبشة . ونفذ الجرسون ما طلبنا .
وقد أسقط فى يد دبشة ، ولكن لما حيتته وذكاه كانا أسرع من
فرحتنا فيه ، فقد استبقى الجرسون وراح يمصمص شففيه منحسراً ، ثم
أخرج من جيبه قطعة فضية من فئة الخمسة قروش وطلب منه أن يسلمها
لنا ، كما لو كنا سألناه إحساناً

ومن نوادر دبكة أنه كان يمتلك دكان جزارة بشاع التحرير الحالى .
وكانت صغيرة إلى حد ملفت للنظر .

وذات يوم وقف أمام القاضى لاتهامه بمخالفة التسعيرة . وكان رئيس
الجلسة بالمحكمة الجزئية ، أمضى سنوات عديدة بالمحاكم الجزئية مفضلاً
تخطيه ، على ألا يغادر القاهرة . ولما نودى على القضية تقدم دبكة ، فسأله
القاضى ، أليس هو أنت صاحب الدكانة

وراح يشير بيديه إشارة يفهم منها أن الدكان فى حجم الكف . وعلى
الفور قال له دبكة : أبوه يا سعادة البية الدكانة الجزئية
وذات يوم مرَّ حسين الترسى على رامى بدار الكتب - وهى ندوة
عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الذكية - وعندما حان ميعاد الانصراف
قال رامى لحسين : بختك من السما . احنا عندنا النهارده ملوخية بالأرانب
وتعال بنا نمشى واخترقا ميدان باب الخلق وهما فى طريقهما إلى بركة
الفيل . ومرا على محلات كثيرة من محال بيع الطرشى . وكان رامى
يقول لحسين : يا سلام لو كان معانا سلطنة كنا أخذنا معانا من هنا ،
دى البرطمانات شكلها يشبى فما بال الطرشى . فقال حسين لرامى
والا يا سيدى لو كان معانا ترموس كنا أخذنا فيه طرشى علشان يفضل
حرَّاق ٤٨ ساعة

وفى ندوة دار الكتب ، كان يجتمع أحمد رامى وأحمد الزين وأحمد
محفوظ ويحضر لزيارتهم أحياناً الهياوى وكنت من بين المترددين على
الندوة لزيارة رامى أولاًستعارة كتاب .

وحضرت مرة حديثاً فى الندوة يتناول طريقة أداء الأغاني وأسلوب

كل مغنى . ولم يكن الأستاذ أحمد الزين من الراضين عن النعومة في الغناء وترديد النواح والبكاء في موضع الترفيه . وسمعه يقول إنه بدأ في قصيدة ينعى فيها على هذه الفئة كل هذا النواح وأن مطلعها هو :

أنايح أنت أم مُغنى ! سلبت عزم الرجال مني

وكان محل صولت الحلواني ، المكان المفضل لشوقي بك .

وكان جلسائه فيه ، الدكتور محجوب ثابت والشيخ عنارة والشيخ الجديلي والشيخ الجزيري وأحمد محفوظ وكثير من أهل الفضل والأدب وكبار رجال الصحافة الذين كانوا يسعون وراء الجديد من أخبار الندوة وخاصة شعر شوقي في محجوب ثابت . وقد أملى في صولت قصيدة (براغيث محجوب) وقصيدة (مكسويني) . وقد سبقت الإشارة إليهما في فصل سابق .

وكان الشيخ البشرى لا يغادر الأنجلو إلا بعد أن ينتصف الليل . وذات ليلة تأخر عن مواعده ولم يشأ أن يذهب إلى دار أولاده في الزيتون ، بفضل أن يبيت عند شقيقته في السيدة زينب .

وكان في عصر ذلك اليوم قد اشترى وهو جالس في الأنجلو ، قفص فراخ يحتوى على خمس عشرة دجاجة . وأدخل خدام المقهى القفص في مخزن المهملات لحين قيام الشيخ .

وعندما استعد للذهاب . وضعوا له القفص بجوار سائق العربى المعتاد توصيل الشيخ إما إلى محطة الزيتون أو إلى السيدة زينب تبعاً لإشارة الشيخ . وسارت بهما العربى إلى السيدة .

وعند وصول الركب إلى دار السيدة شقيقة الشيخ البشرى حمل

السائق القفص إلى المنزل واحتفظت السيدة بالفراخ في السطوح واعتنت بها وبأكلها ونظافتها كل العناية .

وبعد شهرين من هذه الزيارة ، كانت التعليمات لدى السائق أن يذهب إلى السيدة . فمضى بالشيخ إلى دار شقيقته .

وفي الصباح تنسم الشيخ روائح ذكية منبعثة من بيض يُقلى بزبدة طيبة . وسأل وهو يتناول إفطاره عن كل هذا الخير - وكان البيض كثيراً أمامهم - فقالت له :

فضلة خيرك . الفراخ فراخك والبيض منهم . وإذا كنت عايزهم أجمعهم لك ، بس تدفع مصاريف الأكل إلى قدمته لهم ، وهى حاسبة ثلاثة جنيهات

فصرخ الشيخ وهويقول : بقى يا عالم أدفع قسط بناتى فى (الساكركير) ، ثلاثة جنيهات فى الشهر وادفع للفراخ زيهم ليه ؟ رايحين يكاكوا فرنساوى

وعندما دعى الشيخ البشرى لقضاء أيام فى عزبة الشريعى باشا بالمنيا ، تأخر عن العودة فى الموعد المضروب ، وفكروا أعضاء الشلة فى إرسال برقية تتعجل عودته وتركوا لحفى بك محمود صياغة البرقية . وكانت على هذه الصورة الشفوية :

« كشكار دايم ولا علامة مقطوعة »

حتى لا يفهمها إلا الشيخ وحده ، باعتبارها من لهجات شمال الأنجلو ومن اللغات المندثرة

وكانت تعنى ، أن العز المؤقت الذى تنعم فيه ، مصيره إلى نهاية .

ومن الخير لك أن تعود لما هو دائم

وفي عصر أحد الأيام ، حاول البشرى أن يقطع شارع شريف أمام
الأنجلو ، ولكن السيارات ، كانت وكأنها مسبحة ، متوالية ، متصلة .
فوقف إلى حين انفراج .

وكانت تقف إلى جواره سيارة إسعاف كانت تؤدي خدمة في المنطقة
فقال سائقها للشيخ البشرى ، الذى يترقب في خوف :
ما تفوت يا سيدنا الشيخ !

فقال له الشيخ : بس مش عايزين نتعبكم
وكنت أجلس مع دكتور إبراهيم ناجى فى مطعم سيسبل بميدان
التوفيقية تنتظر رامى . وراح ناجى يحكى لى عن قصته مع مريض كان
على خصاصة وعوز ، فأعطاه ناجى بعد الكشف وكتابة الروشيتة مبلغ
جنيه لمساعدته .

وبعد شهر لقي ناجى زوجة المريض فسألها عن صحته فقالت له
الله يعوض عليك يا دكتور . إحنا جينا بالجنيه بتاعك حكيم كويس
وكان فى ايده الشفا والحمد لله

فقلت له ، إني كان بينى وبين صديق كريم ، دكتور عيون ذكى
ونابه ، ولكن كانت تشغله عن فنه شئون عديدة وسعيدة
فرويت مره عنه ، أنه كان يفحص عين مريض وأطال فى الفحص
وتحمل المريض وقال للدكتور ، بتعمل إيه يا دكتور ، قال له بافحص
عينك يا أخى ، فأجاب المريض :
دى العين القزاز يا دكتور

وفي مصيف رحله بجبل لبنان ، في صيف عام ١٩٢٧ ، نظم شوقي قصيدة « يا جارة الوادي » ، واسم القصيدة في ديوان شوقي « آية الزمان » ، ليرد به شاكراً لبلدية زحلة تفضلها بمنحه قطعة أرض في أجمل بقعة بالمصيف لبنى عليها شوقي قصراً يحل به كل صيف .

وكانت البلدية قد أقامت في هذه المناسبة حفلاً كبيراً دعت إليه الكثيرين من أدباء وشعراء وكتاب العرب ممن كانوا يصطافون في لبنان في ذلك الصيف ، احتفاء بشوقي بك وتكريماً له .

وبعد أن أعلن مدير البلدية قرار البلدية ، قام الأستاذ الكبير بصوته الأخاذ ، الأديب الكاتب فكري أباطة ليلقى القصيدة الخالدة . ولم تكن (يا جارة الوادي) المعروفة إلا مقدمتها الغزلية . ولكن القصيدة الأصلية تزيد على خمسين بيتاً .

وكان الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب قد لحن هذا الجزء المعروف ، وقام بغنائه في هذا الحفل الكبير ، حيث استقبله جمهور المستمعين استقبالاً يتمناه الفاتحون

وكانت ليلة . . . تمنينا أن يقف الصباح فلا يقربها ، إلى أن انبلج نور الفجر ، وانطوت ليلة العمر ، التي ما يزال أرجها يعبق ويملاً الذاكرة بشذاها ويفيض على الفكر برّياها . وحتى يومنا هذا ، ما تزال هذه القصيدة (يا جارة الوادي) تغنى بصوت عبد الوهاب في منتديات نهر البردوني الذي يشق وادي زحلة وتنتشر على ضفافه مطاعم ومشارب وأماكن هو تسطع أنوارها وتبدو حول البردوني الذي لا يزيد عرضه على أربعة أمتار ، كما لو كانت سواراً من ماس .

وأصبحت يا جارة الوادى رمزاً على وادى زحلة ، وناولها من الشهرة
 الخالدة ، مثل ما نال أغنية (على جسر أفنيون) Sur le Port d'Avignon
 التى ظلت منذ القرن الرابع عشر تتردد حتى اليوم على لسان كل صبي
 وصبية فى جميع أنحاء فرنسا .

* * *

وفى صباح هذه الليلة الهنيئة ، كان المصريون المصيفون من نزلاء
 فندق قدرى يجتمعون ، وكلهم أصدقاء ، فى تراس الفندق انتظاراً لصحف
 القاهرة فى لهفة وقلق .

وكان شوقى بك يجلس معنا أحياناً ، مستمعاً كعادته ، أو معلقاً
 بقول حكيم لا يطول أكثر من حسو الطير من جدول رقرق .

كانت الصحف قد نشرت هذا الصباح ، توصل مدام (كورى)
 لأكتشاف عنصر الراديو الذى يمثل مرحلة من مراحل الاختراعات
 والتطور العلمى السريع ، وسلسلة من فتوحات العلم النظرى والتطبيقي .
 وكنت من حسن طالعى أجلس إلى جوار الشاعر الخالد حيث كنت
 أطلعه على الخبر المثير فى صحف الصباح المحلية ، ورأيت يتهيج لهذا النصر
 العلمى ثم يهمس لى بصوت خفيض ، (إن السيدة التى تصلح لعمل
 الرجال ، لا تصلح للرجال .)

وكان يعنى أن عملها سوف يشغلها عن مهام بيتها ، ولكن ، لقد
 أثبتت المرأة بجدارة وبكل صدق وإخلاص فى عصرنا الذى نعيشه ،
 أنها فى كل ميدان تطرقه تبلغ فيه غايتها بنجاح وتوفيق وصدق وأمانة .
 وبينما نحن جلوس ، إذ بصبي يحمل أعداداً من قصيدة (آية

(الزمان) طبعها بصورة عاجلة مطبعة محلية في زحلة وراح هذا الصبي -
 وفي جبل لبنان مثل أمريكا يشتغل الصبية في عطلة المدرسة يبيع الصحف -
 راح الصبي يلح علينا في شراء بضاعته من (آية الزمان) واشترينا جميعاً
 منه فيما عدا شوقي بك ، وراح الصبي يلح على شوقي بك ليشتري نسخة
 وهو يأبى أن يجيبه إلى طلبه ، بمكر حسن ليرى النتيجة ، وإذا بصديق من
 الجالسين ، وهو لبناني ، يقول للصبي : يا أعمى القلب ، ها يدا شوقي
 بك بنفسه بعظمه بلحمه ، كيف تبيع له القصيدة وهو ناظمها ؟
 فقال الصبي : يا با ، باعرف أنه شوقي بك أميراً لشعرا لكن بلكي
 ينساها

على أن هذه المجالس ، كانت تطوى في جوانحها وبين ثناياها
 ملامح كثيرة من ملامح الجامعات التي لا تقيد طلابها بمواعيد للحضور
 أو الانصراف ولا تحملهم على الاستماع إلى ما لا يحبون إلا وقتاً يشاءون .
 فالكل فيها منتسب والكل فيها مستفيد ، منذ أن كانت كالبحر المنفتح
 على كافة التيارات ، وليست كالبركة التي أسن ماؤها من افتقارها طوال
 ركودها إلى تيارات جارية متجددة .

وكانت المحاولات التي تدور في الصحف وفي النوادي وعلى منابر
 الجمعيات ، تطرح للبحث في هذه المجالس .

فكانت مبارزات الدكتور زكي مبارك التي حمل فيها على كل من
 الشيخ عبد العزيز البشري وأحمد أمين بلا داع يدعو إليها وكلا الرجلين
 حتى بكل تقدير ، كانت هذه المصارعات - من طرف واحد - تدعو
 إلى العجب منها والبحث في هذه المجالس عن هوائها .

وقد توصل مجتهد . . من المجتمعين إلى سر الهجوم بقوله : إن الدكتور
 في غير حاجة لشهرة ، ولكنه بهجومه المدير يضمن ألا يتصدى له أى
 قلم بعد أن عرفوا مرارة هجومه . والفلس يغلب السلطان ، وهو يعتمد
 على أنه في حال ليس من بعده ما هو أسوأ منه .

وايه ياخذ الريح من البلاط

وبعد ، فقد كانت المناقشات في هذه المجالس تجري على وتيرة
 مناقشات الأطروحات التي تقدم للجامعات لنيل درجات علمية ،
 أمام هيئة من كبار الأساتذة المتخصصين ثم ينصرف المجتمعون وهم
 على شوق للقاء آخر وآخر حتى آخر العمر . . . رحم الله أهل هذه المجالس ،
 وأعان من تبقى من فلولها على قيد الحياة .



الفصل الثاني عشر

استخدام الفكاهة في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية

منذ أقدم العصور ، والفكاهة تستخدم في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية . وقد تحقق لها ما استهدفته من أغراض ، على أحسن الوجوه ، ولقد استخدمه النقاد وطالبوا بالإصلاح من خلال الفكاهة ، وسلكوا وسائل كان من بينها النقش والنحت والتمثيل والغناء والرسم والنظم والكتابة الأدبية ، لتقويم المعوج من انحرافات تميل بتقدم المجتمعات ، وتخرج بها عن جادة الاتزان ، بحيث يصبح الإصلاح ضرباً من ضروب العلاج العاجل والتصحيح الصحيح .

وكان لقدماء المصريين فضل السبق في استخدام النحت والنقش للنقد الفكاهي بقصد الإصلاح والعلاج . وما تزال الصور الدالة على ذلك ، تحتل أماكن ظاهرة على جدران المعابد والهياكل ، كما انبثت في البرديات ، قصص ناقدة ونظم ساخرة .

ولقد ظهر في نهاية حكم الفاطميين ، أحد قواد صلاح الدين الأيوبي ، واسمه قره قوش . وكان من خيرة قواد صلاح الدين .

وكانت الأحوال السياسية الجارية في الدولة وحولها ، وانتقال البلاد من نظام شيعي إلى نظام سني ، يستدعيان استعمال الشدة والقسوة حتى

لا يفلت الزمام من أيدي الحكام ، الأمر الذي جعل اسم قره قرش رمزاً لكل حكم ظالم مستبد ، أوطاغية جبّار .

وقد لجأ أهل الفن من الشعب الذي قاسى من ظلم قره قوش إلى ، الفكاهة في صورة كتابات وقصص وشعر وأزجال وتمثيل ، تناقلها الخلف عن السلف .

وفي أيام الظاهر بيبرس ، كتب ابن دانيال وكان كحّالاً (يبيع الكحل) مسرحية أسماها (طيف الخيال) استخدم في إخراجها (خيال الظل) .

وقد أراد بها تحقيق أمرين ، الأول نقد الأحوال الاجتماعية والسياسية في الدولة ، والثاني المساهمة في الترفيه عن الشعب الذي كان الظاهر بيبرس قد حرّم عليه تعاطي المخدرات وهدّد المخالفين بعقوبات رادعة ، ووقع بالفعل عقوبات بالغة الشدة على هؤلاء المتعاطين .

ووجد ابن دانيال فرصة سانحة في التعريض عن سبيل هذا الترفيه بما وصلت إليه البلاد من انحلال ، كان يعمل على تفشيّه ، تدخل الأجانب ونفوذهم .

كما ظهر خلال حكم المماليك (ابن سودون) الذي كان يندد بما انصرف إليه الفقهاء من اهتمام بالمتن والشروح وإهمالهم شئون الدعوة إلى الإصلاح الذي هو أولى وأسبق . وراح يجري حواراً بين دابة وعربة ، أو بين فرس ومركب شراع بصورة غير مألوفة في التناول والحوار ، حتى لقد ذكر بعض النقاد أن هذا الاتجاه وهذه المحاولة كانت بذرة لمسرح العبث واللامعقول الذي حمل لواءه في عصرنا الحاضر (صمويل بيكيت)

وفي تحقيقات الجبرتي وابن إياس ، تفاصيل وافية عن هذه الحقبة من ذلك ما نقله الجبرتي من أهازيج كانت تجرى على ألسنة الشعب ، يتندرون بها على الحاكم التركي ويتناولونه بالزرارية والهزاء ، مثل قولهم :
يا باشا يا وش القملة مين قال لك تعمل دى العملة

ثم ظهر الشرييني ، الذى نظم قصيدة شعبية أسماها « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » . وكانت تعد من أكثر الأعمال الفنية الشعبية فى ميدان النقد الفكاهى ، جرأة وكشفاً وثائقياً لأحوال الفلاح المصرى وما كان يحيط به من ضنك نتيجة عدم العناية بعيشه أو صحته أو تعليمه ، وراح ينادى بالإصلاح السريع ، والعمل على رفع الظلم عن الفلاح ، ومنحه بعضاً من صميم إنتاجه من مأكل أو ملابس ، حتى لا يصبح كالإبرة التى تكسو الناس بغزلها ونسجها وتبقى هى وحدها عارية .

ثم ظهر فى عصر تال ، يعقوب بن صنوع ، ليقدم تمثيلياته النقدية ، ويصدر صحيفة (أبو نضارة) فى مصر ، ثم يصدرها وهو فى باريس بعد أن نفاه الخديو إسماعيل من مصر ، ليستمز على الدرب فى نقد الأحوال فى مصر والمطالبة بالإصلاح ، وكان إسماعيل أكبر هدف أمامه .

وعاصر صنوع واستمر من بعده ، عبد الله النديم الذى أصدر صحيفة التبكيك والتنكيك ، التى رفع فيها لواء المطالبة بتعليم الفلاح وإنقاذه من استغلال الأجانب والمرايين ، اعتماداً على جهله بما يحيط به ، ولحجب العلم عنه توسلاً لهذا المصير ، وكانت الفكاهة فى عرض هذه الشئون بارعة ونافعة .

وقد استخدمت المقامات على طريقة بديع الزمان الهمداني على يد

المويلحي ، في كتابه (حديث عيسى بن هشام) للتعرض إلى نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بصورة جذابة ، فيها فكاهة ومفارقات ومتناقضات . كما استخدمت الفكاهة الأحاديث التي تجرى على ألسنة الحيوان ، في كتاب ابن المقفع ، على يد عثمان بك جلال ، الذي نظمها شعراً ، وكذلك صنع شوقي وله في ذلك ديوان كامل .

ولقد بث شوقي في أشعاره كثيراً من النقد الفكاهي نكتي بعرض بيت منها ينتقد به إهمال الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد في إصلاح وترميم كوبري (غَلَطَه) الذي يعتبر شرياناً هاماً وجسيراً وحيداً في إستانبول ، يقول فيه :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمرُّ على الصراط ولا عليه

* * *

ثم ظهرت مجلات وصحف فكاهية نذكر منها السيف والمسامير وحمارة منيتي ثم الكشكول وخيال الظل والفكاهة والبعكوكة ، لتحمل لواء النقد السياسي والاجتماعي في عهدها ، وتنقل بأمانة تأوهات الشعب ، بصورة فكاهة جذابة ، منذ أن كانت الدعوة إلى الإصلاح ، بالصورة الجادة المألوفة ، تنفر وتفض الناس من حولها .

ومن كتابات عبد الحميد الديب في نقده لمجتمعه ووصفه لمحترفي السياسة والأدب ، قوله :

« نجد تلك الأقزام المتعلقة ، متحلقة ، تستمتع على الكؤوس ، بصيد ونهش سيرة الآخرين . كل لسان هناك نصل سفاك ، عاطش للأذى ، في لوم ضحكك ، إذ أن ذاك الطراز المستريح ، ينبغ في التهريج ،

ويذبح بطرف اللسان . . »

وهو يخاطب صديقه فاطمة ، مندداً بالعيش الذى عاشه فى أيامه .
« لو أننا ، أنا وأنت يا فاطمة ، ظهرنا فى زمنٍ ، يأخذ كل إنسان فيه
حقه وكيانه الآدمى الحقيقى ، لكان لنا عشق جميل ، وعمل وبيت وأمل . .
لكننا ولدنا فى زنقة الطاحون وعشنا فى الكهوف ، وداست عواطفنا
وأحلامنا ، أحذية الموكب الأعمى . . »

* * *

وفى أوربا ، كانت رواية (دون كيشوت) أروع أعمال كاتب
أسبانيا الكبير ، (سرفانتس) ، تجرى أحداثها من خلال رحلة نظمها
الكاتب ، ليقوم بها فى الخيال (دون كيشوت) وتابعه (سانكو يانزو)
وبغلته الشهيرة ، ليجرى على ألسنتهم ، حواراً يتناول بالنقد الفكه ،
وبالأحداث المجونية ، ما كان يجرى فى أسبانيا من مساوئ فى المجالين
السياسى والاجتماعى .

وكذلك كانت روايات وتمثيلات (مولير) الفكاهية ، وقصص
(لافونتين) فى القرن السادس عشر ، تهدف إلى الإصلاح ، وكانت
تنطوى على نقد ما كان يجرى فى البلاد وفى القصور الملكية من انحرافات .
ومن العجيب أن تمثيلات مولير وقصص لافونتين كانت تمثل ، دون أى
تعديل ، على مسارح القصور ، أمام الملك والحاشية ، ليروا بأعينهم ،
مبلغ ما وصلت إليه الحال من سوء .

وفى إنجلترا ظهرت مقالات (تشارلز لامب) :

Essays of Charles Lamb لتنقد ، برغم التحفظ البريطانى المعهود ،

الأوضاع التي يسلط عليها المؤلف بأسلوبه الفكاه الماكن ، أضواء تكشف عن
الأدواء ، وتصف الدواء .

* * *

ومصر بحمد الله غنية بالنقد الفكاه البناء ، الذي وصلت فيه إلى أعلى
الذرى ، فى النظم والكتابة والصور ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حتى
أيامنا هذه

وتعددت ألوان الفكاهة الناقدة ، من كاريكاتير إلى تمثيل إلى شعر
إلى زجل . وهذا اللون الأخير ، تولاه أعلام الكلمة المنطوقة الهادفة ،
وساداتها المجيدين ، أمثال بيرم التونسي (مولير مصر) وحسين شفيق المصرى
(أبو نواس مصر) وصلاح جاهين وأبو بشينة ومحمود رمزى نظم وحسين
الطنطاوى وإمام الصفطاوى

كان بيرم التونسي ينتقد الغلاء الفاحش وارتفاع رسوم المجلس البلدى ،
بشعر جاء فيه :

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى !
إذا الرغيف أتى ، فالنصف آكله
والنصف أجعله للمجلس البلدى
كأن أمى أبلاً الله تربتها
أوصت وقالت ، أخوك المجلس البلدى . . .

* * *

أما دكتور سعيد عبده ، فقد كان ولم يزل من خير من استخدم من

ناظمي الكلمة الناقدة ، الموال في نقد الأوضاع الإجتماعية والسياسية
 باقتدار ودراية .

ونذكر له فيما يلي ، نماذج تلمس فيها مدى درايته واقتداره في كتابة
 الموال ، واستهداف الإصلاح بأسلوبه المرح النابه ، وقارته يلحظ قدراته
 العروضية في استخدامه لبيت في الموال يصوغه باللغة العربية الفصحى ،
 ويرفع من قدر عمله الفني .

كان بشعور الأب ، يكتب عن قلق الآباء الطويل ، أيام الامتحانات ،
 وقلق الأبناء فترة قصيرة ، وشتان بين الفترتين :

يا محنة الامتحان ما أتعسك محنه
 يا قالقه نوم الولاد والقلقين احنا
 يا قايدة نار انتظارك في جوارحنا
 يا ريت هناكى على قد الشقا . . . إلا
 شقاكى أش وفرحك يوم ، إذا فرحنا

* * *

ويقول في نقد مشول كبير ، استطاع خلال الأربعينات ، بقدرته
 الفريدة في النفاق والرياء ، أن يحتفظ بمركزه الحساس ، عشرين عاماً ،
 وسط الزعازع والأعاصير :

فين وشك اللى عليه رب العباد أنشاك

أبوسه بوسه هنا وارجع أبوسه هناك
 يا معجزة في البلد ، جلّت على الإدراك

يا آية في أكل مخ الخلق . . يا قادر
سارح مع الديب وراجع والغنم ديبك

* * *

وبعد ، فإن مصر ما تزال بين مختلف الأمم ، جوهرة لألاءة ، في
ميدان النقد الفكاهي منذ أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، بإطلاقها
النكتة المريشة ، والسخرية اللاذعة ، والكاريكاتير المتهم البارع .
ولقد شهد للكاريكاتير المصرى ، وأساطين الفن الكاريكاتيرى
فى العالم ، وشهدوا بقدراته ، رسماً وكلمة ، ودقة وأمانة ، وبوعوه أعلى
المراتب ، وأشادوا بدوره كلما عرضت مناسبة .
والكاريكاتير عندنا ، ذخيرة نعتر بها ، وبأربابه على مر الأيام ،
وندخرهم للملهمات والأزمات ، ونسعد بإنتاج قرائحهم فى أيام الصفو
والسلام .

* * *

ولعله لا يكون من العجائب أن الطبيعة فى مصر ، تشترك مع أماليها فى
إرسال السخرية ، طبعاً لا تطبعاً ، فهى الأخرى ناطقة صادقة . .
فالنيل فى جريانه ، يرسل خريراً كله سخر وحكمة . وريحها المعتدل ،
يعزف على أوتار الصفصاف ، نغمة ضاحكة وسخر خفياً . والنار فى
الأجران عندما يتحلق حولها الفلاحون استجلاباً للدفء ، أو إعداداً
للشاي ، ترسل أصواتاً ضاحكة مكتومة ، كأنها تسخر من موقديها . .
وسواقى الغدير تشن فى ضحك مكتوم ، وسخر لا يبين ومصر التى ترعرعت

الحضارة على ثراها الطيب الطاهر ، تَعْبُرُ في أيامها الحديثة ، مقازة ،
 كانت خطواتها الأولى على دربها واثقة أبيّة ، وسوف تصل إلى شاطئ الأمان
 الذي اعتزمته ، وأصرت على بلوغه ، ما دام روح أبنائها المجددين ،
 يتفرق في أساريه في كل الظروف ، مزيجٌ من الجدد الواثق ، والسخر
 الجاد .



مراجع الكتاب

الأغاني	: لأبي الفرج الأصبهاني
المستطرف في كل فن مستظرف	: للأبشيبي
ديوان أحمد شوقي	: لأحمد شوقي
ديوان حافظ إبراهيم	: لحافظ إبراهيم
عبد العزيز البشري	: للدكتور جمال الدين الرمادي
سبيل الحياة	: لإبراهيم عبد القادر المازني
جحا الضاحك المضحك	: لعباس محمود العقاد
الدراما بين النظرية والتطبيق	: لحسين رامز رضا
الكشكول	: للعاملی
العقد الفريد	: لابن عبد ربّه
اليخلاء	: للجاحظ

Good for a Laugh — by Bennett Cerf For funs and Popularity — by
Paul Showers Oeuvres Choiesies — par Jules Renard Believe it or not —
by Robert L. Ripley.

الفكر

صفحة

تمهيد

٩	: مدخل إلى عالم الفكاهة والمجون	الفصل الأول
١٨	: الفكاهة والمجون في ضوء العلم والفلسفة	الفصل الثاني
٣٧	: علاقة الفكاهة بالأدب في جميع صورته	الفصل الثالث
٤٧	: أدب الفكاهة في المسرح	الفصل الرابع
٦٨	: أدب الفكاهة في الشعر عند الشعراء	الفصل الخامس
١٠٠	: أدب الفكاهة في الرسم عند الرسامين	الفصل السادس
١٢٠	: أدب الفكاهة عند الكتاب	الفصل السابع
١٤١	: أعلام الفكاهة في الغرب	الفصل الثامن
١٦٦	: أعلام الفكاهة عند العرب	الفصل التاسع
١٨٢	: أعلام الفكاهة في مصر	الفصل العاشر
٢٢٥	: مجالس الظرفاء	الفصل الحادي عشر
٢٣٨	: استخدام الفكاهة في النقد الاجتماعي	الفصل الثاني عشر

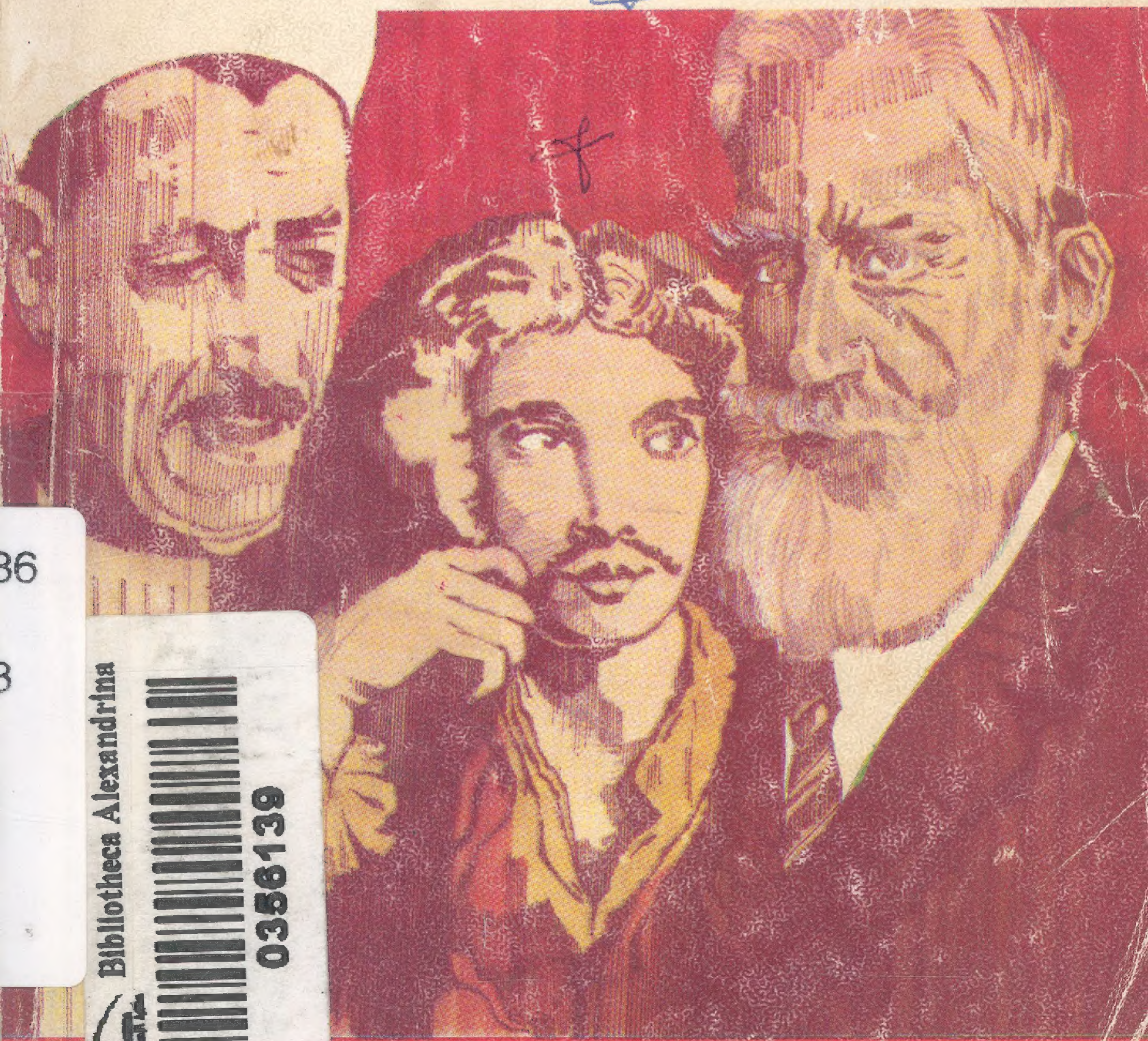
والسياسي

٤٠٤٠٠٩/٠١



Handwritten Arabic text in black and pink ink, including the word 'كتاب' (book) and 'مكتبة' (library).

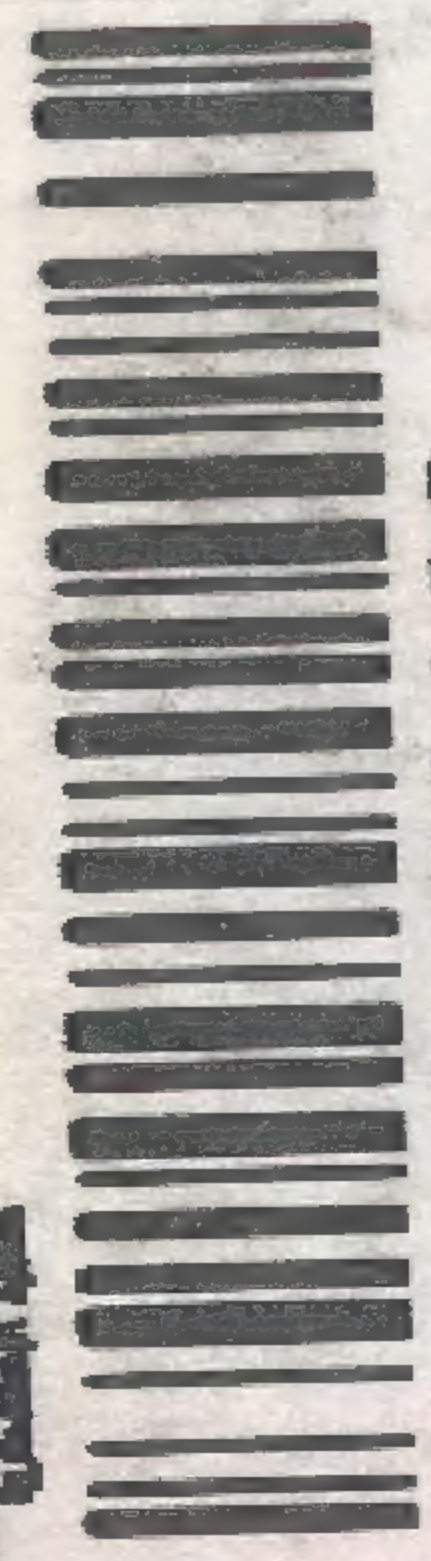
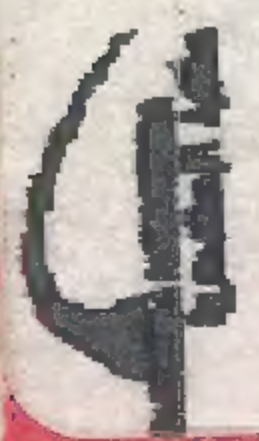
Handwritten numbers '٢٠' and '٢٠' in black and pink ink.



36

3

Bibliotheca Alexandrina



0356139